

لجنة التأليف والترجمة والنشر

حياة نابليون

تأليف

حسن جلال

مؤلف كتاب الثورة الفرنسية

الجزء الاول

سلسلة المعارف العامة

فهرست الجزء الاول

ص

- ٧ الكتاب الاول — مائة نابليون
- ٧ (١) الباب الاول — بيثة نابليون
- ٨ الفصل الاول - كورسيكا
- ١١ » الثاني - أسرة بوناپرت
- ١٤ » الثالث - أم نابليون
- ١٩ » الرابع - الوسط المدرسى
- ٣٤ » الخامس - الثورة الفرنسية
- ٤٤ » السادس - بين فرنسا وكورسيكا
- ٥٥ » السابع - باؤولى
- ٥٩ / ٢ الباب الثانى — بين الحظ والمواهب
- ٦٠ الفصل الاول - أسرة بوناپرت فى فرنسا
- ٦٢ » الثانى - المعركة الاولى حصار بولون
- ٧٤ » الثالث - التحالف الدولى الاول
- ٧٩ » الرابع - نابليون والتحالف الاول
- ٨٣ » الخامس - كوكب النخس
- ٩٢ » السادس - الحكومة فى خطر
- ٩٨ » السابع - طالع السعد

ص

الكتاب الثاني — الجبرال بونا برت ١٠٥

(١) الباب الاول — زواج نابليون ١٠٥

الفصل الاول — عواطف نابليون . . ١٠٦

الثاني — جوزفين ١١٠

(٢) الباب الثاني — نابليون يضع أساس شهرته . ١٢١

الفصل الاول — فرنسا والتحالف الأول . ١٢٢

» الثاني — الحملة الايطالية ١٢٥

» الثالث — بين الحملتين ١٤٤

الرابع — الحملة المصرية ١٥٢

(٣) الباب الثالث — في منزل نابليون ٢٠٥

الفصل الاول — خيانة جوزفين ٢٠٦

الثاني — لوئيز فوريس ٢١٨

» الثالث — لقاء الزوجين ٢٢٧

(٤) الباب الرابع — نابليون رئيس حكومة فرنسا . ٢٣٥

الفصل الاول — حالة فرنسا في غياب بونا برت ٢٣٦

» الثاني — انقلاب برومير ٢٤١

» الثالث — دستور سنة ١٧٩٩ . ١٥٧

الكتاب الثالث القنصلية (منه نوفمبر ١٧٩٩ مايو ١٨٠٤) ٢٦٧

(١) الباب الاول — فرنسا من سنة ١٨٠٠ — ١٨٠٢ ٢٦٨

ص

الفصل الاول - نابوليون فى التويلرى . ٢٦٩

» الثانى - السياسة الداخلىة - ثورة ٢٧١

لافنديه - النظام المالى

والادارى - القانون -

الكونكوردا - وسام

الشرف - المعارضة . . .

الفصل الثالث - السياسة الخارجىة - التحالف ٢٨٩

الدولى الثانى - الحملة الايطالية

التحالف البحرى الشمالى -

صلح اميان - فصل لمدة

حياته

٢ (الباب الثانى - فرنسا من سنة ١٨٠٢-١٨٠٤ ٣١٣

الفصل الاول - انجلترا تعلن الحرب ٣١٤

من جديد

الفصل الثانى - التعبئة ٣٢٣

» الثالث - المؤامرة الكبرى . . . ٣٢٧

» الرابع - نابليون الاول امبراطور ٣٤٤

فرنسا وملك ايطاليا .

رجاء الى القراء

وقعت عدة أغلاط مطبعية في هذه الطبعة لظروف
فهرية . وقد أثبتنا منها في الجدول التالى ما رأينا ضرورة التنبيه
اليه . فنحن نعتذر عن وقوعها ونرجو القارى أن يبدأ
باصلاحها حتى تسقيم له المطالعة بعد ذلك
وهناك أغلاط مطبعية صفة أخرى اعتمدنا في عدم
اثباتها على فطنة القارى اللبيب

المؤلف

الصواب	الخطأ	الصحيفة	س
		سطر	
وكان	ولكن	٥	١
مبال	ميال	٢٠	٢١
تشوقا	تشوقا	١٥	٢٥
جندت	حبذت	١٢	٤٣
ليالى	ليال	١٢	٤٧
السييل	السبل	١	٦٩٠
التالى	الثانى	٩	١٣٨
الامبراطور	الامبراطورية	٧	١٤٢
أميرال	أميرلاى	١٤	١٥٧
من أن يبعث	من يبعث	١٠	١٦٠
دون	من	١	١٦٩
الاصلاح والعمل على	الاصلاح على	١٢	١٧٣
وعاونه	وعادته	١	١٩٣
جاد	جاء	١	١٩٣
مطلق تصرف بونا بارت	مطلق تصرف بونا بارت	٨ و ٧	٢٢٢
حكومته	حكومة	٢	٢٣٧
وخارت	وخانت	١١	٢٥٢
الاجماع	الاجتماع	٥	٢٦٥
من تلك الموضى الداخلية	من تلك الاخطار	٩ و ٨	٢٧٠
التي كان يعيش فيها			
وينقذه من تلك الأخطار			

الصواب	الخطا	صحيفة السطر	
الى	الا	٩	٢٧٩
جزاء للمجتهد	جزاء المجتهد	٤	٤٨١
المنافسة	المنافسة	٢ هامش	٣٠٠
لا جثا	لا جثاب	١١	٣١٥
الترييت	الترتت	٢	٣١٦



نابليون وأركان حربيه

تفسير

زعموا أن جماعة من العميان كانوا يسرون في طريق فاعترضهم فيل عظيم ولم يكن لهم معرفة سابقة بالفيلة ولا بأوصافها فحاروا في أمره وأمسك كل واحد منهم بجانب من جوانبه وأخذ يصفه لأصحابه فقال أولهم وقد وقعت يده على خرطوميه « ما أشبه هذا الفيل بالآفعى ! » ولكن جاره قد أمسك بالفيل من أذنه فقال على صاحبه قائلاً : — « أولاً تظن أنه أشبه بالمروحة العظيمة ! »

وكان ثالثهم قد أدرك من الفيل ساقه فتعلق بها صائحاً : — « إنه لمن الغباوة أن لا يميز الانسان كيف أن هذا الفيل أشبه الأشياء بجذع النخلة ! »

وكان الرابع قد وقعت يده على ذنبه فضاق صدره بكلام رفاقه . وهزأ لهم ذنب الفيل في يده قائلاً :

— « يا أيها الحق ! أ يكون هذا الفيل كالحبل ثم تقولون عنه ما تقولون ؟ ! » وعند ذلك تكلم الخامس في رزائه

وتؤدة إذ لم تعجبه دفعة صاحبه . وكان قد أصاب من الفيل نابه فأمسك به وقال :

— « فيم هذا الجدل والأمر أوضح من أن يختلف فيه اثنان ؟ وكيف عزب عن ادراككم أن هذا الحيوان أشبه بالحرية منه بكل ما تهرفون ؟ » . وكان سادسهم قد بسط يده فأصاب جانب الفيل فمر بها عليه وهو يعجب من سوء إدراك رفاقه إذ لم يفطنوا إلى أنه كالجدار . فقال : — « كفوا أيديكم ! فليس فيكم من هو خليق بالحكم على حقائق الأشياء ! ان هذا الفيل كالحائط . وليس على ظهر الأرض من يستطيع أن يحولني عن هذا الاعتقاد ! »

فهذا الفيل العنيم هو نابليون الكبير بشخصيته الهائلة يعترض طريق المؤرخين . وهؤلاء العميان هم طائفة من المؤرخين ضلوا في تصويره وتفهم نفسيته . فهو في نظر بعضهم مارد جبار يهدم العروش ويقاب الممالك ويهلك ملايين النفوس ! وفي نظر غيرهم ملاك حارس أرسله الله لانتشال فرنسا من وهديتها ونشر النظام في أوروبا وتعميم مبادئ الحرية والمساواة فيها ! وهو عند قوم ذئب كاسر

لا يعرف الا الفتك والسطو وله نظرات يتطاير منها الشرر !
وعند قوم آخرين كالحمل وديع حلو الحديث أنيس وله
ابتسامات ساحرة تأخذ بمجامع القلوب !
وهاءنا بدورى أمد يدى إلى هذه الشخصية العظيمة
أحاول وصفها فلعلى اذا انتهيت من هذه الرسالة لا أراى قد
انضمت إلى الصف وأصبحت سابع العميان حول
جسد الفيل !

وأنت أيها القارىء قد يكون لك صديق مقرب إليك
تلازمه ويلازمك ثم إذا بدا لأحدكما أن يتحدث عن زميله
فانه قد يضل فى تصويره ويتخبط فى تحليل نفسه . وتحديد
ميوله . وضبط صفاته . فما بالك بمن يتصدى للحديث عن إنسان
لم يره ولم يعاصره . وخير ما بين يديه من آثاره مذكرات أو
كتب كتبها عنه أنصاره أو خصومه . فهى وحي الهوى
وتصوير الاعجاب . أو املاء المقت وصدى الحفيظة ؟ ما بالك
بمن يتصدى للحديث عن نابليون بونابرت وهو تلك الشعلة
الآدمية الفريدة التى اندلعت فى فرنسا فبهرت الأنظار وخطفت
الابصار . وأضاءت . وأحرقت . وتقلبت عليها كل الأجواء .

فقصفت بها الزعازع حتى كادت تحطم مصباحها . وهفت من فوقها النسبات حتى ذكت وكاد سناها يذهب بالابصار ! لقد أجمع المؤرخون أو كادوا على أن نابليون كان قائداً عظيماً ومصلحاً كبيراً وسياسياً حكيماً وادارياً قديراً وأن له من الوقائع والأخبار ما يملأ بطون المجلدات . ولكننا ونحن نؤرخه الآن لا نريد أن نقنع بسرد معاركه وذكر أخباره . انما نريد أن ندرس حياته لنستكشف فيها أسرار العبقريّة . ولنقف ما استطعنا على عوامل النبوغ ومقدمات البطولة — إن صح ان للنبوغ والبطولة عوامل ومقدمات .

نريد أن ندرس صباه لنرى كيف نشأ وبأى المؤثرات تأثر . ونريد أن ندرس حياته وهو طالب لنرى إلى أى مناحى العلم كانت تتجه ميوله .

ونريد أن ندرس حياته جندياً لنرى كيف كان يرسم خططه وكيف كان يعمل على تنفيذها .

ونريد أن ندرس حياته قائد جنود لنرى كيف كان يعامل جنوده وبأى الوسائل نزل من قلوبهم تلك المنزلة التي تقرب من التقديس .

نريد أن ندرس حياته امبراطوراً لنرى كيف كان ينتقى

رجالہ وكيف كان يدير برأسه الفرد امبراطوريته الواسعة .
ونريد أن ندرس حياته زعيم ملوك لنرى كيف جمع في
ركابه عواهل أوربا وأمراها .

نريد أن نعرف كيف كان في حبه ليهود زفين . وكيف
كان في كراهته لهدسون لو .

نريد أن نراه وسما أوربا كلها تضيق بجناحيه العريضين .
ونريد أن نراه وقد وسعته جحور سنت هيلانة وأوكارها
الضيقة . وفي الجملة نريد أن نطالع عبرة من أقصى عبر الدهر !
وهي أن رجلا أقبلت عليه الدنيا وهو في مهاوى الفاقة
والعجز فأصبح ملكا وكان من بين رعيته ملوك . ثم أدبرت
عنه وهو في قمة المجد والعظمة فسار إلى المنفى وحيدا طريدا .
وقد انكره حتى رجاله وتخلت عنه حتى زوجته !

الكتاب الأول

حداثة نابليون

الباب الأول

بيئة نابليون

الفصل الأول : كورسيكا

» الثاني : أسرة بوناپرت

» الثالث : أم نابليون

» الرابع : الوسط المدرسي

» الخامس : الثورة الفرنسية

» السادس : بين فرنسا و كورسيكا

» السابع : پاؤولى

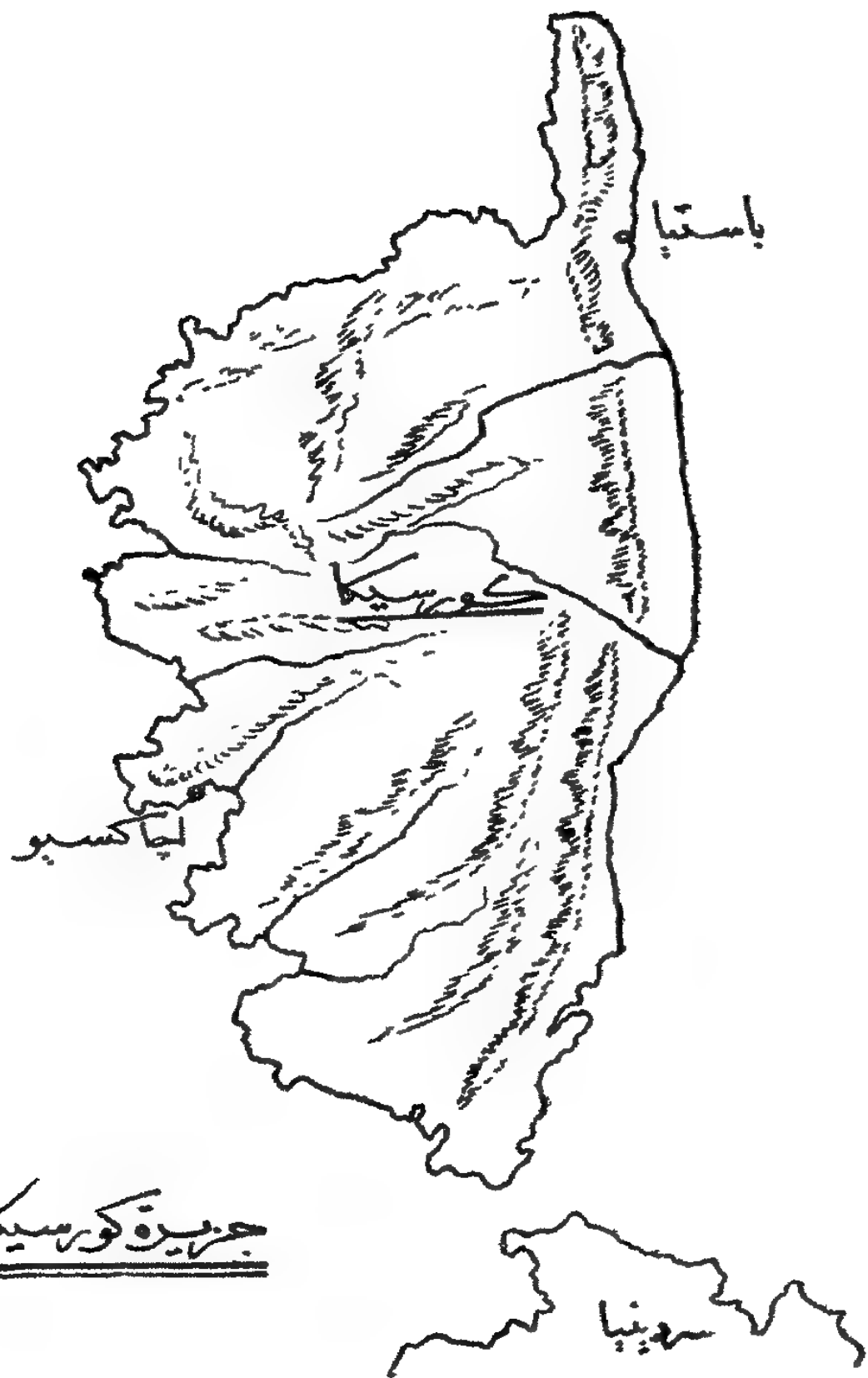
الفصل الأول

جزيرة كورسيكا

تقع جزيرة كورسيكا بالقرب من الساحل الغربي لـإيطاليا . وهي جزيرة ذات سطح جبلي تكسوها غابات الشاه بلوط (أشجار الكستناء) وقد اشتهر أهلها بتلك الصفات القوية التي يشاركون فيها سكان المناطق الجبلية في كل زمان ومكان من الصلابة والشجاعة والنخوة وحدة الطبع والمبالغة في تقدير الشرف والكرامة .

وكانت هذه الجزيرة في أوائل القرن الثامن عشر تحت حكم جنوا بعد أن تداولتها في القرون السابقة أيدي الحكام المختلفين من أهل ييزا وأراجون وميلان .

وإلى هذه الدول المستبدة التي تعاقبت على الجزيرة يرجع السبب فيما امتاز به أهلها من الجموح والعناد والتمرد . ولقد فشت في ظل هذا الحكم المستبد عادة الفاندتا Vendetta . أو الانتقام الشخصي على نحو ما هو معروف الآن بين عرب الصحراء في الديار المصرية . فكان الرجل إذا أصابه سوء



من جاره لحقه عار لاصق لا يمحوه الا أن يثار لنفسه من خصمه بيده دون الالتجاء إلى السلطة العامة لما هو مركب في غريزته من الاعتداد بالنفس والاستخذاء من طلب النجدة ممن كان خارجا عن دائرة الأسرة .

ولقد كانت تلك الحكومات في الواقع قليلة العطف على رعاياها من أهل الجزيرة . فلم تكن تحفل بادخال تشريعات أرقى من تلك الشرائع العتيقة . بل أنها كانت تشعر بشيء من الارتياح إلى تفشى عادة الفاندتا بينهم لينصرفوا عن مناوأتها الى اشكالاتهم الخاصة ولتستنفذ هذه المشاجرات جهودهم فتبسط الدول الحاكمة يدها إلى خيراتهم وأرزاقهم تسلبها وهي في مأمن من اعتراضهم لها أو تمردهم عليها . بيد أن ما لاقاه أهل الجزيرة أخيراً على أيدي حكامهم الجنويين من ضروب العسف والارهاق أهاب بهم الى الانضواء تحت لواء واحد لمقاومة هذا الحكم المجحف الثقيل . فلقد أثقلت عليهم حكومة جنوا في فرض الضرائب المختلفة وسدت في وجههم طريق الوصول إلى أي منصب من المناصب الادارية . وتركت سواحلهم نهياً لحملات القرصان المتكررة حتى أن الأهليين لم يجدوا بداً في أول الأمر من اخلاء

السواحل الخصبة والاعتكاف في أواسط الجزيرة القحلاء
أو الفرار إلى الجزائر المجاورة .

وما زال يتلقى علم الثورة ضد حكم جنوا زعيم وطني يقوم
من بعده زعيم حتى انتهى الأمر إلى پاسكال پاؤولى Pascal
Paoli الذى استطاع أن يعيد الى الجزيرة شيئاً من النظم
المدنية ويقضى على كثير من مساوىء الادارة فيها . وقد ساعده
في كل ذلك ما أدرك جنوا من الانحلال والشيخوخة وصيرورة
سيادتها إلى الضعف والزوال .

غير أن جنوا ما كادت تحس بنقص نفوذها عن الجزيرة
حتى تفاوضت مع فرنسا على أن تبيعها حق ملكيتها لها وتمت
الصفقة بينهما فعلاً في ١٥ مايو سنة ١٧٦٨ . فما لبث أهل
الجزيرة أن رأوا أنفسهم وجها لوجه أمام سيد جديد يفوق
في نفوذه وسطوته ذلك السيد القديم الذى لم تكمل فرحتهم
بخلع نيره عن أعناقهم . فقر قرار پاؤولى وحزبه على أن
يقاوموا هذه السيادة الجديدة . فكان من أنصار پاؤولى الذين
اشتركوا معه في تقرير هذا الرأى سكرتيره كارلو بوناپرت
والد نابليون بوناپرت بطل هذا الكتاب وأمبراطور الشعب
الفرنسى فيما بعد .

الفصل الثاني

أسرة بوناپرت (والد نابليون)

لم تخرج أسرة بوناپرت عن كونها وحدة من وحدات المجتمع الكورسيكى الذى أتينا على وصف شيء من خواصه فى الفصل السابق . فكانت تتمثل فيها تلك الصفات التى كان يفاخر بها كل كورسيكى من اعتداد بالنفس وصبر على الشدائد . ولكن ما زال بين والدى نابليون من الفوارق الخلقة ما يجعلنا نفرّد كلمة لكل واحد منهما .

فأما أبوه (كارلو بوناپرت) فكان من سلالة أسرة ايطالية شريفة عريقة فى النسب . فورث عنها اسمها الشريف . ولكن لسوء الحظ لم تكن تتوفر لهذا الاسم ماحقاقته من الثروة والوجاهة ورفعة المقام فلم يأل الرجل جهداً فى الحصول على كل مايتفق مع هذا الاسم من الجاه والثروة وكان لا يستنكف فى سعيه أن يصل إلى غايته بالمداهنة ومصانعة أولى الأمر لينال الخطوة عندهم ويكون مقرباً اليهم . وقد طوحت به مطامعه الواسعة فى مغامرات مالية جرت على أسرته من بعده أشد الارتباك .

ولقد حصل كارلو هذا على شهادة في القانون من جامعة
بيزا وتزوج وهو في التاسعة عشرة من عمره بفتاة لم تكن تجاوزت
سنتها الخامسة عشرة ولكنها كانت نامية الجسم يحسبها الناظر
اليها قد بلغت العشرين . ولقد كانت تلك الفتاة في جمالها فتنة
أهل كورسيكا قاطبة حتى لقد تنافس فيها المتنافسون من شبانها
الاكفاء . فاستبقهم اليها في تلك السن المبكرة كارلو اللبق
اليقظ فولدت له غلامين ماتا في طفولتهما ثم رزقت منه
بيوسف بكر أبنائها الأحياء .

ولم تكذ تنشر دعوة پاؤولى في جزيرة كورسيكا بوجوب
القيام في وجه فرنسا التي اعتدت على استقلالهم بابتياح وطنهم
من جنوا حتى كان كارلو وزوجته الحسناء في مقدمة الملبين
لنداء الوطن . وركبت جوادها الى جانب زوجها وشاطرته
كل مخاطر القتال . وعلى الرغم من كل ما أبداه أهل الجزيرة
من ضروب البسالة في مقاومة فرنسا فإنه لم يكن من الصعب
التنبؤ بمصير كورسيكا — إذ استتب الأمر فيها لفرنسا في
صيف سنة ١٧٦٩ وغادرها بسكال پاؤولى هو وزعماء حزبه
الى لجهورن (إيطاليا) ثم الى انجلترا .

وبعد ذلك بنحو ثمانية أسابيع ولد نابليون بوناپرت في



شارل بوناپرت

اجاكسيو (١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩) و**1987** أن الحكمة «الوصولية» تقضى بموالاتة الحكومة الجديدة فتجح في الحصول على رضاها ونال الخطوة عند حاكم الجزيرة الفرنسي وانتهى به الأمر أن انتخب عن هيئة أشرف الجزيرة ليكون ممثلاً لهم في بلاط فرساي . وكان المستقبل بساماً لمثله لو أنه عاش حتى أدرك الثورة الفرنسية كما أدركها وفاز فيها غيره من الأشراف المفلسين . ولكن المنية عاجلته وهو في ريعان شبابه فقضى نحبه (١٧٨٥) في مونيبيه وهو دون الأربعين . وكان قد ذهب إليها مستشفياً من سرطان المعدة ولكنه مات به كما مات به من بعده ولده نابليون .

~ ~

ولقد كان كارلو شديد الحب لابنه نابليون وكان يختصه بالعطف والملاطفة دون سائر اخوته . ويرى فيه يبصيرته الأبوية أنه سيكون زعيم كورسيكا . وكذلك كان نابليون شديد التعلق بوالده وكان يحبه حباً جما حتى أنه لما مات بعيداً عنه في مونيبيه بسبب وجوده هو في المدرسة بباريس ظل زماناً يندب سوء حظه لحرمانه من توديعه بنظرة أخيرة ومن تشييعه إلى مقره الأبدي مع جماعة المشيعين .

الفصل الثالث

أم نابليون

ورث نابليون عن والده الناحية البراقة من شخصيته . فهو مدين له بالطموح والعمل على كسب الشهرة وحب الطهور . ولكنه مدين لوالدته بجوهر شخصيته . مدين لها بالثبات والعزم والثقة بالنفس ومجادة الخطوب ومدين لها بالنظام والدقة وحسن التدبير . مدين لها بالشجاعة والاقدام وقوة القلب . مدين لها بهذا كله وبغير هذا من تلك الدعائم الخلقية الراكزة التي قام عليها بنيان مجده الشاهق

كانت أم نابليون تدعى ليتيشيا رامولينا فهي من سلالة بيت رامولينا الماجد العتيق وهو بيت مشهور في تاريخ كورسيكا بمتانة أخلاق أفراده ووفرة النابهين منهم . ولقد مات أبوها قبيل زواجها بسنوات فكفلها زوج أمها الجديد وهو رجل سويسرى من أرباب المصارف فثبت بين يديه على مبادئ الدقة وحسن التقدير وضبط الحساب وأضاف بهذه الصفات النافعة ثروة جديدة الى كنز جمالها الذى حبتها



الوالدة العظيمة
مدام بوناپرت (ليتيشيا رامولينو)

به الطبيعة فجعلتها ملء عين الجميع .

ولم تكد ليتيشيا تتجاوز سنتها الرابعة عشر حتى تهافت عليها شبان كورسيكا من كل حدب يطلبون يدها طمعاً في جمالها وكمالها ففاز بها دون نظرائه سيد شبان تلك الجزيرة في الرشاقة والذكاء كارلو بوناپرت وتم زواجهما سنة ١٧٦٤ .

وعلى الرغم من ائتمام زوجها الى أسرة شريفة عريقة في النسب إلا أنه لم يكن ذا ميسرة فتجلت من البداية مواهب عروسه الاقتصادية وعاش الزوجان في هناء عائلتي مدة عشرين سنة أنجبت ليتيشيا في خلالها ثمانية أبناء منهم خمسة ذكور وثلاث أناث — أو قل ثمانية أبناء منهم أمبراطور وثلاثة ملوك وملسكة واحدة ! وكان نابليون ثاني أبنائها الذكور . ولما مات زوجها لم يخلف لهذه الأسرة الكبيرة إلا ملكاً صغيراً يتراوح ريعه بين الألف والالف وخمسمائة فرنك في العام . فاحتملت ليتيشيا أبناءها وعادت بهم من أجاكسيو الى الريف حيث أقامت زماناً وهي تتمتع برعاية شقيق زوجها — لوسيان — غير أن المقادير أبت ألا أن تفجع الأسرة مرة أخرى في عائلها الجديد فمات لوسيان هذا تاركاً خلفه ليتيشيا وأبناءها تكافح الفاقة وحدها ولا تجد ذراعاً تستند اليه .

واليك ما كتبه نابليون نفسه عن ذكريات هذا الموقف
الرهيب :

« دعانا عمنا اليه وهو على فراش الموت . ثم باركنا ودعا
لنا دعوات صالحات وقال مخاطباً أخى يوسف : أنت يا يوسف
أرشد العائلة ولكن لاتنس أن نابليون رئيسها ! — ثم لفظ
نفسه الاخيرة وسط عويلنا ودموعنا التي استدرها هذا المشهد
الفاجع . أما والدتي فأنها رأت نفسها بعده بغير هاد ولا نصير
فلم يكن يد من أن تدير بنفسها دقة الامور . وما كان ذلك
على همتها بعزیز . فأنها تولت جميع أمرنا . وأعدت لكل
شيء عدته بعناية عظيمة لا يمكن أن يتوقعها الانسان ممن كان
من مثل جنسها أو في مثل سنها . يالها من سيدة ! وأين يجد
الانسان لها شيئاً أو نظيراً ؟ لقد كانت تكلؤنا بعين لا تنام
بل ولا تغمض وكانت تقاوم في نفوسنا كل عاطفة خبيثة
وكل نزعة شريرة . ولم تكن تسمح لشيء أن يستقر في أذهاننا
الفتية إلا أن يكون سامياً وعظيماً . وكانت تمقت الكذب .
ولا تطيق أن ترى واحداً منا يخرج عن طاعتها قيد شعرة .
ولم تكن تغضى عن هفوة نرتكبها مهما صغر شأنها . ولقد
حل بها الخسائر الفادحة فما ابتأست ! وعضها الفقر بنابه فما

طاطات رأسها ! وأجهدتها المتاعب المضنية فما أدركها الا عياء .
ولكنها احتملت كل شيء ووقفت في وجه كل شيء ! لقد
كانت لها همة الرجل وعنفه تمازجها رقة المرأة ولطفها !
تلك كانت أم نابليون كما يصفها هو . ولا ينبئك مثل
خير ! وفي الحق لم يكن لمثل نابليون أن يخرج الا من أحضان
مثل هذه الأم — أستغفر الله ! بل هذه « الا كادمية » —
فقليل على مثل ليتيشيا أن توصف بأنها « أم » فتشترك معها
في هذا الوصف كل من أرضعت وليداً !

وما دمننا بصدد الكلام عن ليتيشيا فلا بد لنا من أن نشير
إلى أنها ان كانت مدينة بقسط من أخلاقها إلى نظام المجتمع
في كورسيكا . وبقسط آخر إلى زوج أمها السويسرى وبقسط
ثالث الى عوامل أخرى فانها مدينة بشيء كثير لجمالها . وذلك
لأن الجمال كما لا يخفى يكسب صاحبه شيئاً كثيراً من الكبرياء
والدالة بسبب ما يراه حوله من اشارات الملق ووسائل التقرب
فهما كان تواضع الفتاة الجميلة فانها لا تلبث أن تجدد نفسها قد
تربعت فوق كرسي السيادة الذي رفعها اليه إعجاب المفتنين
بها . وهكذا يخلق الجمال لصاحبه دولة رغم أنه ثم يجلسه
على عرشها . فلا غرو أن نرى بعد ذلك في ليتيشيا تلك

الصفات الملكية وذلك الخلق النبيل الذى كان يشع عن شخصيتها الجذابة فى كل أقوالها وأفعالها . ولقد ظلت هذه السيدة محتفظة بشيء كثير من جمالها حتى آخر أيامها مع أنها عمرت حتى قاربت التسعين .

وما يحلو ذكره عن هذه السيدة الجميلة صاحبة السيرة الحلوة أنها ظلت عمرها لا تحيد الفرنسية . وأن ابنها نابليون بعد أن أصبح امبراطوراً وفتحت له أبواب الثروة على مصاريعها . أغدق عليها النعم وأمطرها وابلا من ذهبه وفضته . ورتب لها مراتب جزيلة . غير أنها لم تكن تغترف من هذا البحر الزاخر الا بقبضتها الضيقة الاولى التى أمسكتها سنى الفاقة الطويلة . وأيام الحاجة المرة التى قاستها فى بدء حياتها وبقي الرعب الذى تسلط عليها فى عسرها الاول مائلا أمام عينيها بقية عمرها يمنعها من الاسراف والعمل على كسب القلوب بالهبات والصلات .

وعلى الرغم من منح ولدها لها لقب « Madame Mère » وهو لقب يقربه إلى أذهاننا لقب « والده باشا » الذى تعودنا سماعه هنا فى مصر فانها عاشت فى عزلة باعدت بينها وبين قلوب الشعب الذى تملك ولدها عواطفه !

الفصل الرابع الوسط المدرسى

تحدثنا عن كورسيكا وعن أهلها . وأتينا على شيء من تاريخها فى القرن السابع عشر فاذا هو سلسلة من المعارك المتصلة قام بها أهل هذه الجزيرة فى وجه جنوا أولاً ثم فى وجه فرنسا ثانياً . وذكرنا كذلك أن نابليون بونابرت ولد على أثر هذه المعارك وغبار الحرب ما زال يملأ جو الجزيرة فكان أول ما استنشقه مع نسيم هذه الحياة ونشأ تحيط به أخبار القتال من كل جانب حتى أن القصص التى كان ينام على سماعها كل مساء وهو فى حجر أمه لم تكن تعدو سرد ما وقع لها هى وزوجها من الحوادث إبان تلك الحرب وما كابدته فيها من المصاعب والأهوال والعدو من ورائهم يطاردهم من قرية إلى قرية ومن جبل إلى جبل . ولقد تملكنا هذه القصص نفس نابليون منذ حدثته إلى حد أنه لما شب وترعرع لم يكن يلذ له من ألعاب الطفولة إلا أن

يمثل هذه المعارك مع الصبية الذين يلعبونه . وكان له مدفع صغير من النحاس وزن نحو ثلاثين رطلا لم يكن أحلى في أذنه من وقع قصفه حين يطلقه في الفضاء ويتخيل فيالق العدو وهي تفتى في دخان باروده . . . وما يزال السائح الذي يزور كورسيكا اليوم يقوده دليله إلى مكان هذا المدفع كما يقوده إلى مكان أثرى آخر يعرف باسم « كهف نابليون » وهو جحر صغير في صخرة عاتية على شاطئ البحر كان يأوى إليه نابليون في صباه لينفرد فيه بنفسه وليرقب منه أمواج البحر المصطنجة وهي تتكسر على الساحل — تلك الأمواج التي كانت آخر ما بقي له في جزيرة سانت هيلانة لما حرمته السياسة الانجليزية حتى رفاقه القلائل الذين تطوعوا بحمل آلام النفي معه .

« ١ » مدرسة أجاكسيو الأولية :

ولم يكد يبلغ نابليون السادسة حتى أدخله أبوه إحدى المدارس الأولية في أجاكسيو ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة وما إليهما من العلوم التحضيرية . وعلى الرغم من نعومة الوسط في مثل هذه المعاهد الأولية فإن نابليون انفرد بين

رفاقه بشيء من الشنوذ والتهور . وكان في تلك المرحلة من عمره بعيداً كل البعد عن حسن الهندام فكان لا يرى إلا وجواره ساقطة على حذائه ولكنه كان شديد الولع بصيية كانت معه في المدرسة فكان دائماً يمشيها في أوقات الفراغ وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه . ويغلب على الظن أن منظر جواربه المدلاة لم يكن يروق زملاءه لا سيما وهو يمشي رفيقته هذه فكانوا يسخرون منه ويجمعون خلفه هازئين منددين . وكان هو يتغاضى عنهم ويتجاهلهم حتى اذا أسرفوا في كلامهم واحتاجوه ثارت في دمه كل طبائعه الكورسيكية وانقض عليهم كما تنقض الصاعقة غير مبال بجمعهم ولا مكثرث بعواقب هجومه . وأعمل فيهم أطرافه الأربعة صفعاً ولكما ووكزاً — كل ذلك بسرعة وصرامة تكفلان له إلقاء الرعب في قلوب غرماؤه وتشتيت جمعهم . وعند ذلك يعود وعليه كبرياء النصر إلى صديقه ليضع يده في يدها من جديد !

ولقد كان هذا الجموح البادي في طبعه سبباً في أن يرشحه أبوه للجندية فما كاد يبلغ العاشرة من عمره حتى سعى أبوه في سبيل الحصول على توصية لدى ولاية الأمور في فرنسا

لالحاقه باحدى مدارسها الحرية . ولكن جهل نابليون باللغة الفرنسية قضى بادخاله أولاً مع أخيه يوسف في مدرسة أوتان « Autun » حيث قضى بضعة شهور في تلقى أصول هذه اللغة ليتمكن من متابعة دروسه بها في مدرسة برين الحرية .

« ب » مدرسة برين الحرية Brienne

وكان في فرنسا في ذلك الوقت اثنتا عشرة مدرسة حرية ابتدائية ينتقى سنوياً من بين تلاميذ فرقها النهائية ثلاثة طلبة عن كل مدرسة يرسلون لتتميم دراستهم في مدرسة باريس العليا . وكانت مدرسة برين واحدة من تلك المدارس الاتنتى عشرة . وكان تلاميذها كتلاميذ بقية المدارس الحرية من أبناء الأشراف المترفين الذين يستنكفون من دخول المدارس الأخرى الخاصة بتخريج الأطباء والمحامين والمهندسين وغيرهم لأنه كان من دواعى الزرابة في ذلك الجيل الارستقراطى أن يحصل الرجل على المال بكدح يده وعرق جبينه . وكانوا يقضون وقتهم في هذه المدرسة لاعبين هازلين وكانوا يتفاخرون بالاسراف والتبذير كما يتنافسون في الألقاب والأنساب . فدخل بينهم نابليون — وأبوه محام



نابليون في مدرسة برين

كورسيكى — نخسر المعركة من أول طلقة ! وانضم الى صفوفهم وجبوه أخلى من قواد أم موسى فكان موضع استهزائهم وتحقيرهم ; ولو أن شاباً غيره وفى مثل رقة حاله ألقى فى مثل هذا الوسط الارستقراطى لصغرت نفسه ونشأ على الملق والعبودية وانطفأت عزته أمام تلك المظاهر الوجيبة التى كانت لزملائه من دونه . ولكن نفس هذه المظاهر هى التى حركت عزة نابليون وهاجت كبريائه وملأت نفسه سخطاً على ذلك النظام الذى يسود فيه الانسان لمجرد الصدقة بحكم مولده ولا يقام فيه وزن للكفاءة والجد . ولقد لاقى نابليون من الهوان بسبب هذه الفوارق بينه وبين زملائه ما جرح قواده الصغير . وملأ قلبه حقداً على هذا الشرف الموروث . وجعله فى أيام عزه ومجده يتعصب للكفاءة دون النسب ويرفع قدر أهلها فوق كل اعتبار .

وهكذا قضى نابليون سنى دراسته الأولى غريباً فى وسط زملائه يتجافاهم ويتجنب مجالسهم خجلاً وأنفة . ولما لم يجد بينهم رفيقاً يأنس إليه التى بنفسه بين أحضان كتبه فانتفع بكثرة الدرس . وتفوق على أقرانه وأصبح له ما يتيه به عليهم إن تاهوا عليه بماهم ومظهرهم الوجيه !

ولكن هذه العزلة القاسية التي التزمها نابليون وذلك
الجد المتواصل . الذي أبداه في الدرس والتحصيل قد طبعا
جسمه بطابع الضعف والهزال وبقي متأثراً طول حياته بما
خلفته له هذه السنوات الخمس التي قضاها في برين . وهو
مدين ولا شك بقصر قامته وضئولة جرمه وضخامة رأسه
إلى تلك الجهود الجبارة التي كان يبذلها وهو بعد صبي لم
يكتمل نمو جسمه .

وكانت أحب الدروس الى نابليون دروس الرياضة .
وقد برع فيها منذ صغره براعة جعلته موضع إعجاب أساتذته
أنفسهم فكانوا يقربونه اليهم ويدعونه إلى مواعيدهم الخاصة
تكريماً له وتنوياً بمقدرته وكان يميل بعد ذلك إلى الجغرافية
ودراسة الخرائط . ولكن كتب التاريخ هي التي كانت
تستهويه وتستغرق كل حواسه بما تحويه من أخبار قيام الدول
وسقوطها وأسباب رفعتها وعوامل انحطاطها . ومن الكتب
الممتازة التي كانت موضع تفكيره المتواصل كتاب « الموازنة
بين الأبطال » الذي وضعه بلوتارك . فان نابليون وجد فيه
المادة الدسمة التي كان يسيل لها لعابه بما تضمنه من قصص
أبطال اليونان والرومان وذكر أخبارهم والتحدث عن

جهودهم وما وصلوا اليه من الرفعة والكرامة بفضل نبوغهم.
فكان يحب عبا في هذه القصص وكان يخفق قلبه لمطالعتها
تشوقاً إلى ذلك اليوم الذى يفسح له فيه الطريق لمسيرة
هؤلاء الأبطال فى سبيل العظمة والشهرة والخلود .

* * *

وحدات سنة ١٧٨٤ وهى السنة الأخيرة لنابليون فى
مدرسة برين وتصادف أن جاء شتاؤها قارساً كثرفيه هطول
الثلج حتى تغطت أرض المدرسة واكتسى فناؤها بكسوة
كثيفة منه تعذر معها قيام الطلبة بشىء من ألعابهم العادية
فركدت أعضاؤهم وانقبضت نفوسهم وعند ذلك خطر
لنابليون أن يقيم من هذه الثلوج حصناً صناعياً يحيطه
بالأبراج والأسوار ويقيم دونه الخنادق والمتاريس ثم يقسم
طلبة المدرسة إلى فريقين يتحصن أحدهما داخل الأبراج
ويهاجمه الآخر من الخارج . وراقت الفكرة لدى ولاية
الأمور فوكلوا اليه أمر تنفيذها .

وهكذا أصبح نابليون فى لحظة واحدة يجد المدرسة كلها
تحت أمره فأخذ فى توزيع العمل على أفرادها ووقف بينهم
يصدر أوامره وتعليماته ويشرف على كل جزء يتم فى هذا

المشروع حتى قام كل شيء وفق إرادته . ولقد بلغ من احكام التصميم أنه استرعى أنظار أهالى المدينة فكانوا يقصدون أسوار المدرسة ليشاهدوا من خلالها ذلك التخطيط الثلجى البديع .

وبدأت المعركة ولم يكن نابليون مع أحد الفريقين ولكنه جعل مهمته تسيير الحرب وتوزيع أعمالها بين القسمين المتحاربين . فكان يتولى قيادة المهاجمين حتى إذا انتظمت حملاتهم وحمل وطيستها طار إلى قوة الدفاع يحضهم على الثبات والمجادة حتى تكل وتفتقر قوة الهجوم وهكذا ظل يتنقل من جانب إلى جانب واستمرت المعركة قائمة عدة أسابيع وهو فى كل أدوارها موضع إعجاب الجمع . ولقد بلغت صرامة نابليون فى تنفيذ أوامره أن ضابطاً فى هذه المعركة التمثيلية تردد فى إطاعة أوامره فما كان منه إلا أن ألقى عليه مقدوفاً ثلجياً ألقاه على الأرض وتسبب له فى جرح بقى أثره فى جسمه مدى حياته .

ولعل من الانصاف بعد ذلك أن نذكر أن هذا الطالب بعينه تنكرت له الأيام بعد خروجه من المدرسة وضافت به سبل العيش وكان نابليون إذ ذاك فى أوج عظمته فقصد اليه وطلب مقابلته قائلاً إنه كان زميلاً « للأمبراطور » فى برين

فلم يذكر نابليون اسمه وكلف حاشيته باستيضاح الزائر عن شخصيته فعاد اليه أمينه قائلاً — « يامولاي أن للرجل جرحاً طويلاً في جبهته يقول أنه أصيب به من يد جلالتم ، فتذكر نابليون وقال باسم — « أجل . أنى أتذكر ذلك الجرح جيداً ؛ أدخلو الرجل . » — ودخل الرجل وأجابته زميله القديم إلى كل ما سأل .

وتذكرنا هذه الحكاية بحكاية أخرى وقعت لنابليون مع مدرس الخط الذى كان يعلّمه فى برين . فلقد لاقى هذا المدرس من تلميذه الجامع كل مشقة فى تقويم يده وذلك لأن خط نابليون كان من الرداءة بحيث لا يقرأ . وعالجه الأستاذ بكل الوسائل ولكن على غير جدوى وأخيراً أثس منه وترك حبله على غاربه وفوض أمره لله فى خيبة أحد تلاميذه . ومرت على ذلك السنون والأعوام وساءت حال الرجل فلم ير أمامه غير « تلميذه القديم » فقصده . وكان نابليون فى ذلك الوقت مع زوجته جوزفين فى سان كلو فأدخل عليه الرجل وهو ينتفض فرقا خشية أن تكون زيارته قد أزعجت خاطر الامبراطور . ولمح نابليون منه ذلك فأراد أن يستغل الموقف للتفكه قليلاً على حساب هذا الأستاذ البائس . فنظر اليه

متظاهراً بالغضب . فازداد ارتباك الرجل وهو يقدم نفسه إليه قائلاً أنه كان مدرس الخط في برين . فاستمر نابليون في إدعاء الغضب وقال : « حقاً ، لقد كنت تعلمنى الخط . فيا حسن ما أنجبت ! ؟ هذه جوزفين عندك فتفضل بسؤالها عن رأيها فى خطى الذى علمتنيه ! »

وعند ذلك ابتسمت الامبراطورة بما هو مشهور عنها من الرقة واللفظ الذى أكسبها قلوب الجميع قائلة « أؤكد لك ياسيدى أن خط الامبراطور من أحلى الخطوط : »
فقهقه نابليون لسماع هذه الشهادة الجريئة ورتب للرجل البائس معاشاً يستعين به على ما بقى من أيامه .

« ج » مدرسة باريس الحرية

وفى أكتوبر سنة ١٧٨٤ كان نابليون من بين تلاميذ مدرسة برين الذين وقع عليهم الاختيار ليدخلوا مدرسة باريس الحرية . فدخلها فاذا هو أمام وسط ارستقراطى أدهى من وسط برين وإذا لكل طالب من زملائه خادم خاص يقوم بخدمة حصانه وصقل سلاحه وتنظيف حذائه وإذا هم يتناولون فى غذائهم أشهى الاطعمة ويتقلبون فى نومهم على



توقيع نابليون

أوثر الفراش فافتتح نابليون عهده في هذه المدرسة بتقديم تقرير شديد اللهجة إلى إدارة المدرسة به فيه إلى أن هذا النظام لا يمكن أن يؤدي إلى تخريج ضباط يصلحون لخوض المعارك وركوب أهوالها وقال بوجوب تعويد الطلبة الخشونة في كل مرافقهم محبذا تولى كل طالب أمر نفسه يخدم حصانه بيده ويصقل سلاحه بنفسه ويقوم بكل ما هو مطلوب منه غير معتمد في ذلك إلا على جهوده الخاصة ليشب على حب العمل وليتبدد من ذهنه ذلك الزهو الكاذب الذي يملأ عادة رؤوس الضباط الصغار ويجعلهم بمعزل عن جنودهم في حين تقضى المصلحة بالاقتراب منهم والاتصال بهم .

ولقد رأى نابليون في هذا الوسط الجديد أن لا بد له من أن يعتصم بما اعتصم به في برين من الرزانة والاعتكاف والاكباب على المطالعة والدرس ليدفع عن نفسه ذلك النظر الشزر الذي كان يصوبه نحوه أقرانه .

ولقد كان بسبب ضمور جيئه وتعاसे هندامه كثير الهموم حتى لقد قال بعد ذلك (سنة ١٨١١) في وصف هذه الأيام . « إن تلك الهموم كدرت على صفاء الشباب وأثرت في طبعي وأكسبتني الرزانة قبل أوانها . . . »

وكان مما زاد في هموم نابليون في ذلك الحين وفاة والده سنة ١٧٨٥ فقد حزن لفقده حزناً أليماً لما كان يرجوه من الخير والمعونة على يديه بعد خروجه من المدرسة وقد صرح بهذا المعنى تصريحاً في رسالة بعث بها إلى عمه على أثر الوفاة حيث قال — « . . . واءسفاه لقد كان كل شيء يدلنا على أن الفقيد سيكون نعم العون لنا في زمن الشباب . ولكن الله لم يرد أن يقيه لنا . وارادة الله نافذة لا مرد لها وهو وحده القدير على أن يلهمنا الصبر عنه والسلوان » .
أما أمه فقد كتب إليها يقول :

« أي أمي العزيزة ! تعزى واصبرى فان الأحوال توجب علينا العزاء والصبر وسنضاعف نحن العناية بك والاعتراف بجميلك . فاذا وفقنا إلى تعويضك بعض الخسارة في الفقيد العزيز كنا سعداء الطالع . »

وكأنما ألهم نابليون بعلم ما هو مخبوء له في صفحة الغيب من العظمة . فكان إكبابه على الدرس والاطلاع إكباب من يعد نفسه لعطائم الأمور وكان له في العضلات جلد تتضام أمامه أعقد العقبات . حدث مرة أن أستاذ الرياضة عرض على فرقته مسألة حسابية في غاية التعقيد ليتبارى في حلها

التلاميذ فحجز نابليون نفسه من أجلها في غرفته نحو ثلاثة أيام وهو يقلب المسألة على وجوهها ويعمل فكرته فيها حتى اهتدى إلى حلها . وكل ما عرفه زملاءه بعد ذلك عن هذه المسألة أن نابليون « وفق إلى حلها » وما دروا أن هذا « التوفيق » لم يكن إلا ثمرة من ثمرات الجهد المتواصل وأن نابليون كان يمهر « توفيقاته » هذه بأغلى الأثمان من صحته ووقته . وأن الليل الهادى الساجى الذى ينامه الناس ملء جفونهم كان يقضيه هو فى التفكير والتدبير ليحصل على « توفيقه » من هذا النوع يصطبح بها الناس فيتهمونه « بحسن الطالع وسعادة الحظ » مع أنه ينكر على ذهنه تلك البداهة التى كان ينسبها الناس إليه ويردها الى كثرة التفكير والتقدير مقدما لكل ما قد يعترض طريقه من المشكلات . وقد كشف بنفسه هذا السر حين قال : « أنا دائماً الشغل كثير التفكير . فإذا رأى الناس أنى مستعد فى كل وقت لما تخلقه الظروف من عاجلات المسائل وعارضات المشا كل فذلك لأنى قبل أن أشرع فى أى عمل من الأعمال أكون قد فكرت فيه وتدبرته وتبينت ما قد ينشأ عنه فلا تحسبن أنه الذكاء يملئ على ما أقول وأفعل إذا حدث أمر لم يكن فى الحسبان . كلا . بل هو التفكير والتدبير أنى دائماً

الاشتغال . أشغل على المائدة وفي قاعة التمثيل وغيرها . وأفيق
في الليل لكي أعمل عملاً .
ومن مآثور كلماته أيضاً قوله :

« قد كنت أنفق ساعات لعبي في العمل . ولطالما قضيت
الليل أفكر فيما ألقى على من دروس النهار ذلك بأن
طبيعتي لم تكن تتحمل أن يكون غيري هو المبرز في فرقتي ،
وفي الحقيقة أن سر نجاح نابليون كان في تلك الطبيعة
التي يصفها صاحبها بأنها لم تكن تتحمل أن يكون غيره هو
المبرز في فرقته وهو تلميذ والتي يصفها التاريخ بأنها لم تكن
تتحمل أن يكون غيره هو المبرز في أوروبا وهو ملك !

ولقد كتب كثيرون عن نابليون فوصفوه بأنه جندي
فحسب . كلا بل انصافاً لهؤلاء المؤرخين نقول انهم وصفوه
بأنه جندي ماهر بل بارع - بل منقطع النظر ! ولكنهم في
كل ما ذهبوا اليه وفي كل ما نحسن الظن فيهم بأنهم قالوه أو
أرادوه نحسب أنهم لم ينصفوا هذا البطل الذي أودعت فيه
الطبيعة نفساً عبقرية كان لا بد لها من الظهور في أية صورة
أخرى لو أنها لم تظهر في تلك الصورة الحريسة التي طلعت
على العالم فيها واذن لرأينا نابليون أدياً كبيراً يكسف بروعة

مخلفاته كتب الأولين واذن لرأيناه فيلسوفاً خطيراً ينبى
برأسه الكبير لحل طلاسـم هذا العالم والغازه ويترك لمن بعده
أوفر ثروة خلفها العقل الانسانى للأجيال التى تليه !

واسـمـن نابليون خرج من مدرسة باريس سنة ١٧٨٥
وهو فى السادسة عشرة من عمره ضابطاً . فانتـبـع خطواته
العسكرية ولتنظر الى أين ينتهى بنا المسير !

الفصل الخامس

الثورة الفرنسية

في السنة التي تخرج فيها نابليون من المدرسة (سنة ١٧٨٥) كانت فرنسا على أبواب ثورتها الهائلة التي قلبت كافة النظم فيها رأساً على عقب . فقد كان أهلها ثلاث طبقات :

(١) طبقة الأشراف

(٢) وطبقة رجال الدين

(٣) وطبقة العامة

وكان على كاهل هذه الطبقة الأخيرة وحدها يقع عبء الضرائب . أما الأشراف ورجال الدين فعلى الرغم من أنهم يمتلكون أكثر من نصف الأرض فانهم كانوا معافين من دفع الضرائب . بل انهم كانوا يتمتعون بامتيازات تتيح لهم تسخير العامة في فلاحه أرضهم من غير مقابل — كلا بل كان لهم فوق كل ذلك حق آخر وهو حق جباية ضرائب لأنفسهم من هؤلاء الفلاحين الذين يسخرونها في زراعة

بساتينهم وحقولهم ؟ !

وكانت مناصب الحكومة وفقاً على هؤلاء الأشراف .
أما العامة فكانوا محرومين منها وكانوا مقيدون حتى في
صناعاتهم فكان الرجل منهم لا يملك تغيير مهنته إذا أراد
بل كان لا يملك أن يتزوج بالفتاة التي يختارها لنفسه من
غير أن يحصل على موافقة مولاه الشريف !

فتحت هذه العوامل المرهقة كانت تزرع طبقة العامة
وتتوارث هذه المظالم جيلاً عن جيل حتى طفق الكيل وتنبت
الأذهان لما هي فيه من التعاسة . وذلك بفضل ما انتشر في
البلاد من كتابات الأدباء والفلاسفة أمثال روسو ومنتسكيو
وفولتير الذين هاجموا تلك النظم العتيقة الفاسدة وحملوا
على أهلها حملات هادمة فجزوا العبيد على مواليتهم وأصبح
الفقير ينظر للغني في فرنسا شزراً ويتمثل في شخصه كل ما
اقترفه آباؤه وأجداده من المظالم والمساوىء فيصر على أسنانه
تشوفاً لذلك اليوم الذي يمكنه من الاشتباك مع غرمائه
المتكبرين ليسوى معهم حساباً .

وقد كان الكل يتوقعون قرب حلول ذلك اليوم حين
أفلست خزائن الحكومة وعجز رجالها المسئولون عن إدخال

أى إصلاح فى شئونها . فقد اقترح أحد الوزراء مرة أن يشترك الأشراف مع رجال الأمة فى دفع الضرائب فما كان من زعماء تلك الطبقة الطاغية إلا أن حملوا الملك على عزله فعزله . واقترح آخر أن يدعى مندبو الشعب للاشتراك مع الحكومة فى معالجة الأزمات التى كانت تهدد الجميع فكان جزاؤه العزل والنفى أيضاً . مع أن الأشراف لو كانوا قبلوا الاشتراك مع طبقة العامة فى أداء الضرائب لكان من المحتمل جداً تفادى الثورة التى وقعت بعد ذلك والتى كان الأشراف وامتيازاتهم وأموالهم فى مقدمة ضحاياها .

وكان ملك فرنسا فى ذلك الحين رجلاً طيب القلب حسن النية . وكان كذلك ضعيفاً ليناً متراحياً — شأن كثير ممن يتصفون بطيبة القلب وحسن النية — فظل يتراجع بين الأشراف والعامة أنا مع هؤلاء وأنا مع هؤلاء لا خبثاً ونفاقاً ولكن ذبذبة وتردداً فازدادت الأمور فساداً على يديه وكانت زوجته ماري اتوانيت مثال الخلاعة والاستهتار وكانت فى هذه الضائقة المالية التى يشكو ضغطها الجميع مثال الاسراف والسفاهة فكانت عنواناً سيئاً لميول السراى نحو الشعب . وألقت على البلاط بسلوكها الشائن ظلاً ثقيلاً من

الريب والشكوك .

وكان من حول الملك حاشية خبيثة رجعية دأبها أن تصد الملك عن كل إصلاح يعتزمه وتحول بدسائسها بينه وبين خدام الأمة المخلصين فأوهموه يوماً بأن الشعب ينوى مهاجمة الأسرة المالكة في قصرها ونجحوا بذلك في إثارة مخاوفه . واستصدار أمر منه بجمع الجيش على مقربة من باريس استعداداً للطوارئ . ولكن الباريسيين أولوا ذلك العمل أسوأ تأويل . وراجت بينهم اشاعة مؤداها أن الحكومة نصبت أيضاً مدافعها فوق أبراج سجن الباستيل لهدم المدينة على أهلها . فهاج الشعب لذلك واحتشدت جموعه أمام السجن في تجمهر خطير ثم ما لبثوا أن هاجموا حاميتيه . وفتحوا أبوابه عنوة . وقتلوا حراسه . وأخلوا سبيل نزلائه التعساء . وكان من أثر ذلك أن استولى الذعر على الملك وعاد يسترضي الشعب بكافة الوسائل . ولكن النصر الذي لاقاه الغوغاء في يوم الباستيل (١٤ يولية سنة ١٧٨٩) ملأهم اعتداداً بأنفسهم وصاروا من بعده يثورون لآتفه الأسباب . ويهاجمون كل من توهموا فيهم مناصرة الحكومة أو الوقوف في طريق مطالب الشعب .

وقام الناس في الأقاليم يحذون حذو أهل باريس فهاجموا قصور الأشراف ونهبوها ثم أحرقوها وقتلوا سكانها ومثلوا بهم تمثيلاً . وتمادى أهل باريس أنفسهم في طلباتهم فكلفوا الملك أن ينزل من ضاحية فرساي مقره ومقر أسلافه من الملوك ليقم بينهم في باريس . وذلك لكي يأمنوا دسائسه ودسائس من حوله ممن كانوا يعملون سراً على مقاومة الشعب بالقوة والانتقام منه لخروجه على طاعة الحكومة واستعماله القوة والعنف في الحصول على مطالبه .

ومن ذلك اليوم تجلت ارادة الشعب في تسيير شئون فرنسا . وكرهت الملكة ماري أتوانت أن تقيم على الرغم منها في شبه أسر وسط الغوغاء في باريس فاقترحت أن تهرب مع زوجها وولديها إلى النمسا عند أخيها الامبراطور ليوبولد حيث اجتمع الأشراف الذين هاجروا من فرنسا فراراً من الشعب الهائج . وكانت فكرتها في ذلك أن تستنصر بأخيها ايتعاون معها ومع زوجها على غزو فرنسا الثائرة ووقع الثورة فيها واعادة الميـاه إلى مجاريها الأولى . ولكن سوء حظ الأسرة المالكة قضى بانكشاف أمرها في الطريق فضبط الملك هو ومن معه وأعيدوا جميعاً وسط

استهزاء الشعب بهم واعتدائه عليهم .

وتقدم مندوبو الشعب بعد ذلك إلى الملك بنظام جديد لحكومة فرنسا أساسه أن الأمة مصدر السلطات . فلم ير الملك بداً من قبوله وأقسم يمين الولاء للدستور الجديد في سبتمبر سنة ١٧٩١ وانتقلت الحكومة بذلك رسمياً من يد أولئك الذين مارسوها أجيالاً طويلة إلى أيدي الشعب الغريرة فكان من الطبيعي أن يختل ميزان الأمور ويزداد اضطرابها في مستهل هذه التجربة الجديدة .

وأول ما شاهدت فرنسا من آثار حكومتها الشعبية أن رأت نفسها تدخل في حرب مع النمسا . أما سبب هذه الحرب فكان تخوف الفرنسيين من ليوبولد امبراطور النمسا وشقيق ماري أنتوانت الذي رحب بالمهاجرين من أشرف فرنسا والذي أعلن الفرنسيين بأن استقرار النظام في بلادهم أمر تقتضيه السياسة الدولية في أوروبا فدل بذلك على أنه يعترض طريق الثوار ويعمل على الحيلولة دون تحقيق آمالهم السياسية . فحملوا الملك على أن يعلن الحرب عليه فأعلنها في أبريل سنة ١٧٩٢ .

على أن الشعب لم يقنع من الملك بذلك . بل طلب إليه

أن يعلن أيضاً بأن جميع الذين هاجروا من فرنسا خائنين لبلادهم يحلل القانون تعقبهم والحكم عليهم بالاعدام . فتوقف الملك عن توقيع هذا القرار فكان ذلك سبباً في إرهابه بمظاهرة عنيفة هجم فيها نحو ثلاثين ألفاً من غوغاء باريس على قصر التويلرى فى (٢٠ يونية سنة ١٧٩٢) واعتدوا فيها على كرامته وتناولوا فيها على مقامه بشكل يشمئز له الذوق السليم إذ يروى أن أحد المتظاهرين أقبل عليه وهو فى حالة سكرين وقدم له كأساً من النبيذ ليشرب مخب المتظاهرين فتناول الملك القدر صاغراً ورفعته إلى شفثيه . كما يروى أن متظاهراً آخر بسط إليه قلنسوته الحمراء (وهى شعار الثورة) على سنان رمح فها كان منه إلا أن تناولها طائعاً ووضعها فوق رأسه (١).

وقد أعقبت هذه المظاهرة مظاهرة أخرى أعنف منها (فى ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢) وقد انتهت بفشل رجال الحرس الملكى عن آخرهم والقاء القبض على الأسرة المالكة وايداعها فى السجن .

(١) راجع تفصيل هذه المظاهرة وأمثالها فى كتاب (الثورة الفرنسية) للمؤلف

على أن شيئاً من ذلك لم يجد الفرنسيين نفعاً في حربهم مع النمسا فقد انهزموا لأول لقاء بجيوش أعدائهم . ولم يروا من علاج لهذه الهزيمة الا أن يعودوا إلى وسائل العنف ليرهبوا بها كل من حامت حول إخلاصه لنظامهم أدنى الشبهات حتى لا يجتمع عليهم خطر الفتنة الداخلية وخطر الغزو الخارجي . ووقعت في هذه الفترة مذابح فظيعة تعرف في التاريخ باسم (مذابح سبتمبر) لأنها وقعت في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٢ وقد قتل فيها خلق كثيرون ممن كانت تهمتهم أنهم يشايعون الملكية أو ينتمون الى أحد أفرادها .

على أن فريقاً من زعماء المتطرفين بالغ في تهوره . وقضى سوء الطالع أن يتبعه العامة في هذا التهور . وكانت أوروبا قد تحركت ملوكها لاغاثة زميلهم ملك فرنسا فاقترح هؤلاء المتطرفون أن يتخلصوا من الملك وحراسته حتى يتيسر لهم التفرغ لأعداء البلاد . وحوكم الملك بناء على هذا الاقتراح بتهمة الاتصال بالأعداء والعمل على نكاية الشعب وحكم عليه بالاعدام .

ومنذ وقع رأس لويس السادس عشر ملك فرنسا تحت حد المقصلة لم تعد هذه المقصلة تتهيب رأس غيره . فسيق

أليها أنصار الملك زرافات ولم يبق على ظهر فرنسا شخص واحد تحوم حول اتصاله بالأسره المالكه الشكوك .

وأعلنت الجمهورية في فرنسا وتولى الحكم فيها حزب اليعقوبيين وهم غلاة المتطرفين . وعلى رأسهم الزعماء الثلاثة الذين أطلق الشعب عليهم لفرط طغيانهم اسم " Les Trois Dieux " (الآلهة الثلاثة) وهم دانتون ومارا وروبسبير . ويعرف عهد حكم هؤلاء الزعماء « بعهد الأرهاب » وتقدر الروس التي قطعت في عهدهم في فترة تقرب من السنة بعشرات الألوف . وجلهم لا ذنب لهم أكثر من أنهم « موضع اشتباه الجمهورية » .

عند ذلك اشمازت النفوس من أعمال اليعقوبيين وبدأ الناس يتناجون بأن تلك الحال لا ترضى الشيطان نفسه . فانتقضت البلاد البعيدة عن باريس على الحكومة المركزية فيها وخرجت عن طاعتها .

وفي نفس الوقت تحالفت دول أوروبا على إعادة النظام في فرنسا ووضع حد لهذه الأهوال التي غرقت فيها . ولكن جماعة الأرهاب لم يزدادوا إلا قسوة وعتوا أمام هذه الاخطار التي باتت تهددهم في الداخل والخارج .

وعولت على الالتجاء للطرق الحاسمة الناجعة في تبديد هذه
الاشباح .

فأما في الداخل فأنها ألقت الرعب في قلب كل من تحدته
نفسه بالخروج عليها وذلك بالتكيل بأهل المدن التي خرجت
على الحكومة مثل أورليان ومارسيليا وليون وتولون . ولقد
بلغ من قسوتهم مع أهل هذه البلاد أنهم في ليون مثلاً رأوا
أن المقصلة لا تسعفهم في أزهاق الأرواح فكانوا يلقون
بالناس في نهر الرون أفواجا ليغرقوا فيه بالجملة « ولتسبح
الجثث إلى مدينة تولون وتنذر أهلها بما سيحل بهم من
العقاب » كما كان يقول ممثل الحكومة الذي تولى تأديب العصاة
من أهل تلك المدينة .

وأما في الخارج فقد جذبت الحكومة الأمة الفرنسية
بأسرها فلم تبق فيها يدلاً تعمل لتعزيز القوة التي تواجه
الاعداء .

وقد نجحت هذه الطريقة فعلاً كما نجحت أختها وتخلصت
فرنسا من الخطرين^(١) .

(١) اقرأ تفصيل هذه الحوادث كلها في كتاب (الدورة الفرنسية) المؤلف

الفصل السادس

بين فرنسا وكورسيكا

كان طبيعيا أن لا تقع كل هذه الحوادث في فرنسا ونابليون ضابط فيها دون أن يكون له دوره الذى يلبق بأمثاله أن يلعبوه .

ولقد ألحق بعد خروجه من مدرسة باريس بالفرقة المسماة لافير La Fère وكانت تعسكر في مدينة فالنس Valence . وأنعم عليه فيها برتبة ملازم ثان . وكان اذ ذاك في السادسة عشرة من عمره لا مال له ولا أصدقاء . ولم يكن يعرف أحدا من ذوى النفوذ يستعين به على الرقى في الجيش مات أبوه ومات انصار أبيه الذين كان يصح الاعتماد عليهم بعد فقدته . وضافت سبل العيش في وجه أمه واخوته . ولم يكن راتبه الأسبوعى يتجاوز خمسة وثمانين قرشا . فلو أنه رضى بهذه الحال وانتظر الفرغ في دوره الطبيعى لبقى ست سنوات قبل أن يرقى لرتبة ملازم أول وست سنوات أخرى قبل أن يصبح يوزباشا وإذا استمر الحال على هذا

المنوال فقد يحال على المعاش وهو بعد في مقتبل العمر .
وحيث لا يكفي مرتبه لسد رمقه ولكن هذا المستقبل المظلم
شدد من عزمه واستحث من همته . فأخذ يرقب الحوادث
بأقصى الاهتمام لينتفع من سوانح الفرص . وأكب في
الوقت نفسه على الدرس والمطالعة بحكم خلوه من المال
اللازم للتلهى والترويح عن النفس أو على الأصح بحكم
رغبته القوية في أن لا يضيع وقته الثمين في التلهى والترويح
عن النفس كما صرح بذلك في كلمته المشهورة .

« كنت أشعر دائماً أن الوقت من ذهب حتى في الأوقات
التي كنت فيها خلواً من العمل . »

ولقد انتشرت الكتابات الثورية في كل أنحاء فرنسا في
ذلك الوقت وكان نابليون يطلع على معظم ما كانت تنفثه
الأقلام الهدامة في تلك الأيام ولكن ميوله كانت لا تزال
مركزة في مثل « بلوتارك » وفي كتب التاريخ العام . وفي
قراءة مؤلفات الفلاسفة الحديثين أمثال روسو وفولتير .
ولقد خلفت هذه المطالعات في أسلوب نابليون الكتابي من
التشويق ما جعل لبياناته التي كان ينشرها على جنوده في
مستهل المعارك وعقب النصر تلك الروعة التي يحسده عليها

كثير من الادباء . أما تلك الكهرياء الكامنة في سطور هذه
البيانات فشيء آخر لم يكن مصدره روسو ولا كورنى
Cornielle ولا غيرها ولكن كان مصدره روحه الفوار
الذى كان يشع المعانى الحماسية كأنها ومضات الصاعقة
الجامئة فوق السحاب .

ولقد كان لمؤلفات هؤلاء الفلاسفة أثر آخر في نفس
نابليون فانه كتلميذ لفولتير مثلاً أصبح يحتقر الرهبان ولا
يؤمن بمذاهب الديانة المسيحية وكتلميذ لروسو أصبح يكره
الملوك ولكنه كان في الجملة غير ميال لدراسة الفلسفة في
ذاتها واجهاد مخه في معنوياتها فان الماديات هي التى كانت
تستهوى عقله وتملك حواسه فتلذه قراءة الوقائع والأرقام
ويستغرق اهتمامه أمثال « ما كيافيللى » « وموتسكيو »
ببحوثهما العملية المفيدة .

ولقد ظل نابليون زماناً يعيش بين الفرنسيين ولا يرى
فيهم إلا أنهم أعداؤه وغرماؤه الذين اغتصبوا بلاده
وحرموها استقلالها . وبقيت كل آماله تحوم حول مستقبل
كورسيكا حتى أنه هم بوضع تاريخ لها . بل إنه كتب بالفعل
فصلين من هذا التاريخ ثم حال بينه وبين إتمام عمله ما تفتح

أمامه بعد ذلك من ميادين العمل الواسع غير أن آراءه السياسية ما لبثت أن تطورت بعد أن قامت الثورة الفرنسية وألغت النظام الحكومي في فرنسا وكورسيكا وجعلت هذه الجزيرة (مديرية) من (مديريات) فرنسا بعد أن كانت مستعمرة من مستعمرات التاج فتغيرت نظرتة نحو فرنسا وزالت عداوته لها ولكن حينه إلى وطنه ما زال يملك قلبه وما زال هو يعلق على كورسيكا كل آماله في الحصول على مستقبل سعيد .

وكان القدر أبي أن يكون نابليون حاكم شعب من من رعاة الأغنام ورواد الدمن . فأعد له وراء حجب الغيب أرفع عرش عرفه تاريخ أوربا الحديث . ولكن كانت من دون هذا العرش أيام نكدة وليال سود كتب عليه مقاساة أهوالها أولاً .

زيارته الأولى لكورسيكا

وذلك أنه بعد أن أقام في فالانس زماناً تحركت بطاريته إلى ليون حيث كانت تخشى الحكومة حدوث اضطرابات فيها . وبعد أن قضى شهراً في تلك المدينة فكر في زيارة أهله

ووطنه بعد أن قضى في فرنسا أكثر من سبع سنوات دفعة واحدة . وكان قلبه ما يزال في قلق على أمه واخوته منذ نكبت الأسرة ب وفاة والده لعلمه بأنه كان عمادها الذى يتعقد حوله كل رجائها فطلب إذن الحكومة فى الحصول على أجازة فسمحت له بسنة (من سبتمبر سنة ١٧٨٦ — سبتمبر سنة ١٧٨٧)

وعاد نابليون الى أمه وتذاكر أفراد الأسرة تلك السعادة التى كانوا يرفلون فى حللها قبل سفر نابليون الى فرنسا وقبل وفاة عميدهم . وأحس نابليون بأن الأناظر تتجه إليه فى حمل مسئوليات أسرته والحلول فيها محل والده كما أحس بعجزه عن تحسين حال نفسه فضلا عن حال أمه واخوته فانقبض صدره تحت تأثير هذا الضيق وعاد الى فرنسا فى نهاية أجازته وقلبه ينفطر حزناً من حرج هذا الموقف .

وعند عودته كانت فرقته فى مدينة Auxonne فوافاهها اليها وهناك أخذ نفسه بأقصى أسباب الاقتصاد لعله يستطيع أن يعين أسرته بشيء من مرتبه . فلم يطق جسمه الضعيف تلك الشدة التى أخذه بها وأصيب بفقر الدم وتهدمت بنيته حتى خشى عليه طبيب البطارية أن يموت وإليك بعض ما

ورد في كتاب بعث به الى والدته في تلك الايام :
« ليس لي منزع الا العمل . فانا لا أرتدى ثيابي الا مرة في
كل ثمانية أيام ولا أنام منذ مرضت الا قليلا . أذهب الى
مخدعي في العاشرة من الليل وأفيق في الرابعة من الصباح .
أما طعامي فأتناوله مرة في اليوم وذلك في الساعة الثالثة مساء
— وقد وجدت ذلك مفيداً لصحتي »

فيارحة لهذا الغريب المسكين الذي تخونه خواطره
فيفضي الى أمه بأنه يأكل مرة واحدة في اليوم ثم يعود
فينخشي عليها الهم والغم فيردف قوله بأنه يجد ذلك مفيداً لصحته

الزيارة الثانية .

على أن نابليون برح به الضعف فلم يعد يحتمله في غربته
واشتد حنينه الى أهله تحت تأثير المرض فعاد الى طلب أجازة
أخرى وسافر الى كورسيكا (سبتمبر سنة ١٧٨٩) حيث
أقام الى أن تحسنت صحته . ثم عاد الى فرنسا مستصحباً في
هذه المرة أخاه لويس ليخفف الحمل ولو قليلا عن والدته .
وكانت فرقته ما تزال في Auxonne فلحق بها هناك
وقضى بها أياما من أتعس ما روى تاريخ البؤس والشقاء .

فكان يقضى بعض أوقات فراغه في تعليم أخيه ويصرف ما بقي منها في كتابة الموضوعات الأدبية سعيا وراء الحصول على أجر يتقاضاه عنها من الناشرين . ولقد كابد نابليون تلك الحال بصبره وحزمه المعهودين وأبى تعففه عليه إلا أن يبدو للناس طلق المحيا حتى لا يرتاب أحد فيما كان يمزق قلبه من شدائد الخصاصة والعسر .

وأخيرا في شهر مايو سنة ١٧٩١ رقى نابليون الى رتبة ملازم أول وألحق بالبطارية الرابعة المرابطة في فالانس فعاد الى هذه المدينة ومعه في هذه المرة أخوه لويس وقد ارتفع مرتبه قليلا . ولكنه لم يكن يسمح له بعد بتذوق لذائد الحياة . فكان يقيم هو وأخوه في نفس الغرفة التي كان يقيم فيها عند أول تعيينه في فالانس . وكان يدفع ما يتبقى له بعد النفقة الضرورية إلى إحدى المكاتب أجرا يخوله حق المطالعة فيها .

الزيارة الثالثة :

وفي سبتمبر سنة ١٧٩١ أفلح نابليون في الحصول على اجازة أخرى لمدة ثلاثة شهور فسافر هو وأخوه إلى

كورسيكا وكان يقضى أوقاته كعادته بين كتبه وخراائطه وحساباته حتى لكأنه كان يعد نفسه لمئات المعارك التي كتب له النصر فيها في مستقبل أيامه على مختلف شعوب أوروبا .

وحدث في هذه المرة أن تجاوز نابليون مدة الإجازة التي كان مرخصا له بها لأنه التحق بخدمة الجيش الكورسيكي وعين قائدا لأحدى فرق المتطوعين الوطنيين رسميا فأصبح بذلك عرضة للعقوبات الصارمة التي يفرضها القانون العسكري لمثل هذه المناسبات . ولكنه ما لبث أن جاءته الأنباء من فرنسا بأن حكومة الشعب التي كانت قائمة في ذلك العهد اتهمت الملك لويس السادس عشر بأنه كان على اتصال سرى مع امبراطور النمسا وأن أشرف فرنسا الذين هاجروا منها فرارا من غضب الشعب قد التفوا حول هذا الامبراطور يستنجدون به على رجال الثورة . فأرغم لويس السادس عشر تحت ضغط الحكومة على ان يعلن الحرب على النمسا فاتهز نابليون هذه الفرصة وبادر بالعودة لعله بأن الحكومة في هذا الظرف الدقيق سوف تكور في حاجة الى كل ضباطها وتحت هذا التأثير قد تنغاضى عن غيابه . ولقد صح ظنه وصدقت فراسته فأنه ما كاد يصل الى باريس (مايو سنة

١٧٩٢) حتى رفع التماسا يطلب فيه إعادته إلى الجيش وفي ٣٠ أغسطس أصدر وزير الحرية أمره بإعادته الى بطاريته مع منحه رتبة يوزباشى .

ولقد قاسى نابليون أثناء اقامته بباريس قويل صدور هذا الأمر ضيقا شديدا حتى لقد اضطر الى رهن ساعته وكان من جملة ما خطر بباله للحصول على المال أن يستأجر عدة بيوت خالية ثم يتولى هو تأجيرها بسعر أعلى ليربح الفرق بين السعرين . ولكن أصحاب الملك كانوا يترددون فى معاملة سمسار خطر مثل هذا الضابط المفلس .



وبينما كان هو يكافح هذا الضيق بين فالانس وباريس وأمه تكابد ما تكابد فى سبيل الحصول على قوت أبنائها كانت الثورة فى فرنسا قد نظورت ودخلت فى أدوارها الجدية تحت تأثير الهزائم التى لقيتها جيوشها فى حربها مع النمسا وشهد نابليون فى باريس مظاهرة ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٢ التى هاجم الثوار فيها سراى التويلرى واقتحموا على الملك غرفته وألبسوه قلنسوة الثورة الحمراء . ولا تسلم عن اشمئزاه عند رؤية هذا المنظر الهمجى فانه لم يتمالك أن صاح : « ياللجن

كيف سمح أولئك الحراس لهؤلاء الرعاع بالدخول ؟ ألم يكن في مقدورهم أن يكتسحوا بمدافعهم اربعمائة منهم أو خمسمائة ليروا كيف يلوذ الباقون بالفرار ؟ »

وشهد كذلك حوادث ١٠ اغسطس التى تحركت فيها باريس كلها الى سراى التويلرى بقصد حمل الملك على النزول عن العرش وحضر التصادم الذى وقع فيها بين الشعب وبين الحرس السويسرى المكلف بالدفاع عن السراى . ورأى بعينه تلك القوة النظامية تفنى عن آخرها تحت اسنة الشعب الهاائج ونيرانه . ولقد خلفت هذه الحوادث وامثالها فى نفس نابليون تقززا من اليقويين وتصرفاتهم جعله لا يتحدث عنهم بعد ذلك الا باسم (السفلة) أو (الرعاع) ودفعه الى ان يقبل وهو مرتاح الضمير مهمة الوقوف الى جانب الحكومة دائما كلما حاول الشعب المسلح املاء ارادته عليها كعادته وارغامها بقوة السلاح على التسليم بمطالبه غير المشروعة .

الزيارة الرابعة وهجرة الاسرة كلها الى فرنسا :

وكان من بين أعمال اليعاقبة في تلك الأيام أنهم في أثناء مطاردتهم لرجال الدين أغلقوا الأديرة وفضوا مدارسها فتشتت تلميذاتها وكانت اليزا Eliza أخت نابليون بدير سان سير St. Cyr فأسرع إليها وصحبها بنفسه إلى كورسيكا وكان ذلك عقب مذبحه باريس (سبتمبر سنة ١٧٩٢) وما تلاها من المذابح الأخرى في فرساي وريمس وليون وأورليان وهي المذابح المشهورة في تاريخ الثورة باسم (مذابح سبتمبر) حيث « قتل كل من كانت تحوم الشكوك حول مشايعته للملكية في فرنسا » .

على أن نابليون لم يكد يصل الى كورسيكا حتى وقع نزاع بينه وبين « پاؤولى » أخرج مركز الأسرة كلها وحملها على الهجرة التماسا للخلاص من انتقام خصومها الأقوياء .

الفصل السابع

پاؤولی

قد نالت كورسيكا من عطف الدول الأوروبية في صراعها المشرف ضد جنوا ثم في دفاعها عن استقلالها ضد فرنسا مثل ما نالت بلاد اليونان حين هبت في وجه تركيا تدافع عن حريتها وتطالب باستقلالها . أما إنجلترا فأن ميولها تجاوزت حدود هذا العطف الأدبي إلى تقديم المساعدة المادية فأمدت أهل الجزيرة بالمال والرجال ليتحرروا من خصومهم . والله أعلم بعد ذلك إن كانت تستخلص الطائر من يد صياده لتطلقه وتعيده إلى الجو الحر الفسيح . أم لتدخله بقفصه في دوائرها المرنة التي أخذت على عاتقها — بطريق التطوع والاختيار — مسئولية ادخال الناس فيها . ؟

وكان پاسكال پاؤولی زعيم كورسيكا وملكها غير المتوج يعترف بفضل إنجلترا عليه في نضاله ضد خصومه حتى انه لما خرج أمر الجزيرة من يده واستقر سلطان فرنسا عليها لم يجد أمامه غير إنجلترا مفزعا يلجأ اليه فلبث فيها سنين عددا

ثم قامت الثورة الفرنسية تهاجم الحكومة (التي اشترت كورسيكا من جنوا) وتبشر بمبادئ الحرية والأخاء والمساواة للجميع وتعلن أن قواها وقف على نصرة كل مظلوم فاتصل پاؤولى برؤسائها واستدعى إلى باريس فجاءها وقوبل فيها بالحماسة والاهتاف . واطلق عليه الشعب هناك لقب « بطل الحرية وشهيدها » ثم سمح له بالعودة إلى كورسيكا فعاد إليها ومنحه مواطنوه لقب « أبو الأمة » ثم عينته الحكومة الفرنسية بعد سقوط الملكية فيها (سنة ١٧٩٢) قائداً لقوات الجزيرة وحاكماً عاماً عليها

وكان نابليون منذ نشأته يرى من پاؤولى ويسمع عنه ما جعله يتخذ شخصيته القديرة قدوة يحتذى مثالا ويقيس على عظمتها جهوده وآماله لعله يصيب في آخر أمره ما اصاب صاحبها من الشهرة الواسعة والمجد العظيم !

غير ان الحوادث التي وقعت في فرنسا إبان الثورة باعدت ما بين الأستاذ وتلميذه . فقد اتسع نفوذ اليقويين في فرنسا وتناولت ايديهم الى رأس الملك لويس السادس عشر نفسه وقطعوه وأمعنوا في وحشيتهم ورأى پاؤولى أن فرنسا كما كانت محكومة في ذلك الوقت جديرة حقيقة بسخط العالم

المتمدن فأعلن اشمئزاه منها وخروجه عليها ودعا الناس جهرة إلى طلب الانضمام إلى إنجلترا. فأصدر المؤتمر الوطني بدوره قراره بأن باؤولى وأعوانه خارجون عن القانون (٢٦ يونية سنة ١٧٩٣).
أما نابليون فقد نظر للأمر من ناحية أخرى بصفته ضابطاً نظامياً في قوة دفاع الحكومة الفرنسية فانه بينما كان يشارك باؤولى في سخطه على اليعقوبين كان يرى ان الواجب يحتم عليه الوقوف الى جانب حكومته . وكان يرى من ناحية أخرى ان كورسيكا أضعف من ان تستطيع الاحتفاظ باستقلالها وسط دول أوروبا القوية وانها أقرب الى فرنسا في لغتها وعاداتها ودينها منها الى إنجلترا

فلما جمع باؤولى رجاله من جديد واخذ يعد عدته لخلع سلطان فرنسا عن الجزيرة رفضت اسرة بونايرت ان تشترك في اى عمل من شأنه مناوأة حكومة فرنسا فانسلخت بذلك نهائياً عن لواء باؤولى واصبحت موضع سخط انصاره واعوانه .
وبلغ من غضب باؤولى على أسرة زميله القديم « كارلو » أن أهدر دم أفرادها وطلبهم من رجاله أحياء أو ميتين
فأما نابليون فقد باغته أنصار باؤولى في الطريق وأحاطوا به وأسروه ولكنه خادعهم ولاذ بالفرار .

وأما ليتيشيا وأبناؤها فقد استيقظوا في صبيحة ذات يوم بعد ذلك على صوت نذير يبلغهم أن ألؤفا من الفلاحين أنصار ياؤولى الحانقين على أسرهم جادون فى طريقهم لمهاجمة المنزل ومن فيه فلم تكن إلا دقائق معدودة حتى جمعت ليتيشيا أبناءها وحملت معها ما استطاعت حمله من متاعها ومالها وخلقت الدار للمهاجرين يكسرون حذتهم على جدرانها .

وبقيت الأسرة مشردة بين مخايء الساحل اياماً بغير مورد ولا مأوى حتى تيسر لنابليون ان يعد لها العدة لركوب البحر . وفى منتصف ليلة مظلمة كانت أم نابليون واخوته يسرون نحو الشاطئ على ضوء مصباح ضئيل . وهناك استقلوا زورقا مكشوفاً كان فى انتظارهم فما كادوا يستقرون على ظهره حتى انطلق بهم فى ليل كموج البحر تحيط بهم الظلمات من فوقهم ومن تحتهم وليس أمامهم من هذه الدنيا الفسيحة إلا ما ينتظر امثالهم من صنوف العذاب والتشريد . فهل كان أوسع الناس خيالا يستطيع ان ينظر الى هذه الطرائد التى أخرجت من ديارها وهى لا تملك قوت يومها فىرى فيها بعثه من الملوك خرجت لتولى حكم اوروبا ولتقتسم بينها أرفع عروشها وألمع تيجانها ؟

الباب الثاني

بين الحظ والمواهب

- الفصل الأول : اسرة بونابرت في فرنسا
 - » الثاني : المعركة الأولى [حصار تولون]
 - » الثالث : التحالف الدولي الأول
 - » الرابع : نابليون والتحالف الأول
 - » الخامس : كوكب النحاس
 - » السادس : الحكومة في خطر
 - » السابع : طالع السعد
-

الفصل الأول

أسرة بونايرت في فرنسا

سارت السفينة بأهلها حتى رست في ثغر مرسيليا وهناك . نزلت اسرة بونايرت وهي لا تملك لنفسها طعاما ولا مأوى . وسارت ليتيشيا بأبنائها الى سراى البلدية لعرض حالها ملتمة أن تجرى عليها الحكومة جناية من الخبز لتعيش هي واولادها . فرق لها أهل البلدية وأجابوا طلبها .

وكان من جملة الذين ساعدوا ارملة بونايرت واولادها في مرسيليا المسيو كلارى من كبار تجار الصابون في ذلك الثغر فانه عطف على تللم السيدة وأبنائها وسرعان ماتوثقت عرى الالفة بين الأسرتين حتى أنه لم تمض سنتان على إقامة آل بونايرت في مرسيليا إلا وقد اقترن يوسف بابنة ذلك التاجر بينما كان نابليون يرسم خطته للحصول على يد ابنته الأخرى مدموازيل دزيريه ولولا ان هذه الأنسة لم تشعر بأية عاطفة نحو هذا الضابط الصغير بنفسه الحزينة وجسمه

الضعيف وقبعته الواسعة التي كانت تغرق فيها أذناه لرأيناها
بدل جوزفين تتربع على عرش فرنسا الامبراطورى يوما
من الايام .

أما لوسيان الصغير فكان قتي ثائراً حار الرأس مفتتنا
بأعمال اليعاقبة حتى أنه لم يكن يدع محالا يتيسر فيه القاء
خطبة إلا وقام فى الناس خطيباً متدفقاً يتغنى بأعمال اليعقوبيين
وحكمة تصرفاتهم . ولقد كان من وراء هذه الحماسة أن
أدخله اليعاقبة فى زمريهم وأسندوا اليه مركزاً إدارياً فى بلدة
صغيرة قرب مرسيليا وهكذا استطاع هذا الشاب بفضل
هوسه أن يخدم أسرته فى الوقت الذى كان لا يزال نابليون
فيه نكرة بين ضباط الجيش لا يعرفه أحد بينما كان يوسف
بوداعته وهدوته أخمل من أن يحس به أفراد الأسرة أنفسهم !

الفصل الثاني

المعركة الاولى « حصار تولون »

لما قام الشعب الفرنسى بثورته يطارد الاشراف ورجال الدين لم ير هؤلاء أمامهم إلا الفرار من فرنسا فهاجروا — وكانت هجرة أكثرهم الى النمسا حيث الامبراطور ليوبولد ابن أخى مارى أنتوانت . وهناك أخذوا ينشرون الدعوة ضد الثورة ورجالها فكان عملهم هذا سبباً فى اعلان الحكومة الفرنسية الحرب على النمسا . ولقد هزمت جيوش الثورة فى بدء هذه الحرب وأوشك الأعداء أن يصلوا الى باريس وهناك تارت كل حمية الفرنسيين فاستماتوا فى الدفاع حتى يئست منهم النمسا وآثرت الانسحاب .

ولكن جيوش الثورة أطمعها هذا الانسحاب فأوغلت وراء أعدائها فى قلب أوروبا تطاردهم فى المانيا . وفى بلجيكا وبلغت الجرأة بحكومة فرنسا أنها أخذت تعلن باسم الأمة الفرنسية استعدادها لمعاونة كل شعب يحاهد فى سبيل حريته

وتكلف قوادها بأن يمدوا يد المساعدة لكل أمة تضطهد بسبب هذا الجهاد .

وتلبية لهذا النداء الكريم طلبت بلجيكا أن تنضم الى الجمهورية الفرنسية . وكذلك طلبت سافوا . وعند ذلك تملك الذعر قلب انجلترا خشبة أن يتسع نفوذ فرنسا وتكون لها السيطرة في اوربا فنشط وزيرها (وليم بت William Pitt) لجمع الدول الأوروبية وتكوين حلف منها لحصر الثورة داخل الحدود الفرنسية ومقاومة رجالها وكانت اسبانيا اول من لبى هذه الدعوة

ولكن في نفس هذا الوقت كانت مدائن فرنسا البعيدة عن باريس قد شقت عصا الطاعة على الحكومة المركزية هناك نظراً لما اتسمت به كافة تصرفات اليقاقة من التطرف والوحشية لا سيما بعد اعدام الملك لويس السادس عشر . وفردعاة الملكية من جميع أنحاء فرنسا الى مدينة تولون في أقصى الجنوب حيث اتخذوها مقراً لهم وقاعدة لأعمالهم وأنشأوا فيها حكومة محلية وأعلنوا ابن لويس السادس عشر باسم « لويس السابع عشر » ملكاً عليهم .

ورأى وليم بت William Pitt بثاقب بصره ان هؤلاء

الملكيين يصلحون لأن يكونوا نواة تجتمع حولهم كل العناصر المعادية للثورة إذا هو قام بتشجيعهم ومؤازرتهم حتى اذا قويت كلمتهم اكتملت حكومتهم حكومة فرنسا الشمالية التي كانت تخشاها إنجلترا . فطرب لهذه التقديرات ولم يتردد لحظة في تنفيذ خطته وتم الاتفاق بينه وبين حليفته اسبانيا على الاشتراك مع هؤلاء العصاة في مقاومة الحكم اليقوي . ودخلت جيوشهما فعلا ثغر تولون في أغسطس سنة ١٧٩٣ وتولت أساطيلهما تموين المدينة واهلها بالميرة والذخيرة وابتعثت بذلك آمال إنجلترا في القضاء على الثورة وخيل اليها ان حكم اليعاقبة قد آذنت شمسه بالافول .

وهناك تعلق مستقبل الجمهورية الفرنسية في الميزان . فلو ان كفة الحلفاء رجحت على كفتها لعادت الى فرنسا حكومة رجعية في ظل ملك من سلالة آل بربون ولاسدل الستار على كل ما قام به الشعب الفرنسي في السنوات الأربع الماضية . ولذهب جهاده السابق في سبيل الحرية صرخة في واد ولعادت الرجعية مرة أخرى تستغل جمهور الأمة لصالح بضعة افراد من الاشراف

ولكن الاقدار كانت اسخى على القضية الفرنسية من

إرادة وليم بت فهيأت لها من أنقذها في ذلك الموقف العصيب وأزاح عن صدرها هذا الكابوس الذي كان خليقاً أن يخذل أنفاسها ! .

وكانت جيوش الحكومة اليعقوبية تحاصر تولون منذ زمان على غير جدوى وذلك بسبب اتصال الحلفاء بها من ناحية البحر فاهم فضلاً عن التحصن في أهم قلاعها كانوا يمدونها بكل ما تحتاج إليه من طعام وذخيرة حتى لا تشعر بضغط الحصار واستمر الحال على ذلك طويلاً حتى كاد اليأس يتسرب إلى قلب الجمهورية ولكن حدث في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٣ أن صدرت الأوامر لنابليون بالسفر إلى Nice لينضم إلى الفرقة المرابطة هناك وكان حتماً عليه أن يمر في طريقه بمدينة Touloun . وتصادف أن قائد المدفعية التي كانت تتولى حصار المدينة أصيب بجرح بليغ منعه من الإشراف على أعمال الحصار . فاستؤقف نابليون ووكل إليه أن يتولى قيادة المدفعية ريثما يشفى ذلك القائد . فأقبل على المدافع يعاين مواقعها ويتبين مدى رمايتها فإذا هي مصوبة على المدينة نفسها وإذا هي لا تلقى بقنابلها إلى أبعد من نصف المسافة المقدرة لها فبدأ عمله بضبطها وتسخير نارها على القلاع

المشرقة على مينا تولون حتى إذا ما دانت له تلك القلاع واستولى عليها أمكنه أن يصب من أبراجها مدافعه على سفن العدو في الميناء فيلجئه إلى التخلي عن المدينة وتضطر المدينة بدورها إلى أن تفتح له أبوابها .

ولم تكن انجلترا قد غفلت عن أمر تلك القلاع وأهميتها في الدفاع عن المدينة ولذلك فإنها ما فتئت منذ دخلت تولون تقوى خطوط الدفاع حولها حتى أصبح من المتعذر على أية قوة عادية أن تفكر في الاستيلاء عليها .

وعرف نابليون من جانبه فداحة العمل الذي أخذه على عاتقه ولكن عزمته التي كانت لا تزيد الصعاب إلا صلابه وعزيمة وثباتاً رحبت بتلك المهمة الخطيرة وفتحت لها نفسه المتعطشة للعمل .

وكان الانجليز يعتصمون بقلعة في الجهة الغربية من المدينة بالغوا في تحصينها لعلمهم بأن سقوطها يستتبع سقوط تولون . فجمع لهم نابليون نحو مائتي مدفع . وصوبها جميعها نحو هذه القلعة التي أطلق عليها الانجليز اسم « جبل طارق الجديدة » وبلغ من جرأة نابليون أنه كان يشتغل باقامة بعض هذه المدافع على مرأى من خصومه وعلى مرمى السهم من

استحکاماتهم حتى لقد قتل تحته أكثر من حصان واحد وهو يجرى متنعلا بين رجاله ههنا وههنا . ولكنه لم يكن يلبث إلا ريثما يأتيه جواد آخر ليركبه ويستمر في جهاده . بل إن مجازفته في الاقتراب من حمى الخصم بلغت إلى حد أن اشتبك به أحد الجنود الانجليز وطعنه في ساقه اليسرى طعنة نجلاء هددتها زمانا بوجوب بترها . ولم تشأ انجلترا أن تتهاون مع نابليون وهو يستعد لكفاحها فأمرت رجاله وابلا من قذائفها ونشطت مدفعتها في إطلاق النار على جنوده نشاطاً أوقع الرعب في قلوبهم حتى ولى بعضهم مدبراً وهو يعتقد أن لا حرج عليه في ذلك إذ لا قبل لزبانية جهنم نفسها بمقاومة مثل هذه النار . ولحمهم نابليون وخشى أن تسرى العدوى إلى بقية جنوده ففشل ريحه فأسرع إلى مدفع قريب كانت قد عطلته قنابل الانجليز وتسلق ما سورته ووقف على رأسها صائحا .

« Eh bien quoi ! nos artilleurs ont peur ! »

« ما شاء الله ! هل دب الخوف إلى رجال مدفعتنا ؟ »

فما لبث أن عاد الجنود إلى أماكنهم وقد رجعت اليهم

حينهم . وعند ذلك قال نابليون .

« Je savais bien que je commandais à des Français »

« لقد كنت واثقاً من أنى أقود جماعة من أبناء فرنسا ! »
ولم يشأ بفطنته أن يتكرر ذلك الحادث فلجأ إلى وسيلة
من وسائله الناجعة لتوريط الفرقة وسد طريق الفرار عليها
مرة أخرى فقال .

« على بكاتب أملى عليه أمراً ! » .

فتقدم إليه من بين الصفوف جندى بسيط فقال له اكتب :
« تطلق على هذه البطارية منذ هذه اللحظة اسم بطارية
الشجعان ! » .

فتناول الجندى رقعة وما كاد يتم عليها كلمته الأخيرة حتى
انفجرت على بعد مترين منهما قبلة ذرت التراب عليهما وعلى
رقعتهما فما كان من ذلك الجندى إلا أن قال باسم .

« الحمد لله ! لقد كفتنا هذه القبلة مؤنة حمل التراب
بأيدينا لتجفيف ما كتبناه ! » .

فوقع هذا القول من نفس نابليون موقع الاستحسان .
ولم ينس أن يرفع صاحبه من الصفوف إلى مراتب الضباط
ليكون في شجاعته وتقدمه مثالا لغيره ممن تطمح نفسه إلى
الرقى والظهور — أما هذا الجندى فكان اسمه جونو Junot

وبقى مقرباً من نابليون إلى آخر أيامه وظل يتدرج في سلم الرقي حتى حصل على لقب دوق دابران *Duc d'Abriantes* وما كاد يطمئن نابليون إلى قوة خطوطه التي أقامها حتى شرع يصب القذائف منها صباشاً على روس خصومه في « جبل طارق الجديد ». وأخذ يستعدى رجال مدفعيته عليهم بكل ما أوتي من وسائل التحريض معرضاً بشخصه لكل المخاطر التي قد يتعرض لها أى جندى من جنوده وهو لا يبالى بما يستهدف له من الخطر . ولقد حدث يوماً أن سقط بجواره أحد رجال مدفعيته وفي يده المشعل الذي يوقد به مدفعه فما كاد يراه نابليون حتى وثب إلى حيث رقدت جثته وتناول بيده ذلك المشعل الدامى وأوقد به بارود المدفع عدة مرات .

وأخيراً حلت ساعة الهجوم الفاصل الذي أراد به نابليون أن يقضى على الحامية الإنجليزية القضاء الأخير . فأعطيت إشارة الهجوم في منتصف ليلة ١٧ ديسمبر سنة ١٧٩٣ وسط ريح صرصر عاتية وسيل غزير دافق وبروق وورعود وصواعق ولم تمض ساعات قلائل حتى كان نابليون قد أطلق من مدافعه ثمانية آلاف قنبلة على « جبل طارق الجديد » حتى تركه كومة

واحدة من الانقراض ولكن الانجليز ظلوا كلها تعطل منهم مدفع أقاموا غيره . ودامت المعركة على أعنف ما يكون بين الفريقين ساعات طويلة . وكان الفرنسيون يتقدمون في وسط الظلام المخيم وبين القصف والهزيم حتى يصلوا إلى فوهات مدافع الانجليز والنار تصدهم حصداً وكلما قنيت صفوفهم بدلهم نابليون بصفوف غيرها حتى اكتظت الخنادق بحش القتلى والجرحى وأخيراً ذابت قوة الانجليز تحت هجمات نابليون الحارة . وهدأت نيران القلعة قليلاً فانقض عليها الفرنسيون دفعة واحدة ووقفوا فوق أطلالها يخمدون ما لا يزال يتردد تحت أنقاضها من أنفاس خافتة وفي دقائق معدودة كانت الحامية الانجليزية قد ملئت آخر أذيالها وهي تحتجب وراء أستار الفناء .

وعند ذلك نظر نابليون إلى الجنرال « ديجوميه » Dugommier قائد القوة المرابطة حول تولون قائلاً : « اذهب إلى فراشك ياسيدى ونم فقد استولينا على تولون ! » ويقول « سكوت — Scott ، أحد كبار كتاب الانجليز في وصف تلك المعركة : لقد كان في وسط تلك الليلة المليئة بالآهوال وفي وسط ماسطع في ظلامها من نيران وما أريق

فيها من دموع ودماء أن ظهر نجم نابليون فوق الأفق .
على أن استيلاء الفرنسيين على « جبل طارق الجديد »
لم يكن آخر فصول تلك المأساة الفاجعة . فان القذائف
ماقتت تنال على مباني المدينة وطرقاتها المزدهمة بالمستغيثين
والفارين حتى لاحت شمس الصباح وتحت أشعتها الباردة
الضئيلة تكشفت ظلمات الليل عن أبشع ما رأت عين
الانسان : برك من الدم تغطي وجه الأرض في كل مكان
وأجساد متناثرة بعضها هامد وبعضها يجود بالنفس الأخير .
ولكنها كلها قد مثلت بها المدافع أشنع تمثيل . وكانت نيران
القنابل لا تصيب مكاناً في المدينة إلا التهمت حطامه التهاماً .

على أن نابليون بعد أن استولى على « جبل طارق » لم
يسمح لنفسه باضاعة لحظة واحدة في تحصيل شيء من الراحة
لنفسه أو الاستمتاع بثمرة من ثمرات انتصاره بل شرع في
نصب مدافعه على متون الحصن المتهدم وصوبها نحو البوارج
الانجليزية الراسية في الميناء تنفيذاً لخطة المرسومة من قبل .
فما رأى اللورد هاو « Howe » أميرال الأسطول الانجليزي
علم الثورة يرفرف فوق ذلك الحصن حتى أيقن بأن المدينة
وقعت غنيمة في يد نابليون . وأعطى الإشارة لبوارجه بالانسحاب

ونشر أمير البحر قلوعه بالفعل عملاً بالنصيحة الذهبية
« انج سعد فقد هلك سعيد » .

أما أهل المدينة فانهم ما كادوا يشعرون بحركة الأسطول
الانجليزى حتى هروا نحو الشاطئ من كل فج فى حالة هلع
شديد يلتمسون ركوب البحر فراراً من نابليون وجنوده
الهائجين . ولم تستطع مراكب الحلفاء أن تحمل أكثر من
٢٠٠٠ من أهل المدينة . أما باقى سكانها فقد تركتهم تحت
رحمة رجال الثورة الذين اندفعوا من أبواب المدينة كالذئاب
الكاسرة يطاردون فرائسهم وهى تجرى أمامهم فوق الاشلاء
المبعثرة فى حالة ذهول وجنون .

ولقد حاول ديجوميه كما حاول نابليون أن يكبح جماح
جنوده الثائرين ولكن جريمة تولون فى إيواء أعداء الثورة
ورفع أعلامهم على قلاعها كانت جريمة تصم آذان اليقويين
عن أى نداء اللهم إلا ما كان متمشياً مع صوت ضمائرهم فى
وجوب أخذ الثأر من أعداء الوطن الخونة المتمردين !

وبلغ من إعجاب ديجوميه بنابليون وبلاائه الحسن الذى
أبلاه حول تولون أنه بعد سقوط المدينة تأبطه معه إلى
مارسيليا وهناك رآه بعض أصحابه فقال عليه مازحاً يقول :

« من هذا الضوييط ؟ وأين وقعت يدك عليه ؟ » .
فما كان من ديجوميه إلا أن أجاب : .
هذا الضابط اسمه نابليون بونابرت ! وقد وقعت يدي
عليه في حصار تولون التي يرجع الفضل الأكبر في إسقاطها
إليه ولسوف ترى يوماً من الأيام أن هذا (الضوييط)
أكبر من أي رجل فينا ! » .

الفصل الثالث

التحالف الدولي الاول

أشرنا في الفصل السابق إلى الجهود التي قام بها ولیم بت وزیر انجلترا في سبيل جمع الدول الأوروبية على فرنسا لحصر النورة فيها والقضاء عليها داخل حدودها . قبل أن يستفحل أمرها وتنتشر عدواها فيما جاورها من البلدان .

وكان طبعياً أن يكون ملك اسبانيا أول من يلبي هذه الدعوة لمتاخمته لميدان الثورة .

كما كان طبعياً أن تدخل هولندة في هذا الحلف بعد أن رأت فرنسا تستولى على بلجيكا .

أما النمسا وبروسيا فدفعهما إلى الانخراط في سلك هذا التحالف ما كان لا يزال عالقاً بأيدي القوم من دم ماری انتوانت ملكة فرنسا وعمة امبراطور النمسا . وما كان بينهما وبين فرنسا من ثارات الحرب التي أعلنها ملك فرنسا لويس السادس عشر قبل محاكمته وإعدامه . وهكذا أطبقت جيوش الحلفاء على فرنسا من الشمال ومن الشرق ومن الجنوب !

ولم يكن بد تحت هذا الضغط من أن تتراجع جيوش الثورة التي كانت قد أوغلت في قلب أوروبا . وكان من بين القواد الفرنسيين المنهزمين رجل اسمه ديموريه «Dumouriez» ينتمى الى حزب الجيرنديين الذي كان يحكم فرنسا بالائتلاف مع حزب اليعاقبة . فلما رأى ديموريه أنه قد خذل أمام النمساويين استولى عليه اليأس لأنه كان يعلم أن ليس للقائد المنهزم عند اليعاقبة غير المقصلة فتخلى عن مكانه وانضم إلى الأعداء فراراً من الموت المحقق . وكان عمله هذا سبباً في نكبة حزبه في باريس حيث حامت الشكوك حول زعماء الحزب واتهموا بالخيانة وبمالة العدو والكيد للجمهورية . وتمثل اليعاقبة في أشخاصهم جريمة صاحبهم ديموريه فألقوا القبض عليهم وطرحوهم في السجن ولكن كثيرين منهم تمكنوا من الهرب وانتشروا في أنحاء فرنسا يلقون بذور الفتنة ويثيرون الرأي العام في الأقاليم على حكومة اليعاقبة . وأفاحوا في ازعاج غرمائهم إلى حد بعيد حيث قامت مرسيليا وطولون وبردو وليون تشق عصا الطاعة . ويعان أهلها خروجهم على الحكومة القائمة في باريس . وقد أشرنا الى ذلك في فصل سابق .

أزاء هذا الانقلاب الذى حصل فى فرنسا وانقسام أهلها بعضهم على بعض تغيرت خطة الدول فبعد أن كانت نيتهم مقاومة الثورة ومحاربة القائمين بها اتجهت أنظارهم إلى تقسيم فرنسا وتوزيع أسلابها بين أنفسهم فاستولى الانجليز والنمساويون على « Condé » كوندé وفالنسين Valencienne واستعاد البروسيون ما كانت فرنسا قد سلخته عن بلادهم وانتصرت جيوش أسبانيا على الفرنسيين فى جبال البرانس. وزادت إنجلترا هذا الطين بلة بأن أعلنت الحصر البحرى على جميع الموانى الفرنسية .

فلم ير اليعاقة تحت هذه الضربات المتتابعة إلا أن يعلنوا أن « الوطن فى خطر » وأن لا سبيل لخلاصه إلا تركيز السلطة فى يد هيئة صغيرة تخول سلطة واسعة مطلقة لدفع هذا الخطر عن البلاد . فوضعت هذه السلطة فى يد لجنة أطلق عليها اسم « لجنة الأمن العام » وتولت هذه اللجنة حكم فرنسا من يونه سنة ١٧٩٣ لغاية يوليه سنة ١٧٩٤ ويعرف عهدها فى تاريخ فرنسا باسم « عهد الأرهاب » لأنها لم تتعفف فى سبيل القضاء على خصومها فى داخل فرنسا عن سلوك أشد السبل قسوة وأكثرها وحشية واستكثرت من القوانين

الاستثنائية التي تمكنها من ارباب أعداء الجمهورية والتكيد
بهم وجعلتهم عبرة لغيرهم حتى تنصرف الجهود بعد ذلك إلى
خصوم الدولة خارج الحدود .

وقد قررت هذه اللجنة فعلا تعبئة الأمة الفرنسية بأسرها
تعبئة عامة لدفع الخطر الخارجى الذى كان يهددها بوقوف
الأعداء على حدودها كما سبق لنا البيان فى الفصل الخامس
من الباب الأول (الثورة الفرنسية) .

« فأما الشبان فيذهبون الى ميدان القتال . وأما الأزواج
فيبقون فى المصانع لأعداد الذخيرة وصنع السلاح .
وأما الزوجات فيفرغن للنخام ونصبها والجرحى وتطبيبهم
وتهيئة الطعام واللباس وأما الصبية فيشتغلون بتحويل الخرق
والمزق إلى أربطة لتضميد الجروح وأما الشيوخ فيستقرون
فى الأسواق لأنهاض الهمم وتغذية النفوس بالغيرة والحماسة »
أما ما أعدته اللجنة لدفع الخطر الداخلى فكان « قانون
الاتهام » الذى يقضى بالاعدام على كل من تشبه الحكومة
فى عدم ولائه لها .

وبهذه الصرامة والبساطة فى الاجراءات استطاعت اللجنة
أن تتغلب على العقبات التى اعترضتها وأن تدفع عن نفسها

خطر الغزاة وخطر الثائرين

فأما المدن الثائرة فقد سقطت واحدة بعد واحدة في أيدي جيوش اليعاقبة . ولم تستعص على تلك الجيوش منها الا مدينة تولون . وقد رأينا في الفصل السابق كيف وصل نابليون اليها وأقام أساس عظمته الحربية حول اسوارها

وأما جيوش الحلفاء فقد ردهم قواد الثورة واستردوا مواقعهم الاولى في المانيا وبلجيكا واستولوا على هولندا في أواخر سنة ١٧٩٣ ولم ينقض عام ١٧٩٤ حتى كانت فرنسا صاحبة السيادة في البلجيك وهولندا ونيس وسافوا وشاطيء الرين الغربى وهى الحدود التى كان يحلم بها لويس الرابع عشر ولا يستطيع تحقيقها .

وعلى أثر هذه الانتصارات انسحبت بروسيا من الحرب وتبعها اسبانيا وبذلك أنهار التحالف أو كاد ولم يبق من أركانه غير انجلترا والنمسا .



الجنرال بوناپرت

افصل الرابع نابليون والتحالف الاول

قدّرت الحكومة الفرنسية الخدمات التي قام بها نابليون لصالح الجمهورية حول تولون فأمرت بترقيته إلى رتبة لواء اعترافاً بفضله . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز بعد سنته الخامسة والعشرين حين حصل على هذه الرتبة السامية فإن اسمه كان لا يزال مجهولاً بين الفرنسيين حتى أن الضابط الذي عين ياوراً له لما كتب إلى أبيه يقول له أنه سيكون ياوراً للجنرال بوناپرت كتب إليه أبوه والأسف يملأ فؤاده :

« لماذا تركت القائد لا بورد ؟ ولماذا تركت فرقتك ؟ ومن هو الجنرال بوناپرت وأين خدم ؟ انى لا أعرف أحداً يعرفه » .

على أن نابليون لم تكن تنقصه معرفة والد ياوره لتقديره الحكومة الفرنسية حق قدره فانه كان أملها الوحيد في القضاء على ما بقي من عناصر التحالف الأول (إنجلترا والنمسا) — ولما كانت إنجلترا قد أعلنت حصرها للشواطئ الفرنسية

لخلق تجارتها وحرمانها من الاتصال بأية دولة أخرى فان الحكومة عهدت إلى نابليون في القيام بمهمة تحصين الشاطئ الجنوبي في وجه السفن الانجليزية . فانغمس في هذا العمل الجديد بهمة المعهودة : ولم يترك فجوة في البحر ولا ربوة على الأرض إلا سبر غورها وضبط أبعادها حتى اجتمع له من المعلومات في بضعة أسابيع ما لم يكن ليجمع لبعثة كاملة في شهور . وبعد أن قسم المنطقة الساحلية إلى ثلاثة خطوط للدفاع وأقام على كل خط مدافعه عاد إلى قاعدة الجيش المرابط في نيس .

وكانت الحكومة الفرنسية قد أعدت هذا الجيش لمحاربة النمسا التي حشدت جيوشها في سهول إيطاليا الشمالية استعداداً لمهاجمة الحدود الفرنسية بمساعدة (ييدمنت) . فلما دخل نابليون هذه المدينة وجد الجيش الفرنسي قانعاً بالكمن في خنادقه ينتظر وثبة النمسا عليه ليقوم بردها . فلم تعجبه هذه الحال وقام من فوره بوضع خطة للهجوم بناء على معلوماته التي اكتسبها عن طبيعة ذلك الميدان وقدمها من تلقاء نفسه لقائده الأعلى وكان رجلاً شهماً ليلاً فلم يتردد في قبولها وتولى بالفعل تنفيذها . وبذلك لم تكد تمضي على نابليون في

نيس ثلاثة أسابيع حتى كانت القوة الفرنسية كلها تزحف على العدو . ففر جيش (يدمنت) أمام هذه المباغثة تاركا وراءه مؤنثه وذخيرته غنيمة باردة للفرنسيين وبهذه الطريقة استولى الجيش الفرنسى على كافة الممرات التى تخترق جبال الألب من جهة الغرب .

غير أن نابليون لم يكد يتنفس قليلا فى ذلك الجو السعيد الذى كان يحيط به فى ذلك الوقت حتى ألقى القبض عليه تهمة أنه عند ما كان مكلفاً بتحسين الشواطىء الجنوبية عمل على تسليح سجن قديم فى مرسيليا توهم الناس أن القصد منه إنما هو إقامة (باستيل) جديد يهدد سلامة الوطنيين بينما كان نابليون لا يرمى من وراء تسليحه إلى أكثر من أن يجعله مستودعاً للذخيرة تستمد الجنود منه حاجتها ولقد وفق نابليون فى هذه الأزيمة إلى الحصول على معاونة روبسبير الصغير شقيق روبسبير الكبير طاغية باريس وزعيم حكم الأرهاب فنجح فى توصيل صوته إلى أسماع ذوى الشأن وسط تلك الضوضاء التى لم يكن يسمع فيها غير جعجعة الجيولتين . ونجا نابليون من القتل المؤكد . فأخلى سبيله وأعيد إلى جيش نيس .

وفي ذلك الحين عرض عليه روبسبير الصغير مساعدته-
لدى شقيقه الأكرليعينه قائداً لحامية باريس ولكن نابليون
لم تكن تخفى عليه الفوضى المستحكمة هناك . ولم يشأ أن يلقي
بنفسه في ذلك الوسط الموبوء الذي لم تكن تستقر الرموس
فيه على أكتاف أصحابها طويلاً . وفضل الخدمة في جبال-
الألب على الاتصال « بآلهة الأرهاب » في باريس !

الفصل الحجامس

كوكب النحاس

كان نابليون حكيماً في رفضه الاشتراك مع روبسبير الكبير في حكم باريس ولكن ما كانت الحكمة لتجدي إذا تلاً فوقها كوكب النحاس . وما كان في الحذر غناء بما تجرى به المقادير . ولقد كان مقدراً على نابليون أن يسجن أولاً ثم يوقف ويحرم من مرتبه ثم يشطب اسمه من الجيش مرة واحدة ثم تضيق الدنيا في عينيه إلى حد أن يفكر في الانتحار !

سجن نابليون

ففي تلك الفترة وقع في باريس من الحوادث ما اهتزت له فرنسا كلها وقلب جميع شئونها رأساً على عقب . إذ كان « الآلهة الثلاثة » روبسبير ودانتون ومارا يحكمون باريس بالاشتراك فيما بينهم . فلما قتل مارا بقي فيها « إلهان » اثنان فقط ثم لم يلبث روبسبير أن اختطف روح شريكه وانفرد بالملك وحده . غير أنه بالغ في سوء الظن بالناس وأسرف

فى الاعتداء على أرواحهم حتى ضجت باريس واثمرت
(بألهها) الباقى وقتلته . وارتفع بمقتله ذلك الكابوس المفزع
الذى طحن فرنسا تحت كلـكه شهوراً طوالا . وأحس الناس
بعد موته كأنما أفاقوا من حلم مريع . وأصبحوا يتلهفون جميعاً
للعودة إلى حياتهم الأولى حياة الدعة والسكينة والاطمئنان .
وتعالت الأصوات من كل ناحية بوجوب مطاردة عمال
الارهاب وقطع دابرهم والتخلص من نفوذهم .

وأمعن الناس فى تعقبهم لرجال الارهاب وأنصار حكومته
حتى وصلوا إلى عنق نابليون فقبضوا عليه بدعوى أنه كان
على اتصال بروبسير فأودع السجن رهن التحقيق . ولم يبق
إلا أن يخطو الخطوة الثانية فى هذا الطريق المحدود الذى كان
ينتهى عادة تحت سكين الجيولتين .

ودخلت أسرة نابليون على أثر هذه الحادثة فى برج النحاس
من جديد إذ ألقى القبض على لوسيان أيضاً وجاء وقت حسابه
عن هوسه الذى استسلم له منذ كانت الأسرة فى جزيرة
كورسيكا وود المسكين لو جلد بعدد حروف خطبه الرنانة
حرفاً حرفاً على أن يسلم رأسه من المقصلة .

وهكذا خيم النكد على رأس هذه الأسرة فى الوقت

الذى كانت تتجاوب فيه أنحاء فرنسا بصيحات البشر والفرح لتخلصهم من شرور اليعاقبة وانهاء حكم الارهاب .

على أن روح نابليون العنيد لم يفارق قوته حتى في هذه الظروف اليائسة فلم يأل جهداً في الاحتجاج لدى أولى الشأن على ما أصابه بعد أن وقف لصالح فرنسا كل تلك المواقف المشرفة التى رفع فيها راية الوطن عالية في وجه خصومه وكذلك لم يأل صديقه جونو جهداً في الدفاع عنه والسهادة له بأنه كان بعيداً عن جماعة الارهاب كل البعد وأنه رفض فعلاً أن يمد يده اليهم عندما دعوه لمعاونتهم وأطمعوه بنفوذهم وعودهم وأخيراً أراد الله أن تنكشف عنه هذه الغمة فبعد أن قتشت أوراقه ولم يتوفر فيها الدليل على اتهامه أدخل سبيله .

بعد ذلك أعيد نابليون إلى رتبته وسافر مرة أخرى إلى الجنوب ليشترك في حرب النمسا وكأنه أحس بأن واجباً عليه أن يثبت للحكومة التى أفرجت عنه بأنها أحسنت إلى نفسها بهذا الافراج قبل أن تحسن إليه فما كاد يتسلم عمله في الجيش حتى رد النمساويين عن مواقعهم وانتصر عليهم انتصارات أولية مهدت السبيل أمام الجيوش الفرنسية التى

كانت تنوى عزو السهول الشمالية لاطاليا .
ولكن الحكومة المركزية فى ذلك الحين سجلت على
نفسها أنها كانت أعجز من أن تقدر جهود العاملين من رجالها
حينما قضت بنقل نابليون من جيش إيطاليا ووكلت إليه قيادة
لواء المشاة الذى نيط به إخماد الفتن التى قام بها أهل مقاطعة
«لافندة La Vendée» فى غرب فرنسا . فامتعض نابليون لهذا
القرار ورأى فيه نكرانا للمواهبه واعتداء على كرامته فان رجال
المدفعية كانوا فى ذلك العصر — كما هم اليوم — يعتبرون
أنفسهم أرقى من زملائهم (مشاة وفرسانا) بالنسبة لما تتطلبه
الخدمة فى سلاحهم من الخبرة والمهارة الفنية على عكس
سلاح المشاة مثلا الذى لا يتطلب فى نظرهم كفاءة خاصة
والذى يمكن لآى ضابط من الأسلحة الأخرى أن يخدم فيه .
ورأى نابليون من جهة أخرى أن لا تتصاراته على أعداء
فرنسا خارج حدودها قيمة أكبر وأسمى من قيمة انتصاراته
على أبناء فرنسا أنفسهم داخل الحدود . فلم يتردد فى الاعتذار
عن قبول هذه الخدمة الجديدة مدعياً أن صحته فى حاجة الى
الراحة والعلاج .

وقفه وهرمانه مع مرتبه

ولقد ترتب على رفض نابليون لما عرضته عليه لجنة الحرية أن أوقف وحبس عنه مرتبه فساءت حاله وحال أسرته معه . ولم يعد لهم من مورد يستندون اليه إلا ما قبضه يوسف من مهر عروسه ابنة المسيو كلارى التى تم زواجه بها حديثاً فى مارسيليا ويستطيع الإنسان أن يقدر قيمة هذه المعونة متى عرف أن نابليون نفسه كان يغبط أخاه على هذه الزيجة ويتعنى لنفسه مثلها وهو يقول « ما أسعد حظ هذا الأبله يوسف ! » .

سُطِب اسم من الجيشى

وحدث أن سقطت الحكومة القائمة فى فرنسا فى ذلك الوقت وقامت فى مكانها هيئة جديدة فبادر نابليون بالسفر إلى باريس وهو يرجو أن يأتية الفرج على يدها فيعود إلى مركزه السابق فى الجيش ولكنه لم ينل منها مأرباً . وأخيراً فكر فى السفر إلى تركيا حيث كان السلطان يرغب فى إعادة تنظيم جيشه بمعاونة خبراء عسكريين من الجيش الفرنسى .

فرشح نفسه لذلك فعلا مع غيره من المرشحين وبينما هو يبنى نفسه بقرب الخلاص من هذا الضيق ويحلم بما سيصادفه في الشرق من النجاح كانت الحكومة تقلب ملف خدمته بين يديها تمهيدا للنظر في أمر ارساله إلى تركيا فلا تجد في سلوكه معها إلا مخالفة من بعدها مخالفة بسبب كثرة غيابه في كورسيكا وتخلفه عن المواعيد التي كان يرخص له بها واعتذاره عن قبول المناصب التي تعرض عليه فقررت بشطب اسمه من كشف القواد . وبذلك حلت النكبة كاملة بعد أن ظلت زمانا تحلق فوق رأسه وهو يتقلب تحتها بين الرجاء واليأس .

ولقد كان لهذه الضائقة في نفس نابليون من الأثر ما لم تقو الأيام على محوه وإزالته . واليك ما قصه هو بنفسه على زملائه الذين صحبوه في سانت هيلانه عما كان يعانيه من الآلام بعد ما فوجيء بشطب اسمه من الجيش وأصبح على الرغم من كل مواهبه عاطلا شريدا يتسكع في طرقات باريس :

كنت في ذلك الحين فريسة لتلك الحالة النفسية التي يخلقها الضيق ويشل معها حركة الفكر وتصبح الحياة على صاحبها حملا ثقيلا لا يطاق وورد إلى من أمى كتاب تصف لي فيه ما وصلت إليه من العجز التام عن القيام بنفقات إخوتي

الضرورة ورأيت نفسى لا عمل لى ولا راتب ولم يكن فى جيبى غير ريال واحد . فاستيقظت فى نفسى غريزتها البهيمية فى العمل على التخلص من هذا الشقاء الذى لا يحتمل وفقدت كل أمل فى أماكن الخلاص من هذه التعاسة الملازمة . فرأيت أقدامى تقودنى إلى جانب النهر وكنت أحس بما فى الأقدام على الاتحبار من عدم الرجولة ولكنى لم اكن أستطيع مقاومة الدافع الذى يدفعنى إلى إلقاء نفسى فى الماء . ولم تكن بينى وبين هذه الخاتمة الشنيعة إلا لحظات قصيرة كان لابد منها لهذا الخاطر المشؤوم حتى ينضج وينتقل إلى دور التنفيذ وعند ذلك لم أشعر إلا وانسان يطوقنى بذراعيه وينادىنى باسمى فنظرت فأذا أنا بين ذراعى صديق قديم كان معى فى المدرسة . وكان هذا الشاب من سلالة إحدى الأسر الشريفة بفرنسا ثم هاجر منها مع المهاجرين ولكنه كان يعاود زيارة باريس فى الخفاء من حين إلى حين ليزور أمه العجوز .

وكأنا راع صديق ما رآنى عليه من الكأبة وما كان باديا على ملامحى من النوايا الشريرة فأقبل على بلهفة يسألنى « ما باللك يا نابليون ؟ إنك لا تلتفت الى ! وكأنى بك لم تسر

بلقائي ! أى شيء يشغل بالك ؟ أنك لتتظر إلى نظرات رجل
مجنون يوشك أن يقتل نفسه ! » .

وكأنما كشفت فراصة صديقى الغطاء عن دخيلة نفسى
فلم أعد أفكر فى أخفاء شيء عنه بما كان يحول بخاطرى
وأفضيت إليه بكل سرى . فما كدت أفرغ من حديثى حتى
رأيتة يحل عن وسطه نطاقا كان يشده عليه وهو يقول : أهذا
كل شيء ؟ دونك ستة آلاف ريال ذهاباً لا حاجة لى بها الآن
خذها وفرج بها كربة أمك ! » فلم أدر والذهب أمامى كيف
سمحت لنفسى بأن اسنولى عليه ولكنى اختطفته من غير وعى
وغلبنى الاتفعال فطفقت أعدو حتى أدركت البريد المسافر
لى مرسيليا فحملته إياه . وعند ذلك عدت إلى نفسى وبدأت
أفكر فيما صنعت . وكان أول ما فكرت فيه أن أعود إلى
حيث تركت صديقى ولكنى حاولت عبثاً أن أتطره أو
أهتدى إليه . ولقد لبثت أياماً وأنا أذهب إلى ذلك المكان
كل صباح ولا أعود منه إلا فى المساء لعلى أظفر بقاء هذا
الصديق ولكن ذهبت كل جهودى فى هذا السبل أدراج
الرياح ولم أوفق للعثور على هذا الصديق إلا بعد أن تربعت
على عرش الإمبراطورية فوجدت أن الفرصة مؤاتية للاتقاء

لنفسى من جميله الذى أسداه إلى وانتشلتنى به من . وهذه الضياع . فسألته عن رأيه فى تصرفى معه فى تلك الليلة العصبية فأجابنى بانه لم يكن فى حاجة إلى المال ولذلك لم يبرز لمطالبتى به بعد ذلك . وقال إنه خشى أن يقدم نفسه لى فأحرمه من عزله التى كان يعيش فيها هادئاً بين مزارعه وبساتينه . فأغلظت عليه فى قبول ستين ألف ريال وفاء لمبلغ ستة الآلاف التى دفعها إلى فى محنتى . والححت عليه فى قبول وظيفة المدير العام للحدائق الامبراطورية بمرتب سنوى قدره ستة آلاف ريال وعينت شقيقه كذلك فى مركز من المراكز السامية »

الفصل السادس

الحكومة فى خطر

كانت حكومة فرنسا أيام لويس السادس عشر حكومة ملكية استبدادية ثم تقرر جعلها حكومة دستورية . وأقسم الملك يمين الولاء للدستور الذى وضع تحت إشرافه . ولكنه حث يمينه فثار عليه الشعب وسجنه وقتله وأعلن انقضاء عهد الملكية فى فرنسا . ودعى مؤتمر وطنى (سنة ١٧٩٢) ليرسم للبلاذ نظام حكومة جديدة . ووقع الاختيار على النظام الجمهورى . ولكن قامت بعد ذلك « حكومة الأرهاب » بسبب الأخطار التى تهددت فرنسا . وقاست البلاذ فى ظلها الولايات فلما قتل روبسبير . وانتقل الحكم من يد (اليعاقة) إلى (المؤتمر) عاد الناس يتنفسون فى جو الحرية المنعش وحاول المصلحون أن يقبضوا مرة أخرى على دفة الحكم ليعودوا بتلك السفينة المرتطمة التى خلفها لهم روبسبير الى شاطئ السلام والرخاء والنظام . وعاد المؤتمر يستأنف جهوده فى وضع نظام الحكومة الجديدة .

ولكن اليعقوبيين لم تكن تروقهم هذه الحركة بطبيعة الحال فانتشروا يثيرون الناس على هيئة المؤتمر وساعدتهم على نشر هذه الدعوة ما كان يقاسيه العامة من الضيق وقلة الاقوات فكثرت اجتماعات العمال والغوغاء . وأخيراً تقدموا إلى المؤتمر بطلباتهم وفي مقدمتها تنفيذ (دستور سنة ١٧٩٣) الذى وضع فى عهد الارهاب وحالت ظروف البلاد فى ذلك الوقت العصيب دون تنفيذه وكان يمتاز هذا الدستور بأنه يجعل الحكم للشعب مباشرة لأن حق الانتخاب فيه مقرر لكل من بلغ عمره ٢١ سنة . وكانت السلطة التشريعية بمقتضاه فى يد مجلس واحد ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام وكان لا بد لنفاذ القوانين التى يصدرها هذا المجلس من استفتاء الشعب فيها استفتاء عاماً . وغنى عن البيان أن مثل هذا الدستور كان أدعى إلى الفوضى منه إلى النظام نظراً لأنه يحاول أن يشرك أفراد الأمة كلها فى حكم البلاد . فقرر المؤتمر ادخال بعض التعديل على نصوص هذا الدستور . وعينت لجنة للقيام بهذا العمل . فثار الجمهور بايعاز اليعاقبة وهاجم دار المؤتمر واقتحم أبوابها واختلط بالأعضاء وحاول أن يحملهم بالارهاب على إجابة مطالبه . ولكن هيئة المؤتمر ظلت ثابتة . واعتصمت

بالحكمة والرزانة حتى تفرق الشائرون وزال الخطر وعند ذلك بادرت بالرد على هذه المباغثة الآثمة فأصدرت قراراً بأن حرية مداولات المؤتمر قد اعتدى عليها في ذلك اليوم . وأنه لا بد من اجراء التحقيق لمعرفة زعماء هذه الفتنة وتوقيع العقاب عليهم كما قررت نفي أربعة من زعماء اليعقوبيين في فرنسا وإعلان الأحكام العرفية في باريس وتعيين الجنرال « بشيجرو » حاكماً عسكرياً للدينة حتى تستأصل عناصر الفتنة ويعاقب مدبروها . وهكذا تمكن المؤتمر من رد كيد العصاة في نحورهم .

ورأى اليعاقبة بعد هذه الهزيمة المنكرة أن المؤتمر أثبت من أن تزعمه المظاهرات فقرروا فيما بينهم أن يرسموا خطة منظمة لمهاجمته واضطرار أعضائه بقوة السلاح إلى التسليم بمطالبهم وأهمها الافراج عن زعمائهم . وإعادة (دستور سنة ١٧٩٣) من غير تعديل .

وفي صبيحة اليوم التالي (٢٠ مايو سنة ١٧٩٥) أطبقت جموعهم حول قاعة الاجتماع ثم دخلوها مدججين بالسلاح وأحاطوا برئيس الجمعية ليحملوه على إقرار ما يطلبون . ولكنه بقي رابط الجأش على الرغم من وقاحة مهاجميه .

وأخيراً تقدم أحد النواب ليصد عنه الغوغاء فرماه أحدهم برصاصة ألقتة صريعاً . فهجم الثوار على جثته وحملوها إلى الخارج حيث مثل بها الرعاع وقطعوا رأسه ثم دخلوا به إلى القاعة محمولاً على ربح طويل . وبعد أن خيمت الفوضى على قاعة المؤتمر نحو ست ساعات تمكن جنود الحكومة في النهاية من طرد الثائرين وتخلص الأعضاء مما كان يحيط بهم من الأخطار . ثم رأى المؤتمر أن ينتقم لنفسه هذه المرة انتقاماً ذريعاً يجعله بئامن من خصومه اذا وسوس لهم الشيطان بالفتنة من جديد . فقرر القبض على جميع الزعماء اليعاقبة ومحاكتهم وتجريد كل من يشتبه في اتمائه إلى اليعقوبيين من السلاح وسيرت حملة عسكرية على معقل الفتنة في شارع سانت أتوان لتنفيذ هذا القرار فوقع في يدها كثير من الزعماء وحكم على كثير منهم بالإعدام . وبذلك هدأت الأحوال وعاد المؤتمر يتناقش في مشروع الجمهورية الجديدة .

فتقرر أن تكون الهيئة التشريعية من مجلسين يتألف أحدهما من خمسمائة عضو ويسمى (مجلس الخمسمائة) ويتألف الآخر من ٢٥٠ عضواً لا يقل عمر أحدهم عن أربعين سنة

ويسمى (مجلس الشيوخ) . وقد جعل لمجلس الخمسة و حده الحق فى تقديم مشروعات القوانين والمناقشة فيها على أن تعرض بعد ذلك على مجلس الشيوخ ليقرها أو يرفضها . أما السلطة التنفيذية فقد وضعت فى يد مجلس يتألف من خمسة مديرين يتعاون فى انتخابهم مجلس الخمسة و مجلس الشيوخ ويسقط كل سنة واحد منهم بالاقتراع .

وقد رأى المؤتمر أن يمنع نفوذ اليقاقة ما استطاع عن أن يتسرب إلى الحكومة الجديدة فقرر أن يحتفظ لأعضائه بثلاثى المقاعد فى الهيئة التشريعية الجديدة وأن ينتخب الثلث الباقى فقط من الخارج وبذلك سد طريق الحكم فى وجه كل ساع إليه لأنه ضمن الأغلبية لرجالها . وكان قراره هذا كفيلا بأن يجمع أحزاب المعارضة كلها فى صف واحد . وأصبح من المحقق وقوع معركة فاصلة بين الفريقين تحدد نتائجها مستقبل الحكومة . وتكون حكما بينها وبين الثائرين .

وسرعان ما اجتمع من أهل باريس نحو أربعين ألفاً من المعارضين — ملكيين ويعقوبيين — وتولى قياداتهم زعماء مدربون وكانت نية الجميع أن يحملوا على المؤتمر حملة مسلحة يطلبون إليه فيها أن يعدل عن قراره هذا . وأن

يخضع لمطالب الشعب فلم تكن المسألة هذه المرة مسألة
مظاهرة اعتيادية يتحطم فيها بعض ألواح الزجاج كالمعتاد
وترجم فيها بعض النوافذ والأبواب بالحجارة ثم يعود
المتظاهرون أدراجهم قانعين ولكنها كانت غارة منتظمة
بمدافعها وبناقلاتها وموسيقاها تسير كما يسير الجيش النظامي
إلى ميدان القتال .

ولقد تنبه المؤتمر للخطر المحدق بكيانه فأعد على وجه
السرعة نحو خمسة آلاف جندي سلم قيادتهم للجنرال (مينو)
ووكّل إليه قمع هذه الحركة . وكان مينو رجلاً ليناً ضعيف
الاعصاب فما هو أن طلعت على قوته طلائع الثائرين وتبين
وفرة عدد خصومه حتى أصدر أمره بالانسحاب إلى سراي
التويلري حيث كان ينعقد المؤتمر .

البقيش السابج

طالع السعد

كان نابليون بونابرت — الجنرال سابقاً ! — يحوب في تلك الساعات شوارع باريس ويشهد ما يجرى فيها والقلق يكاد يأكل قلبه على ما قد يصيب البلاد من الفوضى إذا انتصر الثائرون . فلما انسحب مينو بجنوده إلى التويلرى تبعهم إليها . وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله على المدينة الهائجة فانصرف الثائرون وقد امتلأوا يقيناً بأن الحكومة سوف تدين لأرادتهم ما دام جنودها قد انهزموا أمامهم ولما تنطلق منهم طلقة واحدة ! .

وبقى نابليون يستمع للمناقشات المحتدمة في المجلس حتى كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً . وعند ذلك أجمع الأعضاء على وجوب عزل الجنرال مينو وتسليم أمر الدفاع عن المؤتمر إلى (باراس) Barras أحد رجال المؤتمر الممتازين نظراً لما

يتطلبه الموقف من اليقظة والحزم . وأدرك باراس ما في المهمة الملقاة على عاتقه من الخطر وود لو أزاح مشغولياتها عن رأسه وعلقها في عنق غيره . وكأنما لمح وجه نابليون في أروقة المجلس فانه صاح بزملائه قائلاً : « أتى أعرف الرجل الذى يستطيع حمايتنا والدفاع عنا . ذلك هو الضابط الكورسيكى نابليون بوناپرت الذى عرفته فى تولون ! » .

وأرسل المؤتمر فى طلب نابليون يستدعيه . وجلس الأعضاء ينتظرون ذلك المارد الذى يقول لهم (باراس) عنه : « انه يستطيع حمايتنا والدفاع عنا ! » ولم يكن لمعظمهم معرفة سابقة بهذا الضابط الكورسيكى الذى عرفه باراس حول تولون فأيقنوا فى أنفسهم بكثرة الشحم واللحم ودخل عليهم نابليون فإذا هم أمام شخص قمىء وجسم ضئيل يضن الناظر إليه بان يقول عن صاحبه أنه بلغ العشرين . فوجه إليه الرئيس كلامه قائلاً .

— « هل لك إلى أن تتولى الدفاع عن المؤتمر ؟ »

فأجابه نابليون بكل إيجاز : — « نعم »

فأطرق الرئيس قليلاً ثم قال :

— « أو تدرك خطر المهمة التى عهدت إليك ؟ » .

فرمقه نابليون بعينى النسر اللتين حبته الطبيعة بهما وقال :
— « أعرفها تماماً ! وأن من عادتي أن أقوم بكل ما أتعهد
به ! ولكن لى شرطاً واحداً لا بد لى من توفره قبل
القيام بهذه المهمة . ذلك أن تكون يدي مطلقة فى العمل
لا تقيدھا إرشادات المؤتمر ولا تعليماته ! » .

ولم يكن المجال يسمح بمجادلة نابليون فيما يشترط
فأطلقت يده ليفعل كيف يشاء .

وكان على مقربة من باريس نحو خمسين مدفعاً من المدافع
الضخمة الرشاشة فأمر نابليون بإحضارها فى الحال فأحضرت
ونصبت حول التويلرى . وصوبت فوهاتها إلى جميع الطرق
المؤدية إلى مكان المؤتمر . وظل نابليون طول الليل يتنقل
حول المكان ليشرف على كل معدات الدفاع . وأخيراً بعث
إلى أعضاء المؤتمر نحو ثمانمائة بندقية وكمية وافرة من الذخيرة
لتكون تحت أيديهم عند الضرورة . وكان ذلك دليلاً على
تقدير نابليون لخرج الموقف حيث لم يكن من المتعذر على
الناظرين وهم على ما هم عليه من وفرة العدد أن يحاصروه هو
وأعضاء المؤتمر أياً ما حتى يضطر إلى التسليم تحت تأثير الجوع
ونفاد الذخيرة .

وأخيراً أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن قصر التويلرى وهو محاط بتلك الاستحكامات كأنه قلعة شاكية لم تعرف قط غير السلاح والجنود وبكر الناثرون إلى الميادين التى تواعدوا على الاجتماع فيها وأقبلوا على المؤتمر فى صفوف متراصة كثيفة ورآهم نابليون يتقدمون إليه ولم يبق إلا أن يشتبك الخصمان : أربعون ألفاً يهاجمون وبحو خمسة آلاف يدافعون ! ولكن نابليون عول على الانتظار حتى تقع مسئولية الضربة الأولى على عاتق الثائرين . ولا بأس من أن تقع على عاتقه هو مسئولية الضربة الثانية . ولم يكن يحلم الناثرون بأنهم سيصادفون أدنى مقاومة من جانب المؤتمر وكانوا يعتقدون أن بضع طلقات يطلقونها على حاميته سوف تخلى لهم السبيل . وما دروا أن نابليون قد بات ليلته وهو يعد مدافعه ليستقبلهم فى الصباح برصاصها الرشاش ! .

ولما اقتربت طلائع الثائرين من صفوف نابليون ورأوهم جاثمين حول المؤتمر ينظرون إلى تقدمهم نحوهم ولا يحركون ساكناً صوبوا بنادقهم إليهم وأطلقوها . ووقعت مسئولية الضربة الأولى فعلاً على عاتق الثائرين كما أراد نابليون وعند ذلك أمر بأن تفتح عليهم أفواه المدافع وتفرغ فى صفوفهم

كل ما تستطيع إفراغه من طلقاتها الرشاشة . فانسابت عليهم
ميازيبها بوابل من الرصاص وانفجرت الزوبعة التي قضى
نابليون في تعبئتها ليلة كاملة . فارتبكت صفوف الشوار تحت
هذا البلاء الهاطل . وحاولت الثبات ولكن العاصفة بقيت
ثائرة برعدها وصواعقها حتى لم يطق الشعب عليها صبراً .
فحاول الاحتماء منها ولكنها كانت خلف كل واحد كأنما
تتعبه وحده من دون زملائه . فلم يبق إلا الفرار وإخلاء
الميدان . ولكن الزوبعة بقيت أيضاً تطارد الجميع لا تهدأ
لها حدة ولا تنطفئ لها سورة . ولم تكد تمضي ساعة حتى كان
نابليون يلتمس فرداً من الأربعين ألف الذين أطبقوا عليه
من كل صوب في الصباح فلا يجد إلى واحد منهم سبيلاً .
ولكنه لم يكتف بذلك بل أرسل جنوده وراء الثائرين ووكل
بكل حي من أحياء باريس طائفة من رجاله ينزعون السلاح
من أهله حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة . ولما فرغ من كل
ذلك عاد أدراجه إلى المؤتمر هادئاً ساكناً .

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهناك قاله الأعضاء بما استحقه من التكريم والاعجاب

وأعلنوا اعترافهم له بأنه صاحب الفضل في إنقاذ الجمهورية .
وكانما آن أوان الحصاد لكل ما بذل نابليون من
الجهود الجبارة سواء أكان ذلك في إكبابه على الدرس
والتحصيل في برين وباريس أم في تفانيه في العمل على شواطئ
فرنسا الجنوبية ضد الانجليز أم في حملاته التي قام بها في جبال
الألب على النمساويين . فان صديقه (باراس) عين مديراً من
بين المديرين الخمسة الذين تألفت منهم الحكومة الجديدة
فكوفى هو تبعاً بتعيينه قائداً عاماً للجيش الداخلي وهو مركز
عظيم . وافر الدخل . انتقل به نابليون من حياة البؤس
والشقاء إلى حياة العز والرفاهية . فأصبح له قصر مشيد يسكن
فيه . وعربة خاصة تجرى به في شوارع باريس . وخدم .
وحشم . وحاشية وياوران وما شئت من بقية مظاهر الواجهة .
وكان أول ما خطر بباله وهو يتلقى البسمات الأولى لهذه
الدنيا التي بدأت تقبل عليه أن يبادر إلى جوار أمه لتنعيم معه
بما هو فيه من نعيم وملك عظيم . فسافر إليها في مرسيليا حيث
كانت تقيم مع إخوته . ومنذ هذه اللحظة أخذ ينجلي بر
نابليون بوعدة حين كتب لأمه عقب وفاة والده يقول :
« أي أمي العزيزة ! تعزى واصبرى . فان الأحوال توجب

علينا العزاء والصبر . وسنضاعف نحن العناية بك والاعتراف
بجميلك . فاذا وفقنا إلى تعويضك بعض الخسارة في الفقد
العزير كنا سعداء الطالع !

الكتاب الثاني

الجنرال بوناپرت

الباب الأول : زواج نابليون

الباب الثاني : نابليون يضع أساس شهرته

الباب الثالث : في منزل نابليون

الباب الرابع : نابليون رئيس حكومة فرنسا

الباب الأول

زواج نابليون

الفصل الأول : عواطف نابليون

الفصل الثاني : جوزفين

الفصل الأول

عواطف نابليون

لم تكن طبيعة نابليون من تلك الطبائع الهادئة التي يزينها القصد والاعتدال ولكنه كان حاد العواطف . إذا أحب أغرم . وإذا أبغض مقت . وإذا رغب أراد . وحيث تتجه ميوله تمتد قبضته بكل ما أودع الله فيها من قوة ليحصل على بغيته . وحيث تقع كراهيته ينقض كالصاعقة بكل ما أودع الله في روحه من عنف وبكل ما تصل إليه يده من الوسائل ولقد تجلت هذه الطبيعة في نابليون منذ صباه ولكن ما كان يعانيه من الفقر بعد موت والده وما كان يرى فيه أمه وأخوته من العسر والضيق صرف كل ميوله إلى العمل على انتشال الأسرة من تلك الوهدة التي سقطت فيها . فكان عنفه في دراسته وكانت حدته منصبه على الكتب وقتلها اطلاعا وبحثاً . ولقد كان ذلك سبباً في أن تتركز كل عواطفه في تلك الناحية . فشب وبلغ أشده دون أن تجد

عواطف الشباب عنده مجالا للظهور والنمو وبقيت محتبسة فيه زماناً وهي مهمة لا حساب لها عنده حتى اشتهر عنه بين النساء أنه جامد العواطف جاف الطباع . و يروى عنه أنه لما كان مع فرقته في فالانس كان يقيم مع جماعة من زملائه في دار حلاق . فبينما كانت ربة الدار موضع تودد اخوانه وملاطفتهم لم يكن لها حظ مطلقاً من عناية نابليون وملاطفته فكان ذلك اهمالاً بالغاً منه لم تنسه قط له ولم تغفر له أبداً خطيئته فيه . ومن مآثور كلام نابليون في تلك الفترة من عمره قوله : « انى أرى الحب مضرأ بمصلحة المجتمع . وبسعادة الفرد ! »

وليس بعجيب طبعاً أن يصدر مثل هذا الكلام عن شاب لا يملك رزقه ورزق أخيه (الذى كان يعيش معه في فرنسا في ذلك الوقت) إلا بشق الأنفس . فان الحب « يحتاج إلى معدة ملاءى » كما يقول الانجليز .

ولقد قال نابليون أيضاً : « الحب مشغلة الخلى . وملهاة الجندى . ومنقصة الملوك ، — ولكنه قال ذلك أيام لم يكن يريد أن يفتح قلبه لانسان وأيام كان يستنفد العمل كل جهوده . وأيام كان محرى عواطفه ينصب في ناحية واحدة

وهى ناحية أسرته العاجزة المعوزة . أما بعد ذلك فان تلك
العواطف المحتبسة قد انتقمت لنفسها وبرزت فى صورة شرهة
ضارية . فان نابليون لم تكد تنصلح حاله حتى تفتح قلبه للحب
بنفس الحدة التى اتسمت بها سائر عواطفه . بل لقد أصابه
فى هذه العاطفة بالذات نوع من رد الفعل كان أشبه الأشياء
بالنهم المخيف الذى يعقب الجوع المدقع . فكان اذا اتصل
بامرأة ذاب فى هواها وتوله بها وارتضى بين يديها يطلب الزواج
منها غير آبه لما قد يكون بينه وبينها من الفوارق التى تجعل
الزواج بينهما مستحيلا . ومما يروى عنه أنه وقع فى غرام
سيدة كهلة تكبره بعشر سنوات ولكنه ولع بها ولعاً شديداً
ولم يكن يهنا له عيش إلا بمجالستها . وأخيراً طلب إليها أن
تتزوجه فأغرقت فى الضحك قائلة : أنك بهذا تجعل الناس
يضحكون منك . فأتى فى سن أصلح معها أن أكون لك أما
لا زوجة . فأقلع عن هذا الحب الذى يجعلك أضحوكة بين
عارفيك !»

فيئس منها نابليون وسلاها ... ولكنه مالبث أن وقع فى
غرام امرأة أخرى كانت بالفعل أكبر من أمه سناً حتى قيل
أنها كانت قد تزوجت لأول مرة قبل أن يولد هو بثلاثين سنة

على أن نابليون كان ضحية أكثر من غرام واحد في بدء حياته فلقد مر بنا ذكر الأنسة (دزيريه) بنت المسيو كلارى التى أحبها دون أن يتلقى عن حبه لها غير الصد والازورار بما جعله ينقم من أخيه يوسف توفيقه فى الوصول الى قلب أختها جوليا وزواجه بها بعد ذلك « هذا اللاحق يوسف الذى ما أسعده ! » كما كان يقول عنه نابليون .

وكأنما سئمت نفس نابليون هذا الرفض المتواصل فعاد الى كظم غرامه واكتفى بالتردد على صالونات الشهيرات من نساء باريس أمثال مدام تاليان Mme Tallien حيث كانت تلتقى صفوة القوم من كل ذى جاه وحسب أو ذات جمال وأدب . وبقي على هذه الحال حتى عرف جوزفين بوهارنيه Josephine Beauharnais ودخل فى دائرة جاذبيتها وعندئذ تنبّهت فيه كل عواطف الحب ووقع فى غرامها الواقعة الكبرى التى لم يسبق له مثلها . وأحس بأن هذا هو الحب الذى طالما تمرد على سلطانه حتى وقع أسيراً فى قبضته . فاستسلم وألقى سلاحه طائعاً مختاراً للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ حياته .

الفصل الثاني

جوزفين

ولدت جوزفين باحدى جزائر الهند الغربية النابعة لفرنسا في الثالث والعشرين من شهر يونيه سنة ١٧٦٣ (فهي أكبر من نابليون بنحو ست سنوات) وكان أبوها قبودان مينا سان بيير St Pierre في جزيرة المارتنيك . وبحكم نشأتها في تلك الجزيرة لم تتلق من التعليم الا المبادئ الأولية التي يسمح بها مثل هذا الوسط . غير ان الطبيعة عوضتها عما نقصها من مؤهلات العلم بما أسبغت عليها من المحاسن الساحرة التي جعلتها ملء عين الجميع حيث أقامت ولم تكد تبلغ الخامسة عشرة من عمرها حتى رحلت الى فرنسا . وسرعان ما التقطها هناك الفيكونت اسكندر بوهارنيه أحد أشراف فرنسا . فتزوجها وولدت له صيياً اسمه أوجين تم فتاة اسمها هورتنس ولم يمض على ذلك قليل حتى حصدت مقصلة الثورة رأس بوهارنيه فيما حصدت من رؤوس الأشراف اثناء عهد



الامبراطورة جوزفين

الارهاب (سنة ١٧٩٤) وأوشكت جوزفين أن تلحق بزوجها حيث قبض عليها وأودعت بسجن الكونسيرجى Conciergerie رهن الطلب ولكن حدث عند ذلك أن سقطت حكومة روبسبير وانتهى عهد الارهاب فانفتح طريق النجاة أمامها وأمام أمثالها ممن أوشكوا أن يكونوا ضحايا ذلك العهد

ومن عجيب ما يروى بهذه المناسبة أن زنجية من اهل المارتنيك تنبأت لجوزفين وهى بعد فتاة فيها بأنها ستتزوج ولكن زوجها الأول سيموت عنها ويتركها فريسة فى يد الدهر يعبس لها حقبة من الزمن ثم يعود فيبسم لها ويرتفع شأنها حتى تصير من ربات العروش والتيجان فكانت هذه النبوءة مما خفف عنها آلام سجنها حيث كانت تمنى نفسها بنصف النبوءة الثانى بعد أن تحقق فيها نصفها الاول . ولقد بالغت جوزفين فى حسن ظنها بكلام الزنجية العجوز الى حد انها وعدت صاحباتها فى السجن بأنها ستتخذهن لنفسها وصيفات بعد أن تجلس على عرشها الموعود

ودار الزمان دورته ووصل الى نابليون أمر الدفاع عن المؤتمر كما مر بنا الكلام فى الفصول السابقة . وأنقذت الجمهورية على يديه بفضل ما بذله من الجهود فى تشتيت

الثائرين ونزع السلاح من أهل باريس عامة حتى لا يكون هناك خطر يتهدد الحكومة بعد تلك الثورة . وقد جمع رجاله فيما جمعه من الأسلحة سيف الفيكونت بوهارنيه الذى خدم الثورة فى بدء أيامه كقائد من قوادها . فجاءه بعد ذلك بأيام أوجين بوهارنيه يلتمس منه أن يرد اليه سيف أبيه وكان أوجين فى العاشرة من عمره وعليه من مخائل النجاة والوسامة ما فتح له قلب نابليون فتلطف له وحنأ عليه حنوا عظيما تأثر له قلب جوزفين لما عاد صبيها وقص عليها ما كان بينه وبين نابليون . ولقد بلغ من تأثر جوزفين أنها قامت فى اليوم التالى بزيارة هذا القائد الكريم الذى أحسن الى ولدها كل هذا الاحسان . وكانت جوزفين علاوة على ما وصفناها به من رقة الشمائل متفردة فى حسن الذوق بارعة فى آداب اللياقة وأصول المجاملات ووقعت زيارتها فى نفس نابليون أجمل وقع وأخذت محاسنها بمجامع قلبه حتى أنه لم يتمالك أن يعجل برد الزيارة لها فى منزلها طمعا فى الاستمتاع بحديثها ومجلسها مرة أخرى . واستقبلته جوزفين أحسن استقبال وأعربت له مرة أخرى عن حسن تقديرها لجميله ثم استرسلت فى حديثها تقص عليه من أبناء زوجها ما استأنس له نابليون

فذكرت له كيف كان (الكونت) المرحوم من أجمل رجال باريس وجهاً وأبرعهم رقصاً . وكيف أنه حظى بشرف مراقبة ماري أتتوانت نفسها أكثر من مرة وكيف أنها حرمت عشرة زوجها وهي في ميعة صباها . وكيف أن ولديها باتا يتيمن وهما بعد في سن طفولتهما . وطفق نابليون من ناحيته يقص عليها أيضاً تاريخه في كورسيكا . ويقابل بين حاله هو وأخوته بعد موت والدهم وبين حال أوجين وهورتنس . وأظهر عليهما من العطف ما كان كفيلاً بأن يكسبه هو عطف جوزفين . وهكذا انتهت هذه الزيارات العارضة بتلك النتائج الخطيرة التي فتحت أمام نابليون طريق غرام جديد ملك عليه حواسه وفتحت أمام جوزفين ذلك الطريق الذي تنبأت لها به زنجية المارتنيك . ومالبث أن انتهى بها الى العرش والتاج .

على أن جوزفين — وان تكن قد رحبت بنابليون في مبدأ الأمر كصديق — قد نرددت قليلاً قبل أن توافق على خطبته وترضى به كزوج . ولكنها أخيراً أمام تفاني نابليون وتحبيذ الأصدقاء وافقت على الزواج به فتم العقد في ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وكان نابليون قد عين قبل ذلك يومين اثنين

فقط قائدا للحملة الايطالية ليتولى بنفسه تنفيذ خطة كان قد وضع تصميمها قبل ذلك وقدمها الى لجنة الامور الحربية . ولقد كتب كثيرون عن نابليون وجوزفين فقالوا عنها إنها كانت خلية (باراس) وأن نابليون الطموح لم يكن يبغي من وراء الاتصال بها إلا أن ينال الخطوة عند رئيسه . وأيدوا كلامهم هذا بأن جوزفين لم تكن تحبه بدليل خيانتها له . وأن باراس لم يعينه قائدا لجيش إيطاليا إلا كراما لخاظرها بدليل أن التعيين لم يتم إلا بعد الاتفاق على الزواج . والحقيقة التي لا مرأ فيها أن باراس لم يكن يملك تعيين نابليون بمفرده في مثل هذا المركز وأن المديرين الخمسة أجمعوا على انتخابه لقيادة جيش ايطاليا بسبب ما تحققوه من أهليته وكفاءته . وأن باراس كان عشيق مدام تاليان صديقة جوزفين وليس عشيق جوزفين نفسها وأن جوزفين لم تكن تحب نابليون حقا في بادىء الأمر . ولكنها توسمت فيه الرجولة والذكاء ، الطموح . ورأت أن الميدان أمام مستقبله واسع فسيح . وكانت هي من الجانب الآخر أرملة تكفل يتيمين ولا ناصر لها ولا معين كما كانت لعوبا طروبا تميل الى الاسراف وحياة البذخ وتطمح الى الشهرة والظهور بينما

كانت مواردھا لا تسمح لها بتحقيق شيء من هذه الأمان العريضة فرأت في نابليون خير مطية تصل بها إلى هذه الغايات جميعها . فلم تتردد في التعلق به والتودد اليه حتى خبلته وملكته واستولت على أعتته .

أما نابليون فقد رأى في جوزفين أرملة شابة جذابة ما تزال تحمل لقب زوجها الشريف . وراقت في عينه كل مظاهرها . وحببه فيها ما كانت تتسم به كل حركاتها وإشاراتھا من سمات الأرستقراطية فبهره هذا السناء الجذاب وزاد حبه فيها ما أحس به من الحاجة في الاستناد بمظهره القمى إلى مثل مظهرها الوهاج المضى لتكون له المنزلة التي يبتغيها لنفسه في المجتمع . وكأنما كان يدخر في قلبه كل ما حال الفقر بينه وبين اظهاره من عواطف الشباب في أيامه الأولى فما كاد يجتمع له من جوزفين ذلك الجمال الفاتن وتوددها اليه ذلك التودد الساحر حتى عشقها عشقاً عظيماً يؤهله ولا شك لأن يقف في صف واحد مع أبطال الغرام في أساطير الأولين . وبحسبى أن أنقل لك هنا شيئاً من رسائله اليها لتحقيق بنفسك إن كان نابليون يحب باراس في شخصها كما يتقول عليه بعض المؤرخين أم يحبها لذاتها .

كتب اليها مرة على أثر سهرة قضائها معها :
« أنى أستيقظ ولا أرى أمامى غيرك . فأن صورتك
والسهرة المسكرة التى قضيناها أمس لم تبقياً لحواسى شيئاً من
الراحة . فما هذا التأثير الغريب الذى أحدثته فى قلبى يا جوزفين
يا عزيزة المثال ! إنى إذا رأيتك مكدره الصفاء أو حزينة
القلب أو قلقة الفكر تفطر فؤادى وفقدت الراحة . اعطنى
ألف قبلة ! لا بل امنعنيها عنى فأنها تحرق دمي فى عروقي ! »
على أن كتب نابليون اليها بعد الزواج كانت أفصح كثيراً
فى الدلالة على ما يكنه قلبه نحوها كما سترى فى السطور التالية
إذ قضت الظروف أن يسافر على رأس جيشه الصغير الى
ايطاليا بعد زواجه بأيام قلائل فلم يكدر يتجاوز الحدود حتى
كتب اليها يشكو ألم الفراق ويتوسل اليها بأن تكتب له كل
يوم رسالة طويلة . ولكن ردودها عليه كانت بطيئة ولا
يتجاوز الواحد منها ثلاثة أو أربعة أسطر . فما لبث نابليون
أن عدل طلباته ورجاها فى أن تسافر للحاق به فى ايطاليا غير
أن جوزفين لم تكن لتترك باريس وشبانها الطرفاء ومجالس
الأنس فيها لتدخل فى معسكر نابليون وتقيم معه فى خيامه
المتنقلة تحت ظلال الموت والهلاك . فمأطلته فى أول الأمر

ولكنه لم يكف عن مطالبتها بالحضور وأخيراً ألح عليها في وجوب السفر فوراً لأنه أصبح لا يطيق الصبر على فراقها وأوشك أن يفكر في التخلي عن جيشه في شمال إيطاليا ليعود اليها وعند ذلك أرسلت «سيدة النصر» كما كان يسميها أهل باريز بعد ما توارد اليهم من أخبار نابليون وانتصاراته في إيطاليا — تعتذر عن السفر بأنها مريضة تشكو آلام الحمل وانها لذلك تفضل البقاء في فرنسا . فأثار هذا العذر كل ما كان كامناً في نفس نابليون نحوها من حب وشوق وقلق وكتب اليها هذه الرسالة الفريدة :

« ... صارت حياتي كلها أحلاماً مخيفة . وصرت كأنى لست بين الأحياء . وفقدت ما هو أغلى من الحياة والسعادة وكاد اليأس يتولاني . . . اكتبى لى عشر صفحات فأن هذا هو الأمر الوحيد الذى يعزىنى بعض التعزية . . قلت أنك مريضة . وأنتك تحبينى . وأنتى أحزنتك . وأنتك حامل . فاذا أذنبت اليك ذنوباً عديدة لا أدرى كيف أكفر عنها فاغفرها لى واعذرني أينما الصديقة لأن حبك ذهب بعقلي فلست أجد الى التفكير سيلاً .

« إن ما بى من الداء لا يقبل الشفاء . وما عندى من

الأفكار السوداء بلغ حداً صرت أكتفى معه بأن أراك
فأضملك ساعتين الى قلبي ثم نموت معاً ألا خبريني من
يعتنى بك ؟ أظنك دعوت هورتنس إليك . . . إن حبي لهذه
الفتاة اللطيفة زاد الف ضعف منذ عرفت أنها تقدر على انزال
شيء من السلوان على قلبك . أما أنا فلا عزاء لي ولا راحة
ولا أمل قبل أن يردّ عليّ كتاب طويل منك أعرف منه ماهو
مرضك . فاذا كان من خطر عليك فأني أسرع إلى السفر
نحوك . . . أيتها الصديقة قولي لي أنك مقتنعة كل الاقتناع
بأن حبي لك يتجاوز ما يستطيع الفكر أن يتصوره . وبأنى
لا أفكر في امرأة غيرك وبأن كل النساء هن . في نظري
عاطلات من حلى اللطف والظرف والجمال والذكاء . وبأنك
أنت وحدك تعجبيننى وتروقين ناظري وبأن قواى وساعداى
ومداركى كلها لك وروحي مقيم فى جسمائك فاذا متّ متّ
أنا معك . . . أيتها الصديقة المعبودة أنا مريض لمرضك والحى
تتسعر فى جسمى فلا تدعى البريد يتأخر أكثر من ست
ساعات بل أعيديه إلى على عجل بكتاب من سيدتى ومولاتى .
ولم تكن جوزفين عند ماوصلتها هذه الرسالة تشكو اى
مرض ولكنها كانت على عادتها تلهو وتلعب وتفضن بروحها

المرح الطليق أن يستأثر به من دون الناس زوجها نابليون
فبقيت في باريس تنتحل الأعذار وبقى نابليون يرسل إليها
الكتاب تلو الكتاب حتى ضاقت به الحيل وأخيراً علمت
بأنه أرسل إلى باريس رسولا يحمل إليها الرايات والغنائم
التي غنمها من النمساويين . وعند ذلك خشيت ان يعود فيخبر
نابليون بحقيقة امرها في باريس فأسامت أمرها إلى الله
واعتزمت الرحيل .

البَابُ الثَّانِي

نابليون يضع أساس شهرته

الفصل الأول : فرنسا والتحالف الأول

» الثاني : الحملة الإيطالية

» الثالث : بين الحملتين

» الرابع : الحملة المصرية

الفصل الأول

فرنسا والتحالف الاول

لعلك لم تنس بعد أن انجلترا كانت قد جمعت كثيرا من دول أوروبا في حلف لتقاوم الثورة الفرنسية وتحصرها داخل الحدود الفرنسية قبل أن تنتشر عدواها الى ما جاورها من البلاد فيختل النظام في أوروبا ويصيب حكوماتها ونظمها ما أصاب الحكومة الفرنسية ونظمها من الانهيار .

ولقد فوجئت فرنسا بهذا التحالف في أول الأمر فانهزمت جيوشها كما أسلفنا أمام الجيوش المتحالفة في كل مكان وأوشكت آمال أوروبا في القضاء على الثورة أن تتحقق ولكن الشعب الفرنسي ما لبث أن استرد كل حميته وثقته بنفسه . ووقف للحلفاء وقفه مشرقة ردتهم على أعقابهم ثم إنه اتخذ لنفسه خطة الهجوم بعد خطة الدفاع فطارد هؤلاء الحلفاء الى قلب أوروبا وأعلن عن عزمه في استرداد حدود الغال القديمة وهي التي تجعل فرنسا تمتد من خليج بسكاي

غربا الى نهر الرين وجبال الألب شرقا . ونجحت فرنسا فعلا في الوصول — أولا — الى نهر الرين حيث وضعت يدها على بلجيكا وهولندا وثانيا — في بلوغ جبال الألب حيث استولت على سافوا ونيس .

وبعد أن كانت إنجلترا تثير الرأى العام في أوروبا لتدرا الخطر قبل وقوعه . أصبحت بعد وقوع الخطر بالفعل تسعى لاعادة الحال الى ما كانت عليه . وإجلاء فرنسا عن البلاد التى استولت عليها لا سيما مصبات نهر الرين و ثغر انفرس نظرا لما لها من الأهمية التجارية عند إنجلترا مما يجعلها تستهين بالحرب عشرين سنة عن أن ترى هذه الاصقاع تحت سيادة منافسة قوية لها كفرنسا .

بيد أن هذا التحالف — على رغم كونه حيويا بالنسبة لانجلترا — تفكك إذ انسحبت منه بروسيا سنة ١٧٩٥ . وتبعتها كافة الولايات الألمانية ثم أسبانيا . أما الروسيا فشغلها مصالحها في بولندا عن شئون أوروبا الغربية . فلم يبق من الدول المكونة للتحالف إلا النمسا و انجلترا .

ولقد شاهدنا ما كان يحمل إنجلترا على الاستمرار في العمل ضد فرنسا أما النمسا فكان الدافع لها على البقاء إلى

جانب انجلترا من دون الدول الأخرى ما كان لها من
الثرات عند الفرنسيين وذلك بسبب ما يأتى :

أولاً — قتل رجال الثورة مارى اتوانت وهى عمة
امبراطور النمسا فرنسيس الثانى

ثانياً — استيلاء الفرنسيين على نيس وسافوا واعتداؤهم
بذلك على سلطة النمسا فى إيطاليا .

ثالثاً — اعتداؤهم كذلك على نفوذها فى ألمانيا باستيلائهم
على بعض الجهات الواقعة غرب نهر الرين .

وقد وضعنا فى الفصول السابقة (١١) أن انجلترا اكتفت
بحصر شواطئ فرنسا . وتركت للنمسا منازلة الفرنسيين فى
البر حيث لا قبل لها هى بالاشتباك معهم فى قتال .

(١) راجع فصلى التحالف الدولى الاول — ونايليون والتحالف الاول
من الباب الثالث من الكتاب الاول

الفصل الثاني

الحملة الإيطالية

لما رأت النمسا أنها أصبحت وحدها من دون الدول الأوربية كافة في وجه فرنسا رسمت خطتها كما بسطناها في بعض الفصول السابقة (نابليون والتحالف الأول) وعولت على غزو فرنسا من جهة الشرق بمساعدة مملكة سردينيا (بيدمنت) وحشدت جيوشها فعلا على الحدود ولكن كان ما كان من توجيه الحكومة لنابليون الى تلك المنطقة وتحويله خطة الجيوش الفرنسية من الدفاع إلى الهجوم . وانتصاره بذلك على جيوش سردينيا ثم استيلائه على كافة الممرات التي توصل بين شمال إيطاليا وفرنسا ورأت حكومة الادارة بعد ذلك أن تنازل النمسا بلا هوادة . فأعدت لذلك حملتين حملة رئيسية كانت خطتها أن تسير شرقا وتعبر الحدود الى النمسا لتلاقي جيوشها التي كانت تحت قيادة الأرشيدوق شارل . وحملة فرعية كان المقصود منها أن تدخل الى شمال ايطاليا لتقوم بمشاقبة النمسا من

الجنوب وتكون سببا في توزيع قواتها حتى يتمكن جيش الشمال من التغلب على الأرشيدوق شارل والوصول الى فينا
خطة الحملة .

وكان نابليون قد تقدم منذ زمان إلى حكومة فرنسا بخطة حرية لاكتساح شمال ايطاليا . فعرضتها الحكومة على القائد العام لقوات الجنوب كي يبدى رأيه فيها . فما كاد يطلع عليها حتى أعادها في استنكار وتهكم قائلا : [إن الذى وضع هذه الخطة رجل مجنون . ومن توحى اليه شياطينه بخطة مثلها فليأت هنا لتنفيذها] ولكن كارنو — رئيس اللجنة الحربية — لم تخف عليه قيمة هذه الخطة وانتهى الأمر بأن عهدت حكومة الادارة الى نابليون بونابرت بتنفيذها

استعداد نابليون :

وكان نابليون يعلم أنه سيلاقى في شمال إيطاليا جيشين . أحدهما جيش النمسا والآخر جيش حليفتها سردينيا . وكان يعلم أيضا ما كانت عليه الجيوش النمساوية من الاستعداد لهذه الحرب . وكانت قد وصلت الى سمعه كذلك تهديدات النمسا وتوعد قوادها العتاة بأنهم سيجعلون إيطاليا مقبرة

الفرنسيين . . وكان هو في الوقت نفسه شاباً هزيلاً صغير السن . ولم يكن له في الجندية نسب عريق يشفع له في تولي الرياسة على أمثال أوجيرو Augereau ومسينا Massena وبرتييه Berthier وكلهم من رجال الحرب الذين مارسوها ونشأوا في حرجها . وركبوا أهوالها أيام كان هو لا يزال صبياً يلهو بمدفعه النحاسي في جزيرة كورسيكا . ولقد برم هؤلاء الأبطال بحكومتهم فعلاً حين رأوها تولى عليهم مثل نابليون وأضروا له السوء في نفوسهم حسداً له وحقداً عليه . ولم يكن يخفى على نابليون شيء من كل ذلك ولكنه كان شديد الثقة بنفسه وبهمته وكان يحس بأن غيره قد يفوقه في كبر السن ووفرة التجارب وضخامة الجثة ولكنه كان يحس أيضاً بأن له روحاً قوياً فذا لم تودعه الطبيعة في أضخم الجثث ولم يخلعها الزمن على أكبر المعمرين . وإن هذا الروح كفيل بأن يخضع لسلطانه أشد الناس غروراً بنفسه وأكثرهم اعتزازاً بمظهره . وقد يكون من المستحسن أن أنقل هنا ما يرويهِ الأستاذ جوستاف لوبون عن أول لقاء وقع بين نابليون وقواده عند استلامه مقاليد جيش إيطاليا ليتبين منه القارىء كيف أخذ نابليون بزمام هؤلاء الرجال من أول مقابلة

وكيف سلس قياد أجسامهم الضخمة تحت نفوذ روحه الكبير.
« جاء قواد الفرق إلى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من
هذا الرجل حديث النعمة . وكان بينهم اللواء (أوجيرو)
وهو جندي عظيم الجثة غليظ الطبع مختال بطول نجاهه نفور
بشجاعته . وكان تمتعاً يسب بالشتائم على نابليون من يوم
أن سمع به وعرف أوصافه فسماه (صنيعة باراس) — (ولواء
الشارع) ونعته بالدب لأنه كان مكتنز الجسم قليلاً ميالاً إلى
العزلة والتفكير . فلما اكتملوا أدخلوهم غرفة الاستقبال .
فأبطأ نابليون في الخروج إليهم وبعد زمن طلع عليهم متقلداً
سيفه ثم اتشح بردائه وأفضى إليهم بتعليماته وأنفذ إليهم
أوامره وأشار إليهم بالانصراف . أما أوجيرو فقد تولاها
الصمت ولم يرجع إلى نفسه إلا بعد أن خرج فجعل يسب كما
كان يشتم من قبل ولكنه أقر مع زميله (مسينا) أن هذا
القائد الصغير أوقع الرعب في قلبه وأنه حار في التأثير الذي
أخذه به أول ما وقع بصره عليه » (١).

أما القوة الفرنسية التي أسندت قيادتها إلى نابليون
فكانت لا تشرف الدولة التي جردتها . إذ كانت رثة الثياب

(١) رجعة فتحي رعلول لكتاب جوستاف لويون « روح الاجتماع »

هائلة الغذاء معطلة الاجور وعلى الرغم من كل هذه المساوى كان نابليون مغتبطاً بها لأنها كانت مؤلفة من شبان متحمسين يلقون العدو بأرواحهم لا بأجسامهم ويسرون للقتال سير المجاهد الذى يحارب فى سبيل عقيدته ليدفع عنها كيد الكائدين وينشرها بين العالمين .

سير القتال :

ولقد تجلت براعة نابليون فى فن القيادة والزعامة حين أشرف بهذه القوة على سهول إيطاليا الخصية وألقى على رجالها الخطاب التالى الذى لمست كلماته أوتار آمالهم ووقعت عليها أشهى الانعام :

« أيها الجند إنكم والله لجياع عراة . وأن الحكومة لمدينه لكم ولكنها لا تستطيع أن ترفع عنكم سوء حالكم وإن صبركم على ذلك وتجهدكم لن يجدياكم غير الشرف فلا كسب فيهما ولا نفع . وهاءنا أقودكم الى أخصب سهول العالم حيث المدن العظيمة والغنى الوفير . بل حيث تجدون الشرف والعزة ولذات الحياة ! فيا جنود جيش إيطاليا : أو تنقصكم فى ذلك الشجاعة ؟ »

ولقد كان لهذه الكلمات المثيرة أثرها فى نفس الجنود

فانهم انقضوا على الجيش المؤتلف ومزقوا وحدته . وتمكن
بفضل ضرباته السريعة المتتالية أن يفصل السردانيين عن
حلفائهم النمساويين . فتراجعت جنود القائد النمساوى
(بوليو — Beaulieu) إلى الشرق وانسحبت جنود سردانيا
إلى الغرب وهذا عين ما كان يرمى إليه نابليون لأنه أراد أن
ينفرد بكل واحد من خصومه حتى يكيل له من الضربات ما
لا يجد منه مجيراً ولا ظهيراً . وما لا يرى معه مفرأ من
التسليم . ولما كان ميدان العمل مع النمساويين واسعاً فسيحاً
فانه اتجه أولاً إلى جيش حليفها سردانيا وتعقبه فى انسحابه
واتصر عليه فى أيام قلائل عدة انتصارات باهرة سارع
السردانيون على أثرها إلى طلب الهدنة منه فقبل مهادنتهم مع
أنه لو شاء لسحقهم سحقاً ولكنه فضل أن يترك وراءه وهو
يحارب النمسا أصدقاء يوالونه عن أن يخلف أعداء يأتمرون
به ويثورون عليه وهكذا فرغ نابليون من نصف مهمته .
وشرع فى تنفيذ النصف الثانى .

معركة لودى Lodi

وكانت خطته بعد ذلك أن يطارد النمساويين فى شمال

إيطاليا حتى يجلبهم عنها ثم يعبر جبال الألب شمالا لإنقاذ جيش فرنسا الرئيسي الذي يحارب الأرشيدوق شارل . وكان الجنرال بوليو النمسوى قد تراجع أمام نابليون حتى أتى مدينة لودى على نهر أدا Adda فعبّر النهر عندها وربط خلف الجسر لمنع جنود نابليون من عبوره ودخل الفرنسيون المدينة عند الغروب وكان أول ما عمله نابليون أن عقد مجلسا حريا لبحث الحالة ورسم خطة الهجوم فما من أحد من قواده الا وحذره من التفكير فى عبور الجسر مقررين أن عبوره من المجازفات التى لا يقدم عليها رجل رشيد . غير أن نابليون لم يكن يبالى بالمجازفات بل انه كان يتلصصها تلصصا لأنها مفترق الطرق بين ما يستطيع أن يعمل كل انسان وما لا يقدم عليه الا كل جبار عنيد . ولقد اعترض عليه أحد الضباط قائلا :

« إنه من المستحيل على أية قوة أن تعبر هذا الجسر الضيق وهى تواجه تلك النار المدمرة التى لا بد أن يقابلها بها العدو ! »

فالتفت اليه نابليون وأجابه بتلك الكلمة الماثورة التى تداولتها الأجيال من بعده « ماذا تقول ؟ مستحيل ؟ ! إن

هذه الكلمة ليست فرنسية !

على أن ضباطه ظلوا على أحجامهم فما كان منه الا أن تناول العلم بيده وتقدم فوق الجسر ثم صاح في جنوده قائلاً
« أيها الجند اتبعوا قائدكم ! »

فأذهلت هذه الجرأة رجاله وساروا من خلفه ونار الأعداء تحصدهم حصداً وهم يتساقطون عن يمينه وشماله وكأنه في وسطهم طلسم مسحور لا تصيبه النار ولا يعمل فيه البارود حتى وصل من وصل منهم أخيراً الى صفوف النمسيين وقتلوا رجال مدفعيتهم بحراهم وذلوا الطريق أمام زملائهم فعبروا الجسر آمنين .

ولقد كانت نجاة بابليون من مخالب الموت في هذه المعركة الحامية ذات أثر عظيم في مستقبله فانها ألقت في روعه أنه فوق يد الهلاك . وأن ملاكاً حارساً يحميه من كل خطر وثبت في وجدانه أن قوة خفية تعمل لرفعه فوق مستوى البشر . ولقد أشار نابليون نفسه إلى شيء من هذه الخواطر في كلمته المأثورة التي قال فيها

انى لم أشعر بقدرتى على أن أكون عاملاً من أفعال عوامل السياسة الا بعد أن عبرت قطرة لودى واجتزت

تلك المفازة الرهيبة . يومئذ طارت شرارة مطامعي والتهب
بها صدرى!..

مصار ماتوا .

ولم يبق بعد (لودى) أمام النمساويين إلا حصن ماتوا
فى أقصى الشرق من سهول ايطاليا فاحتموا فيه وهم يعلمون
أن المعركة التى ستقوم بينهم وبين نابليون حول هذا الحصن
ستكون معركة حاسمة فاصلة . فأما اخلاء لكل الولايات
الاطالية وفرار إلى النمسا . وإما استرداد لممتلكاتهم
الواسعة ونفوذهم الضائع فى تلك البلاد .

وأدركت حكومة النمسا خطورة الموقف ورأت ميدان
القتال ينتقل الى ايطاليا بعد أن كان مقدرا له أن يكون فى
الشمال فأسرفت فى ارسال النجديات لماننوا . ووقف نابليون
بجنوده القلائل يتلقى تلك الفيالق الجرارة التى كانت تبعث
بها النمسا لنجدة ماتوا . فلم يفلح جيش واحد منها فى
الاقتراب من أسوارها . وذلك بفضل ما أبداه نابليون من
الخفة المتناهية والنشاط المربك الذى خبل شيخوخة القواد
النمساويين وسخر من فنونهم العتيقة وحرر ألبابهم وملاً

قلوبهم ياسا منه حتى لقد صاح أحدهم ناقما متذمراً .
« هذا الشاب الأمرد كان ينبغي كسره مراراً وتكراراً
إذ من ذا الذى رأى قط مثل هذه (التكتيكات) . إن هذا
الغبي لا يعرف حرفاً واحداً من أصول الحرب . فبينما تراه
اليوم نى مؤخرتنا إذا به فى الغد إلى جانبنا وبعد غد أمامنا .
إن الاعتداء على قواعد الحرب الراسخة بهذه الصورة أمر
لا يطاق . »

وليس للقارىء أن يتوهم أن خفة نابليون ونشاطه كانا
يصلان به الى هذه الانتصارات الباهرة على محفة ناعمة لا
تعرف الأهوال والأخطار . فأن الجهود التى كان يقوم بها
هو وجنوده كانت أفدح من أن تطبقها غير طبيعته الجبارة
وأعظم من أن يوحى بها غير روحه العاتى . ولقد كان
خصومه من أمهر قواد أوروبا فى ذلك العصر وأشدّهم مراسا
وكانت الحرب سجّالا بينهم وبين نابليون . ولقد تفهقرت
أمامهم الجنود الفرنسية غير مرة . بل لقد قتل تحت نابليون
فى احدى المعارك ثلاثة جياد . وأوشك هو مرة على الغرق
فى الهر تحت ضغط النمساويين له ولجنوده على جسر أركولا
عند حصاره لمدينة (منتوا) . ولم ينج من الهلاك إلا

بأعجوبة ولكنه كان في كل مرة يستعيد قواه بسرعة البرق
الخاطف . ويفاجئ العدو وهو ما يزال في غمرات المعركة
بين مسترخ يلمس الراحة من وعثاء القتال ومستنيم يحلم
بالنصر القريب فيوقع الهزيمة في صفوفهم على غير انتظار
ويضطرهم الى التسليم .

وهكذا تمكن نابليون أخيراً من دخول مانتوا وتراجع
النمساويون الى التبرول . وأصبحت إيطاليا الشمالية كلها
تحت أقدام الفرنسيين .

نجاح الحملة :

وكان نابليون كلما فتح اقليماً إيطالياً جال بيده في حواشيه
وجمع منه الغنائم الكثيرة واستولى على تحفه وطره وأرسل
بها جميعاً الى حكومة الإدارة فامتلات خزائن باريس الخاوية
وازدانت متاحفها العاطلة وتجاوزت الحكومة تحت تأثير
هذه الهدايا عن استقلال نابليون بالتصرف في إيطاليا دون
الرجوع اليها والاتفاق معها سافاً على ما يبرم من الأمور .
ولقد كان ذلك من حسن حظ فرنسا نفسها إذ لا يخفى ما
كان بين رجال الثورة الفرنسية وبين رجال الكنيسة من

العداوة . ولو أن قائداً غير نابليون كان يقود الحملة الإيطالية لما منعه من دخول روما واذلال البابا فيها أى مانع ولكن نابليون يبعد نظره أبى أن يثير على فرنسا وعلى نفسه العالم الكاثوليكي بالتعرض للبابا وشعر بحاجته الى تسب عطف الدول المسيحية . فسعى الاتفاق مع البابا فى معاهدة ودية اكتفى فيها بأخف المغام . وضمن بها صداقته ورضاه . وكان هذا الانتصار السلى الذى أحرزه نابليون أبعد أثرا فى مستقبله من انتصاره فى الستين معركة التى عقد له لواء الفوز فيها على النمساويين فى هذه الحملة .

ويطول بنا الحديث اذا نحن فصلنا كل ما قام به نابليون فى إيطاليا من الأعمال الجليلة قبل أن يرحل عنها الى النمسا للقضاء على الارشيدوق شارل . ولكننا نكتفى بتسجيل تنظيمه للأصقاع التى استولى عليها فى شمال إيطاليا وتقسيمها الى قسمين أقام فى كل واحد منهما جمهورية على نسق الجمهورية الفرنسية . ولقد قام نابليون بكل هذه الأعمال فى إيطاليا فى مدة لا تكاد تتجاوز العشرة الشهور واستطاع بنحو ستة وثلاثين ألفا من الفرنسيين أن ينتصر فى أكثر من ستين موقعة على نحو ٢٥٠ ألف رجل منهم ٢٠٠ ألف تقريبا من النمساويين .

وكانت تتواتر أخبار هذه الانتصارات على فرنسا فتقوم لها البلاد وتقعده ويشتد شوقها الى ذلك اليوم الذى يعود اليها فيه قاتدها الصغير لتقوم بما يجب عليها نحوه من التكريم والتعظيم . ولكن النمسا حالت دون هذه العودة السريعة بأصرارها على الاستمرار فى الحرب . فعقد نابليون نيته على ان يزحف على فيينا نفسها ليصل الى الصلح الذى كان يسعى اليه هو وفرنسا وتأباه عليه النمسا . وتساعدها انجلترا على عدم تحقيقه .

نابليون والبنرقية .

ورأى نابليون قبل مغادرة ايطاليا أن يطمئن على فتوحه فيها فعرض على جمهورية البندقية أن تدخر معه فى حلف فرفضت فأرسل يحتم عليها أن تكون على الحياد قائلاً :
« لتبق جمهورية البندقية إذن على الحياد . ولتذكر أنها اذا أخلت بشروط حيادها وتعرضت لجنودى ومواصلات جيشى فان انتقامى سيكون ذريعاً . انى أسير الآن الى فيينا والساعة التى تجترى فيها البندقية على خيائتى هى الساعة التى أمحو فيها استقلالها من الوجود . »

نابليون والنمسا .

ثم انه ترك نحو عشرة آلاف من جنوده في ايطاليا وصعد بالباقيين جبال الالب الشاهقة في عاصفة مطيرة ضاعفت من وعورة الطريق . ولكن نابليون كعادته استخدم نفس هذه العوائق في تحقيق خطته فانه فاجأ النمساويين بجيشه وهم لا يحملون بإمكان اقتراب الفرنسيين منهم بكل هذه السرعة . وفي مثل هذه الظروف . وأوقع في صفوفهم الهزيمة بعد الهزيمة حتى قاربوا مدينة فيينا وهناك بعث نابليون بالكتاب الثاني الى غريمه الارشيدوق شارل :

« أيها القائد العام

أن الجنود الشجعان يحاربون وهم راغبون في الصلح . وهذه الحرب قد دارت رحاها ست سنوات . أفلم يكف ما قتلنا من إخواننا في الإنسانية ؟ أولم ترزح هذه الإنسانية تحت ما سخرنا عليها من الويلات ؟ إنها لتلمس الراحة في جميع نواحيها ! وها هي أوروبا التي رفعت سلاحها في وجه الجمهورية الفرنسية قد ألفت في آخر الأمر هذا السلاح ولم

يبقى على العداء معنا إلا النمسا ! وهذه الدماء توشك أن تفيض
بأغزر مما جرت في الماضي . وأن هذه الحرب مهما كانت
نتيجتها فإنها لن تنتهى إلا بقتل الألوف من كلا الجانبين . ثم
هى لا بد أن تنتهى على كل حال . فأن لكل شىء غاية حتى
عاطفة العداء . وأنت أيها القائد العظيم بحكم مولدك لا بد أن
تكون فوق تلك العواطف التى تتحكم فى الوزراء والحكومات
فهل وطنت العزم على أن تستحق لقب « مخلص النمسا »
« وصاحب الفضل على الإنسانية » ؟ أنى لا أرجو ذلك ! أما
عن نفسى فأن هذه الدعوة التى لى شرف القيام بها إذا كانت
سبباً فى إنقاذ روح واحد من المموت فأنى أنخر بمجدها أكثر
من فخري بتيجان المجد الكئيبة التى يمكن أن يضعها النصر
فوق رأسى !

على أن الأرشيدوق شارل لم يحدد ما يرد به على هذه
الدعوة السامية إلا أن قال :

« إن الواجب الذى ألقى علىّ فى هذه الحرب لا يخولنى
البحث فى أسبابها ولا تحديد مداها . ولذلك لا أراى قادراً
على الدخول معك فى أية مفاوضات للصلح ! »
وليس يخفى على القارىء ذلك البون الشاسع المتجلى بين

روح هاتين الرسالتين فينما تقررع الأذن نغيات السيطرة التي ترن في كل لفظ من كلمات نابليون يلح الإنسان بين سطور الأرشيدوق شارل كل تلك الأغلال التي يمكن أن يرسف فيها تابع مسخر . وعلى قدر ما أبدى نابليون من السماح في دعوته النمسا إلى الصلح وهو الظافر المنتصر على قدر ما أبدت النمسا من العناد في رفضها لهذه الدعوة وجيوش العدو قاب قوسين من عاصمتها أو أدنى .

وكانت مدافع نابليون أول من تكلم بعد حبوط هذه المفاوضات . فاكتمست قذائفها جيوش الأرشيدوق شارل اكتساحا . ولم تمض أيام حتى كان أمراء النمسا وأقيالها وعلى رأسهم الإمبراطور يفرون من فيينا كقطعان الغزال . فأسرع الأرشيدوق شارل إلى رفع علم الهدنة طالبا من نابليون أن يوقف القتال أربعاً وعشرين ساعة وكان نابليون قد بلغ مدينة ليوبن Leoben على بعد نحو ١٠٠ ميل من فيينا . فلم يشأ أن ينخدع بهذا العلم وقال إنه يرى أن الوقت تمين جداً وأنه لا بأس من أن تجرى المفاوضات التي ترغب النمسا فيها مع بقاء الحرب مستمرة . ولكن الإمبراطور أرسل إليه سفراءه يلتمسون منه وقف الحرب مدة خمسة أيام ريثما تجرى

المفاوضات على شروط الصلح . فلما رأى نابليون جدية الدعوة أجاب طلب الإمبراطور . و انتهت المفاوضات الأولى في أبريل سنة ١٧٩٧ . ورجع نابليون إلى إيطاليا ريثما يتم الاتفاق النهائي على شروط الصلح .

معاهدة كامبوفورميو Campo Formio

وبينما كان نابليون يجاهد هذا الجهاد في النمسا قام أهالي البندقية بثورة أوقعوا فيها بجنوده الذين تركهم وراءهم في إيطاليا فما كان منه بعد عودته إلا أن دخلها بجيشه عنوة . واستولى على ما في خزائنها ومتاحفها من غنائم وبعث به الى فرنسا وجرت بعد ذلك المفاوضات النهائية لعقد الصلح الذي تم في معاهدة كامبوفورميو وفيما يلي بيان ما كسبته فرنسا على يد نابليون في هذه المعاهدة :

أولا : اعترف امبراطور النمسا بأن يكون نهر الرين حد فرنسا الشرقي .

ثانيا : تنازل لها عن بلجيكا .

ثالثا : اعترف بإنشاء جمهورية شمال إيطاليا (الخاضعة لنفوذ فرنسا) .

رابعاً: تنازل عن دوقية ميلانو ولبارديا لهذه الجمهورية-
خامساً: استولت فرنسا على جزائر أيونيان Ionian
(التابعة للبندقية) في البحر الأبيض المتوسط
فقوى بذلك مركزها البحري .

أما ثمن هذه الشروط فقد جعله نابليون ضم البندقية
نفسها إلى النمسا . وبذلك أصاب العصفورين بحجر واحد —
كما يقولون — فإنه كفل بهذا الضم موافقة الامبراطورية على
التنازل عن بلجيكا وغيرها من الأصقاع التي كسبتها فرنسا .
وفي الوقت نفسه اتتقم لجنوده الذين ضاعوا في ثورة البندقية
بسبب عدم رعايتها للحيدة التي رسمها لها في إنذاره .

ولقد أثبت نابليون بهذه المعاهدة أنه لا يقل دهاء عن
أدهى ساسة أوربا في ذلك العهد كما أثبت في خلال الحرب
أنه لا يقل في قدرته الحرية عن أقدر جنود أوربا .

ولقد كانت هذه الحملة الايطالية الأساس الحقيقي لعظمة
نابليون فانه صادف فيها نجاحاً باهراً على طول الخط ونبهته
حوادثها الى ما يمكن ان يصل اليه في مستقبل ايامه وافسحت
الطريق امام مطامعه الواسعة ولاقي بسببها من التكريم
والتعظيم ما رفعه فوق مستوى البشر حتى لقد ذكر أيامها

وهو في منفاه بكلمته المؤثرة المشهورة .
« ربما كان أسعد أوقاتي أيام فزت بالنصر في ايطاليا ..
هنالك كانت الجموع لاهجة بذكري متحمسة . هنالك كانوا
يصيحون من اعماق قلوبهم « ألا فليحي محرر ايطاليا » — كل
ذلك وانا قتي لم أعد الخامسة والعشرين من العمر ! منذ تلك
البرهة تمثل لنفسى ما صرت اليه في مستقبل الأيام . رأيت
العالم جميعه يمر من تحتى كأنما قد ولدت فى الهواء ! »

الفصل الثالث

بين الحملتين

رأينا قبل أن نتكلم في الفصل التالى عن الحملة المصرية أن نقف قليلا لننظر فى آثار الحملة الايطالية وما أنتجته من النتائج الخطيرة.

(١) مصر البندقية .

ولا شك ان اول هذه النتائج هو تقلص نفوذ النمسا عن ايطاليا الشمالية بعد ان ظل عليها ذو النسر الأسود يرفرف على ربوعها اجيالا طويلة متعاقبة . ولكننا بينما نرى هذا العلم ينطوى فى غرب ايطاليا إذا بنا نرى نابليون ينشره فى شرقها فى ربوع البندقية .

ولقد كان اعتداء نابليون على استقلال هذه الجمهورية موضعاً لأقسى الهجمات وأعنف الحملات من اقلام بعض المؤرخين حتى لقد وصفه بعضهم فى هذه المناسبة « ببعده عن الانسانية »

وقد يكون من المفيد ان نقف هنا قليلا لنحلل هذا العمل الذى عمله نابليون فى البندقية كى نستطيع ان نقدر قيمة هذه الحملات .

ويذكر القارىء مما اسلفنا فى الفصل السابق ان نابليون قد عرض على البندقية ان تحالفه فرفضت ان تمد يدها اليه . فطلب اليها لزوم الحيدة وأنذرها بتعريض استقلالها للضياع إذا هى لم ترع هذا الطلب فها هو ان رحل عنها حتى قام اهلها ثورة كان يقبل فيها جنوده الجرحى وهم على فراشهم فى المستشفيات .

فهذه الفتنة التى طعنت بها البندقية نابليون فى ظهره هى التى استحققت من اجلها فى نظره ان تمحى من خريطة اوربا فقام بعض المؤرخين يصفونه بسبب هذا العمل « ببعده عن الانسانية » بينما لم ير غيرهم فيه الا مثالا مما جرى عليه باقى الدول فى كل عصور التاريخ .

(٢) انشاء جمهورية شمال إيطاليا .

وهناك حادث آخر ربما كان أبعد أثراً فى نتائجه من حادث الاعتداء على استقلال البندقية . وذلك هو ضم

مقاطعة لمبارديا إلى جهات ما وراء الپو Po إلى بعض أقسام صغيرة من البندقية ومن سويسرا لتكوين جمهورية واحدة مستقلة عن النمسا . وتكون على شاكلة الجمهورية الفرنسية في نظامها (حكومة إدارة ومجلسين) عملاً بمبدأ الثورة الفرنسية الذى قامت من أجله جيوشها تحارب الدول المجاورة . وهو نشر مبادئ الحرية والديمقراطية وانقاذ الشعوب الضعيفة من أيدي حكامها المستبدين .

على ان القيمة التاريخية العظمى لهذا العمل الذى قام به نابليون هي انه وضع بتكوينه لهذه الجمهورية الصغيرة نواة ايطاليا المتحدة (١) التى اصبحت فى العصور الحديثة احدى القوى الأوربية التى تشترك مع زميلاتها فى تقرير سياسة العالم .

(٣) القضاء على الرممية فى فرنسا

وهناك حادث ثالث تحسن الإشارة اليه فى هذا المقام وقد حدث قبل التوقيع على معاهدة الصلح فى كامبو فورميو بشهر واحد ونابليون ما يزال فى قصر مبلو Mombello الأنيق فى

(١) لم تكن ايطاليا فى العصور السالفة الا مجموعة إمارات مستقلة لا تربط بعضها ببعض أى رباط سياسى

ضواحي ميلان يعيش عيشة الملوك العظام ويسنبل الوفود
والسفراء ويستمع إلى قصائد المديح والأناشيد التي سماع
الشعراء فيها — بطل الزمان — ومشيد أركان السلام —
وهانيبال الجديد — ورسول الانسانية . . . وذلك أن حل
موعد الانتخابات في فرنسا لتجديد فريق من رجال الهيئة
التشريعية فاذا بنابليون يرى أن الغالية في هذا الفريق قد
انتخبوا من (اللاجهوريين) أنصار الملكية القديمة وكان
نجاح هذا الحزب معناه القضاء على نابليون وآماله فان عودة
البوربون إلى عرش فرنسا لا يدع مجالا يعمل فيه أمثال
نابليون من ربائب الثورة . ولذلك عول على القضاء على هذه
الحركة فأعد منشورات باسم الجيش وبعث بها إلى باريس
وكانت كلها احتجاجاً على أن يضحى نابليون وجنوده
بأرواحهم في سبيل اعلاء كلمة فرنسا في أوربا حتى إذا عادوا
إلى وطنهم ظافرين كان جزاؤهم أن تتلقاهم الحكومة بالخناجر!
وأرسل أوجيرو بفرقة إلى باريس لنجدة الحكومة القديمة
وتطهير المجلس من الأعضاء الرجعيين الذين تسربوا إليه
وقد نجح أوجيرو في ارباب تلك العناصر الرجعية ومطاردتهم
وبذلك زال الخطر وتعزز مركز « الديركتوار » . ولكن

هذا الحادث جاء سابقة أخرى لاستعانة الحكومة بالجيش
فى تثبيت أقدامها . وقد كان لهذه السوابق قيمتها فى تمهيد
الطريق أمام الدكتاتورية الحربية التى وصل بها نابليون فيما
بعد إلى أسمى المراكز .

عودة نابليون إلى باريس :

وأخيراً وصل نابليون بنفسه إلى فرنسا ودخل باريس
فى السابع من شهر ديسمبر سنة ١٧٩٧ . وكانت المدينة كلها
تتحرق شوقاً لاستقبال هذا البطل الصغير الذى فاقت أعماله
قصص الخيال . أما هو فدخل متنكراً ونزل فى دار أعدها
لإقامته فى شارع شاترين « Chantierne » فما بلغ المجلس
البلدى هذا الخبر حتى أمر بأن يدعى ذلك الشارع شارع
النصر تكريماً لنابليون وتخليداً لذكرى فتوحه . وحددت
حكومة الديركتوار يوم ١٠ ديسمبر لاستقباله استقبالا رسمياً
فى قصر اللوكسمبرج واستلام شروط الصلح التى وفعتها النمسا
فأعدت القاعة العظمى لإقامة هذه الحفلة وزينت أحسن
زينة . وفى الساعة المعينة أقبل أعضاء الحكومة والوزراء

والسفراء والحكام واعضاء المجلسين واستوى كل فريق على مقاعده ثم دخل قائدان يحملان رايتين كتبت عليهما أسماء السبع والستين معركة التي دارت في إيطاليا وألمانيا وعقد النصر فيها كلها لنابليون وأخيراً وصل الجنرال پونابرت نفسه ومعه تاليران فقدم الجنرال للحاضرين بكلمات فخمة أنيقة تناسب المقام الذي أعدت له ثم جلس وقام پونابرت ليلقي كلمته فخفت الأصوات وأرهفت الآذان وثبتت الأحداق على ذلك الهيكل الضئيل في ملابسه العادية البسيطة . وقد وقف كأنه تمثال من الرخام في هدوئه وتمالكه لبرات صوته حين وجه الكلام للحاضرين قائلاً :

« أيها المواطنون :

إن رغبة الشعب الفرنسي في أن يعيش حراً حملته على محاربة الملوك . وإن رغبته في الحصول على دستور يستند إلى أصول العقل حملته على مغالبة المبادئ السقيمة التي ظلت تحكم العالم ثمانية عشر قرناً من الزمان أما الآن فستتخذ هذه اللحظة التي صدقم فيها على هذا الصلح تاريخاً يوقت به عهد الحكومات الدستورية النيابية . . . وهاءنا أتسرف بتقديم المعاهدة التي وهبنا عايلها في كامبو فورميو واعتمدها

الامبراطور وهى معاهدة تكفل للجمهورية حريتها ورخاءها
ومجدها...» .

ولم يكذ يتم نابليون كلماته حتى انطلقت تلك الانفاس
المحتبسة المعلقة وتحركت تلك الأطراف الجامدة المتشنجة
ودوى المكان بالهتاف الحار ، لفاتح إيطاليا ، ومعيد السلام
إلى أوروبا ، « ومنقذ فرنسا » وعند ذلك قام (باراس) بالنيابة
عن المديرين وألقى الكلمة الآتية :
« أيها السادة ..

لقد أجهدت الطبيعة نفسها فى خلق پوبارت . — ثم
أدار رأسه إلى نابليون وقال اذهب أيها القائد وتوج أعمالك
الباهرة بفتح جديد تدعوك إليه أمتنا العظيمة كي تثار فيه
لشرفها المعتدى عليه . اذهب إلى لندن وألّهب ظهر وزرائها
بسوطك واجعلهم أمثولة يزدجر بها كل من تحدثه نفسه
بالنيل من هذا الشعب الحر . إن اليوم الذى يخفق فيه علم
الثورة على شواطئ التاميز الدامية هو اليوم الذى تتلصق فيه
هذه الأمة الكريمة هاتفة بحق . « ليحي محرر فرنسا » — .
وفى وسط هذه النشوة التى مالت برءوس الجميع دقت
المه سيقى لحن الحفلة الختامى وانفرط عقد هذا الاجتماع

التاريخي ولا حديث للناس إلا نابليون وأعماله وقد ظلت
المدينة تقيم له الزينات والحفلات أياماً وليالي وهو مصر
على عزله كأنما يعد نفسه لذلك العرش العالى الذى تبوأه
بعد قليل فوق رأس الجميع .

وليس أدل من النادرة الآتية على اتزان نابليون ورجاحة
عقله ووقوفه على حقيقة طبائع الجماهير وعدم انسياقه مع
تياراتها اذ قال له صديقه بوزين والأفراح على أروع ما تكون
عند ما كان هو فى طريقه إلى توقيع معاهدة الصلح فى إيطاليا .
« لا بد أن يكون من المطرب حقاً أن يقابل الانسان
بكل هذه الحماسة وهذا الإعجاب ! » .

فما كان من نابليون إلا أن أجاب : « وحقك يا صاحبي
إن هذا الجمهور الغر إذا ما طرأ على الظروف أقل تغيير
ليشيعنى بنفس هذه الحماسة إلى آلة الاعدام ! »

الفصل الرابع

الحملة المصرية

- | | | | |
|------|------------------------|------|--------------------------|
| ١ — | العدوة الأولى والأخيرة | ٢ — | أسباب الحملة |
| ٣ — | معدات الحملة | ٤ — | حالة مصر |
| ٥ — | فتح الاسكندرية | ٦ — | الحالة في القاهرة |
| ٧ — | معركة الرحمانية | ٨ — | معركة الاهرام |
| ٩ — | دخول القاهرة | ١٠ — | اصلاحات نابليون |
| ١١ — | معركة أبي قير البحرية | ١٢ — | ثورة القاهرة |
| ١٣ — | الحملة السورية | ١٤ — | حصار عكا |
| ١٥ — | الانسحاب | ١٦ — | نابليون في ميزان التاريخ |
| ١٧ — | حالة الفرنسيين في مصر | ١٨ — | معركة أبي قير البرية |
| ١٩ — | معدات العودة الى فرنسا | ٢٠ — | مخافة نارعة |
| ٢١ — | نتائج الحملة | | |

(١) العدوة الاولى والاخيرة .

كان من مظاهر التقدير التي قوبل بها نابليون في فرنسا بعد عودته من ايطاليا أن عرضت عليه (أكاديمية) باريس مقعداً من مقاعدها الخالدة . فقبله نابليون مع السرور العظيم وبعث الى الاكاديمية بالرسالة الآتية :

« إن القرار الذى قرره رجال المجمع النابهين ليشرقى .
وأنى لأحس بأنى قبل أن أتمكن من الوقوف معهم فى موقف
الزمالة ينبغى على أن أبقى زمناً طويلاً تليذاً لهم . وأن النصر
الحقيقى الذى لا يعقبه أسف ولا ندم هو ذلك النصر الذى
يحرزه العلم على الجهل . وأن أنبل وأنفع ما تسعى له الأمم
هو سعيها فيما تتسع به مملكة الذهن البشرى وأن عظمة فرنسا
الحقيقية يجب أن يقوم بناؤها من الآن على حيازة سائر
كنوز العلم التى وضع العقل البشرى يده عليها . وعلى عدم
السماح لأية فكرة علمية جديدة أن تنبت بغرس أيد غير
أيدي الفرنسيين . »

ومنذ ذلك اليوم حلا لنابليون أن يخلع عن أكتافه
كسوته العسكرية مؤقتاً ويرمى بنفسه فى بحر هذا المجمع العلمى
يحضر جلساته بنظام ويشترك فى بحوثه ويطلق العنان لذهنه
الوثاب يسرح ويمرح فى ميادينه الفسيحة .

وكانت الجمهورية الفرنسية فى تلك الفترة على وفاق مع
كافة الدول الأوروبية ما خلا حكومة إنجلترا فانها طلت على
عدائها لفرنسا بحكم جوارها لها وخشيتها من تسرب مبادئها
الثورية اليها . ولم تأل جهداً فى إثارة الخواطر عليها وفى تسخير

أسطولها لمناوأة تجارتها مما جعل فرنسا تعود إلى حمل
سلاحها لتستأنف جهادها في الدفاع عن نفسها أزاء هذه
الاعتداء المتواصل .

(٢) أسباب الحمرة

ولم يكن بد للجمهورية الفرنسية في هذه الضائقة أيضاً
من أن تفكر في نابليون صاحب الأيادي البيضاء عليها في كل
الآزمات التي اجتازتها فعهدت إليه في تجهيز حملة لغزو الجزائر
البريطانية . وسرعان ما كان نابليون في طريقه الى شواطئ
فرنسا الشمالية يرتادها ويعاين قلاعها . ويطبق خطته على
مواقعها ولكنه لم يلبث أن اقتنع بعدم أرجحية رأى
الحكومة في مهاجمة إنجلترا ذاتها وخطرت له إذ ذاك فكرة
مهاجمتها في مستعمراتها . فما هو أن لاح له هذا الخاطر حتى
استجابت له كل ميول نفسه . فان أهم مستعمرات إنجلترا
في الشرق . والشرق كان مسرح خيالات نابليون منذ حداثة
ففيه ظهر الاسكندر قدوته الأكبر وأستاذه الذي ما قىء يتبع
خطاه ويسير على نهجه ويطمع في مثل مكائته من التاريخ .
وفيه المجال الفسيح الذي يتسع لو ثبات روحه الطموح فدوله

إذ ذاك أضعف الدول وشعوبه أطوع الشعوب وأسلمهم قيادا .
وكان أول ما خطر ببال نابليون أن يسير الى مصر فيستولى
عليها ويجعلها قاعدة لأعماله الحربية ضد إنجلترا فيسير منها الى
الهند أو يتغفل أسطول إنجلترا الذى يتعقبه فى البحر الأبيض
وينقض عائدا الى بحر المانش فيدخل لندرة ويملى شروطه
على حكومته قبل أن تنهيا لها وسائل مقاومتها . أو يسير إلى
الشام اذا فشلت كل هذه الخطط ويتابع سيره إلى القسطنطينية
فيستولى عليها ثم يعود إلى فرنسا عن طريق جنوب أوروبا
ناشرا مبادئ الثورة فى البلاد التى يمر بها وبذلك تتحقق له
ولفرنسا جل غاياتهما المشتركة

على أن حكومة الإدارة فى ذلك العهد كانت تحس بضعف
موقفها أزاء الشعب الفرنسى الذى أنهكته سنو الثورة وتركته
فى حاجة ماسة الى الإصلاح من كافة نواحيه وتحس فى
الوقت نفسه بتعلق هذا الشعب بنابليون وتطلعه اليه فى سد
هذه الحاجات فكانت تغار على سلطتها من نفوذه المتزايد .
وتخشى أن يفلت زمام الحكم من يدها اليه .

وحدث فى شهر يناير سنة ١٧٩٨ أن حل موعد الاحتفال
السنوى الذى كانت تقمه الحكومة إحياء لذكرى مقتل

لويس السادس عشر . فدعى نابليون لحضور هذه الحفلة بصفته العسكرية ولكنه رفض الاشتراك فيها قائلاً :

« إن هذا اليوم يعيد إلى الذهن ذكرى مأساة لا تلد ذكرها إلا للقليل وأن الاحتفال بذكرى قتل انسان ليس مما يليق بحكومة أن تقوم به فانه يعمل على إثارة الخواطر بدلا من أن يعمل على تهدئتها ويزعزع أركان الحكومة بدلا من أن يتبت قواعدها »

ولكن الحكومة ألحت عليه في وجوب حضور هذه الحفلة بأية صفة يختارها لأن الشعب لن يتردد في تأويل غيابه تأويلا يضر بصالح الحكومة . فقبل نابليون أخيرا أن يحضرها ولكن مع زملائه رجال (الأكاديمية) . وهناك كان قبلة الأنظار وموضع تطلع كل انسان . وما كادت تنتهى مراسم الاحتفال حتى انقلب هذا الجمع الحافل الى مظاهرة عامرة سار الناس فيها يشقون أطباق الفضاء بالهتاف له وذهب الانفعال بعضهم إلى حد أن صاح :

« لا بد لنا من طرد هؤلاء المحامين (يعنى رجال الادارة) وتوزيع السكا وال الصغير (يعنى نابليون) ملكا على فرنسا » ، وكان من شأن هذه الحوادث وأسئلتها أن دفعت حكومة

الادارة إلى التعجيل في التخلص من بقاء نابليون في فرنسا
فما هو أن أفضى إليها بخطته في السفر إلى مصر ومهاجمة إنجلترا
في الشرق حتى رحبت برأيه وهي تتمنى من كل قلبها لو أنه
سار إلى غير رجعة من هذا السفر الطويل .

(٣) معدات الحملة

أما نابليون فإنه اهتمك كعادته في اعداد معدات هذه الحملة
الجديدة وكانت تجرى تجهيزاته سرا في تغر تولون حتى لا تنبه
انجلترا إلى نواياه فتعرقل مساعيه وبذلك تمكن من جمع ٣٨
الف مقاتل . ونحو أربعائة نقالة بحرية لحملهم وأسطول حربي
مؤلف من نحو عشرين بارجة عظيمة كانت من يديها (لوريان
— L'Orient) أو مركب نصف الدنيا كما كان يسميها
المصريون لضخامتها . ولأنها كانت تحمل على ظهرها ما يقرب
من ١٢٠ مدفعاً . ولما تمت هذه المعدات أخذ نابليون يترقب غفلة
نلسون أمير لاي الأسطول الانجليزي الذي كان منوطاً بمراقبه
شواطئ فرنسا في البحر الأبيض المتوسط ليلعلع هو الى
مصر . وفي التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٧٩٨ تارت
عاصفة شديدة اضطرت الأميرال نلسون تحت تأيرها إلى

الانسحاب نحو جزيرة سان ييترو St Pietro في جنوب
سردينيا . فخرج نابليون في هذا الجو العصيب ناشرا أشرعته
وسار في محاذاة الشاطئ حتى بلغ جنوا ثم مر بأجاكسيو مهبط
رأسه ومن هناك سار إلى صقلية وأخيرا أشرف على جزيرة
مالطا بأسطوله الضخم وكانت إذ ذاك في حكم فرسان القديس
يوحنا فاستأذن رئيس الفرسان ليسمح لبوارجه بأخذ
ما يلزمها من الماء ولكن الرئيس رفض هذا الطلب . فأرسل
إليها نابليون فرقة من جنوده حاصر بهم عاصمتها (لافاليت)
« La Valette » فما لبثت حاميتها أن طلبت التسليم . وبذلك
دخلت هذه الجزيرة وما حولها من الجزائر الصغيرة تحت
سيادة فرنسا . وبعد ذلك استأنف نابليون سيره إلى
الاسكندرية . وكانت البوارج لكثرتها تسير كأنها مدينة
طافية على وجه الماء . وكان نابليون قد اصطحب معه جماعة
من العلماء الذين اتصل بهم عند دخوله (الأكاديمية) ليعاونه
في دراسة مصر حتى يتسنى له وضع المشروعات اللازمة
لنعميرها وأحيائها فكان معه علماء التاريخ القديم كما كان معه
الاخصائيون في علم النبات والخبراء في الشؤون الاقتصادية
والصناعية . وكان يجتمع بهم على ظهر مركبه كل ليلة يتبادل

معهم الحديث ويستعرض أمامهم آراءه ومشروعاته التي اعتزم تنفيذها في بلاد القراعنة . وهكذا انقضت الأيام الباقية من سفر الحملة على خير حال .

أما نلسون فانه ما لبث أن عاد تجاه الشواطىء الفرنسية حيث علم بخروج الاسطول الفرنسي ولكنه لم يكن يعرف وجهته بالتحقيق وذلك لسرية المعدات التي قام بها نابليون فتبادر إلى ذهنه خاطر حضوره إلى مصر فسار إليها رأساً وهو ينهب البحر نهياً بمراكبه السريعة . ومن عجائب الصدف أنه مر في طريقه بجوار المراكب الفرنسية دون أن يراها أو تراه . وأخيراً بلغ الاسكندرية قبل أن يصل إليها أسطول نابليون فأرسل إلى الحاكم يخطر به بقرى وصول هذا الاسطول طالباً إليه أن يسمح له بالبقاء في الميناء ليمتعه حين يصل من الاعتداء على الديار المصرية . فلم يستطع السيد محمد كريم حاكم المدينة تصديق هذه الدعوى وظن أن نلسون يريد أن يخدعه بها ليبقى هو في ميناء الاسكندرية فأرسل إليه بأنه ليس بين مصر وفرنسا ما يدعو إلى حضور نابليون إليها وعلى ذلك لا حاجة بالاسطول البريطاني إلى البقاء في المياه المصرية الا ريثما يحصل على ما يريد من الماء والزاد

ولما رأى نلسون أن لا سبيل إلى البقاء في مصر وأن البوارج الفرنسية لم يظهر لها أى أثر بقرب شواطئها أقبل إلى الاستانة ظناً منه أن نابليون ربما يكون قد قصد إليها دون مصر . ولكن لم يمض على ذلك يومان حتى ظهر الأسطول الفرنسى تجاه مدينة الاسكندرية . فما كاد الناس يرونه وقد غاب الأفق من وراء أشرعه حتى انخلعت أفتدتهم من الخوف وأدركوا أن نلسون كان صادقاً فيما ادعاه وأن الجو أصبح خالياً أمام نابليون ليفعل بهم ما يشاء ،

أما السيد محمد كريم فلم يملك حين شاهد هذا الأسطول أكثر من يبعث إلى مراد بك في القاهرة بالرسالة الآتية :

« سيدى

إن العمارة التى حضرت إلى مدينة الاسكندرية تتألف من مراكب كثيرة وليس لها أول يعرف ولا آخر يوصف . لله ولرسوله أدركونا بالرجال . . . » .

(٤) مائة مصر .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أن مصر كانت خاضعة في ذلك العهد لحكم المماليك الذى يضرب به المثل حتى اليوم

في الفوضى والاستبداد . ولقد كان من آثار حكومتهم السيئة
الظلمة أن تضاعف في عهدهم عدد السكان فأصبح ثلاثة ملايين
بعد أن كان نحو عشرين مليوناً مدة حكم الرومان والعرب .
وكان الشعب المصري . إذ ذاك يتألف من ثلاثة عناصر
متباينة . فالأقباط أولاً وهم سكان البلد الأصليون . ثم العرب
الذين استوطنوا بعد ذلك في عهد الدولة الإسلامية ثم
الأتراك الذين نزحوا إلى مصر بعد أن فتحها السلطان سليم .
أما حكومتها فكانت في يد المماليك الذين جاء بهم سلاطين
الدولة الأيوبية ليكونوا لهم خدما وأتباعا فكثرت عددهم ونما
نفوذهم واستقلوا بالسلطة دون سادتهم وأصبحت لهم حكومة
البلد الفعلية . ولقد رأى السلطان سليم أن يستعين في حكم
مصر بهؤلاء المماليك وذلك بسبب بعدها عن مقر ملكه ولسوء
وسائل الاتصال في ذلك العهد . فولاهم إدارتها على أن يسلبوا
خراجها لوزير الدولة العلية الذي كان يبعث به السلطان إلى
مصر ليمثل حكومة الباب العالي فيها . غير أن المماليك لم يلبثوا
أن أعلنوا استقلالهم عن السلطان . واستبدوا بوزرائه .
وتسلطوا عليهم إلى حد أنهم كانوا يعزلون من يقف منهم
في طريقهم أو يحاول بأية وسيلة أن يعترض على إرادتهم .

وبذلك استتب لهم الأمر في هذه البلاد. وأصبحوا هم حكامها
 الفعلين. واتتهى الأمر ببعضهم أن امتنع عن دفع الاتاوة
 المفروضة للباب العالى. فلم يبق للسلطان على مصر إلا السيادة
 الاسمية. وفي أواخر القرن الثامن عشر كانت السلطة في يد
 زعيمين كبيرين من زعماء المماليك وهما ابراهيم بك ومراد
 بك. وقد كثر في عهدهما النهب والسلب حتى ضج التجار
 الفرنسيون الذين كانوا بمصر وقدموا شكاياتهم العديدة إلى
 فرنسا يستغيثون بحكومتهم مما كانوا يلقونه على أيدي هذين
 الزعيمين ورجاهم تخابرت فرنسا حكومة تركيا في هذا الشأن
 فكان جواب الباب العالى أن المماليك قوم عصاة !

وجاء هذا الجواب متمشياً مع عزم فرنسا على مهاجمة
 إنجلترا في مستعمراتها فرأت أن الفرصة قد سنحت لتسيير
 حملتها على مصر وقام نابليون فعلاً بتجهيز هذه الحملة على
 النحو الذى وضحنه بعد ان اشترط على حكومة الاداره أن
 تبعث بتاليران وزير خارجيتها إلى الاستانة ليتفق مع الباب
 العالى على عقد محالفة مع فرنسا تخولها دخول مصر وطرد
 المماليك من ربوعها

ولقد كان من صالح الباب العالى لو أن تاليران وفق في

مهمته فان التفاهم مع فرنسا على شئون مصر في تلك الظروف كان أدنى إلى التحقق من التفاهم عليها مع المماليك . ولكن انجلترا كانت أسبق إلى اذن السلطان من فرنسا ولذلك فشلت مفاوضات تاليران . وأقبل نابليون بأسطوله على مصر وهو يواجه أربع خصومات قوية إذ كان أمامه المماليك بخيلهم ورجلهم والآهالى بتعصبهم وجهلهم والأتراك بنجداتهم المتتالية — ومن وراء كل هؤلاء الانجليز بأساطيلهم ودعايتهم .

(٥) فتح الاسكندرية .

وكان لا بد لنابليون ازاء هذه العوامل من أن يلجأ إلى أساليبه الخاصة التي امتاز بها وحده والتي كفلت له النصر في إيطاليا من حيث سرعة التحرك . ومفاجأة العدو . وعدم تمكن خصومه من التجمع عليه في جبهة واحدة . فأسرع بنحو خمسة آلاف جندي إلى النزول عند (العجمي) وهو مكان يقع على مسيرة نحو ست ساعات في غرب الاسكندرية ثم واصل السير ليلا حتى طلع الفجر عليه وهو على أبواب المدينة وشرع يهاجم أسوارها فورا فلم يتمكن أهلها من الدفاع أكثر من ساعتين لضعف استعدادهم وسوء وسائل

الدفاع المتوفرة لديهم — فدخلها نابليون بجنوده وفي اليوم التالي أرسل اليه السيد محمد كريم يعرض التسليم بصفته حاكم المدينة فقابل طلبه بالترحاب وعرض عليه أن يكون عوناً للفرنسيين في مهمتهم التي جاءوا مصر من أجلها وهي إبانة دولة المماليك الظالمة فأقسم له السيد محمد يمين الاخلاص والولاء فأبقاه نابليون في عمله ثم أخذ في تأمين الأهالي وطمأنتهم على أموالهم وأنفسهم ومعتقداتهم باسقاطهم مبادئ الجمهورية الفرنسية التي أخذت على عاتقها أن تذيبها في العالم وهي أن يسوس كل أمة عقلاؤها وأن يتساوى أمام القانون أفرادها . وأن لا يفضل أحد منهم أحداً إلا بقدر ما فيه من علم وكفاية يميزانه على غيره . فاستناب الأهالي لهذه المبادئ وألقوا اليه سلاحهم فأناوب عنه في حكم المدينة الجنرال كليبر . وشرع هو يصدر منشوراته لكافة بلاد مصر كي يمهد لنفسه سبيل الاستيلاء عليها غير تارك وسيلة للتأثير في عواطف الشعب إلا استغلها . فأعلن في تلك المنشورات بأنه إنما جاء مصر لطرد المماليك الذين استأثروا دون الأهالي بأوفر غلاتها وأجمل نساءها وأفخر قصورها وادعى أن الفرنسيين مسلمون مستدلاً على ذلك بأنهم دخلوا إيطاليا

وهدموا فيها سلطة البابا واستولوا على مالطا وشتتوا فرسانها
الذين كانوا يدعون أن الله أقامهم لمحاربة الاسلام . ثم نوه
بأن الفرنسيين كانوا منذ القدم حلفاء السلطان العثماني وأعداء
أعدائه . ووعد الذين يتفقون معه من المصريين بالأمان
والسعادة ثم انتهى بأن هدد كل من اتفق مع المماليك
بالويل والهلاك . ولما فرغ من ذلك بعث إلى وزير الدولة
التركي الذي كان يقيم في القاهرة إلى جوار مراد بك وإبراهيم
بك بكتاب خاص هذه خلاصته :

« دولتو أفندم حضر تلى

إن جمهورية فرنسا عزمت على ارسال حملة لقطع دابر
المماليك من مصر ومع أنكم أتم أصحاب السيادة والسلطان
فإن المماليك قد جعلوكم كالأسرى تحت نفوذهم وسطوتهم
ولذلك لابد أن يسركم بحيثنا إلى هذه الديار . فلهبوا للقائنا
والعنوا معنا المماليك »
بونابرت ،

(٦) الحالة في القاهرة

وكان مراد بك قد هاج واتابته نوبة لدى وصول رسالة
السيد محمد كريم الأولى التي بعث بها إليه وذهب إلى قصر
إبراهيم بك واختلى به زماناً وذاع الخبر في كل القاهرة

فاختلجت له وارتبك أهلها واجتمع الممالك والعلماء والأعيان بمنزل ابراهيم بك وأخذوا يتشاورون في الأمر فصرح مراد بك لوزير الدولة بأنه يعلم أن حكومة تركيا هي التي دبرت مع فرنسا أمر هذه الحملة الفرنسية . ثم قال متهمًا :

« ولا ريب أن حضرة الوزير يقدر أن يخبرنا بشيء عن ذلك ! غير أن العناية لا بد أن تسعفنا على الاثنين ! » .

فرد عليه الوزير مستهجنًا لهذه الظنون حاثًا له وللصريين على الإسراع في العمل لانقاذ مصر بدل اضاءة الوقت في إثارة الشكوك حول موقف السلطان .

فاجتمعت كلمة الحاضرين على وجوب إلقاء القبض على قنصل فرنسا وسجنه هو والتجار الفرنسيين خوفًا من الخيانة . وأخذ مراد بك على عاتقه جمع قوة يواجه بها الأعداء فاجتمع له في أيام قليلة نحو ٢٠ ألف مقاتل سار فيهم للقاء نابليون .

(٧) معركة الرممانية :

وكان نابليون قد غادر الاسكندرية قاصدًا فرع رشيد ليسير إلى جانبه حتى يصل إلى القاهرة ورأى أن يختصر الطريق إلى النيل باجتياز قفر دمنهور بدل أن يصل إليه عن

طريق الشاطئ^١ فلاقى فى قطع هذا القفر كل مشقة وعناء إذ لم يكن فيه ماء للشرب ولا ظل تأوى إليه الجنود مع أن ذلك كان فى شهر يولية حيث تشتد الحرارة اشتداداً عظيماً ولم يكن يرى الفرنسيون فى هذا القفر من بشر غير فرسان العرب الذين كانوا يختبئون منهم خلف تلال الرمل ثم ينقضون على مؤخرهم فيفتكون بالمتخلفين من رجالهم ولذلك كثرت الشكوى بينهم واشتد التذمر ومات كثير من الظمأ ومن ضربة الشمس . وكان يتزايد سخط الجنود كلها أوقفهم رجال البعثة العلية التى ترافقهم أثناء فحصهم لآثر من الآثار التى كانت تصادفهم فى طريقهم حتى بدأ الجيش يتشكك أخيراً فى صدق نية الحكومة الفرنسية ظناً منهم بأنها لم تبعث بهم إلى مصر لفتح ولا لحرب ولكن لحراسة هؤلاء العلماء أثناء بحشهم وتحقيقهم وأخيراً زالت عنهم كل هيئة لهؤلاء العلماء وصاروا ينتهرونهم ويشتمونهم إذا أرادوا إيقافهم . وكان من بين رجال هذه البعثة مهندس بارع فى فنه ولكنه كان أعرج قطعت رجله فى حرب سابقة فاستعاض عنها برجل من الخشب ولذلك سماه المصريون فيما بعد — (أبو خشبة) — وكان هذا العالم بصفة خاصة كثير البحث شديد

التدقيق إلى حد أن الجنود كانوا من شدة ضيقهم يتفكرون فيما بينهم بأمره — قائلين :

وما ذنبنا نحن اذا كان هذا الرجل يريد أن يهلك في مصر ولا يرجع إلى بلاده لأنه دفن رجله الأخرى فيها .



وأخيراً بعد أن لبثت الحملة على هذه الحال أربعة أيام طوال ذقت في خلالها ألوان العذاب أشرفت على شاطئ النيل فما لاح للجنود حتى تسابقوا إليه يطفثون ظمأهم على ضفافه وينعمون بأكل البطيخ والشمام في ظلال أشجاره .

ورأى بونايرت أن يعوض جنوده عما قاسوه في رحلتهم هذه فأقام في تلك البقعة نحو أربعة أيام أخرى ولكن مراد بك طلع عليهم بجيشه في اليوم الخامس وعند ذلك انتشبت بين الفريقين معركة الرحمانية المشهورة التي انكسرت فيها جماعة مراد والتي تابع نابليون من بعدها سيره إلى مدينة القاهرة . وسرعان ما وصلت أنباء هزيمة مراد بك إلى زميله ابراهيم بك في القاهرة فجمع نساءه وأمواله وملا بها مراكبه الراسية في النيل عند بولاق لتكون بضاعة حاضرة تحت يده اذا دعا داعى الفرار . ثم كتب إلى مراد بك يستدعيه ليرابط

أمامه في جهة امبابة حتى يحولا معاً من تقدم نابليون .
وثارت حماسة الأهالي واحتمل كل واحد منهم سلاحه الذي
قدر عليه بينما سار العلماء في موكب حافل تتوسطه الراية
النبوية قاصدين بولاق ليشتركوا في لقاء العدو وكل عدتهم في
ذلك اليوم العصيب هتافهم ملء حناجرهم .
« الله أكبر على من طغى وتكبر ! »

(٨) معركة الاهرام :

وفي الحادى والعشرين من شهر يولية سنة ١٧٩٨ أشرف
نابليون رجاله على مدينة القاهرة . وما لاح لهم منظر مآذنها
العالية عن شملهم ومظر الاهرام الجاثمة في وسط الرمال
عن يمينهم وأشعة الصباح الباهتة تكلل هامة الجميع حتى بهرتهم
تلك الصورة السحرية فشخصوا إليها حامدين وتمسكت نفس
نابليون الحماسة وصاح فيهم قائلاً : « أيها الجنود ! إن اربعين
جيلاً تنظر إليكم من فوق هذه الاهرام » فأشعلت هذه
الكلمة حماسة الجنود وتطلعوا أمامهم فرأوا جيوشاً جارية في
بطن السهل بالقرب من إمبابة عليها أنخر اللباس وفي مقدمتها
مالا يقل عن عشرة آلاف فارس تحتهم أفراس مطهمة تأخذ

حلبها بالابصار . ونظر نابليون بمنظاره إلى العدو وعلى وجهه كل علام الاهتمام ثم ما لبث أن نزل بالمنظار عن عينه وعلى شفتيه ابتسامة الثقة بالنصر القريب . ذلك بأنه رأى ما لم يره مئات الضباط حوله عن يحملون مثل منظاره . واستطاع بصره الثاقب أن يعرف أن المدافع التي مع الممالك ثابتة في الأرض وليست محمولة على دواليب تديرها حيث يكون العدو ولكنها مصوبة كلها نحو الشمال فدار نابليون بجنوده عن وجهة أفواهاها وهاجم خصومه من جناحهم الأيسر فسقط في أيديهم . وعلبوا أن مدفعيتهم قد شلت بهذه الحركة فهاجوا وانقضوا على الفرنسيين انقضاض الصاعقة ولكن هجومهم كان كالسحابة التي تصطدم بالطود الراسخ فيسقط مطرها على رأسه دفعة واحدة ثم تنقشع ولا يبقى لها أثر . وكذلك تدت الفرنسيون تحت هجوم الممالك كالطود حتى حسب هؤلاء أن بعضهم لا بد أن يكون مربوطاً ببعض فسرى اليأس إلى قلوبهم ودب الفشل في صفوفهم وسرعان ما تشتتوا كل ياتمس لنفسه الخلاص . أما مراد بك فانه أحرق السفينة العظيمة التي كان قد جمع فيها أمواله وخزائنه . وولى هارباً نحو الجيزة ثم أوغل في قلب الصعيد وأما ابراهيم



« إن أربعين جيلا تنظر اليكم من فوق هذه الأهرام »

فانه ما كاد يرى رجاله يشتبكون مع الفرنسيين ويحس بتفوق هؤلاء عليهم حتى فر بأمواله ونسائه قاصداً إلى الشام يصحبه وزير الدولة بكر باشا . ولما رأى الشعب زعماءه يفرون على هذه الصورة ويتخلون عنه في أشد الاوقات وقع الرعب في قلبه . ولم ير أمامه غير التسليم فاتفق أهل الرأي منهم على ذلك وجاءوا بقنصل فرنسا وزملائه الذين كانوا في سجن القلعة وبعثوا برسولين منهم إلى نابليون ليطلبوا إليه تأمين الأهالي على أموالهم وأنفسهم في نظير تسليمهم إليه فأجاب نابليون سؤالهم وأرسل الجنرال دييوى لاستلام المدينة وتأمين أهلها فقابلته العلماء والأعيان عند بولاق في مساء ذلك اليوم ودخلوا المدينة أمامه بالمشاعل والمنادى بين يديهم ينادى :
« الأمان للرعية جميعها . »

(٩) دخول القاهرة :

وفي اليوم التالى دخل نابليون القاهرة هو وبقية جنوده وخرج الأهالي للقائهم في الطرقات فرحين بهم معجبين ببساطة لباسهم بالنسبة لما ألفوه من بذخ الممالك وأبهة ملابسهم العسكرية وقد نزلت جيوش نابليون في منازل بكوات الممالك

الفسيحة الجميلة . أما هو فاختار لنفسه منزل محمد بك الألفى الذى كان على بركة الازبكية وأقام فيه (وشارع الألفى الموجود الآن بالقاهرة ليس إلا رمزاً لمكان هذا القصر العتيق)

(١٠) اصلاحيات نابليون

واستتب الأمر لنابليون فى القاهرة . فرسم أساس حكومة البلاد بإنشاء عدة مجالس للإدارة والقضاء . ثم أخذ فى تقسيم القاهرة نفسها إلى أقسام أقام على كل قسم منها حاكماً فرنسياً لحفظ الأمن وتوطيد السلام وأمر بأن يتعهد الأهالى نظافة الطرقات ورشها وإضاءةها كل فى دائرة مسكنه ثم رأى حاجة السكان إلى دار عامة يتعالجون فيها فأنشأ مستشفى القصر العينى لتطبيب المرضى والجرحى . وأمر بأن تضرب النقود فى القلعة باسم السلطان سليم حسب العادة . ثم قسم القطر المصرى كله إلى أقاليم وجعل على كل إقليم منها قائداً من قواده ثم أرسل وراء مراد بك من يطارده ويقضى عليه فى الصعيد وعلم بأن . ابراهيم بك وبكر باشا قد وقفوا فى طريقهما عند مدينة بلبس وأنهما ينويان جمع أمرهما فيها بقصد العودة لمهاجمة القاهرة فسار اليهما بنفسه . فما لبثا أن انقلبا على عقبيهما وتابعا سيرهما

إلى مدينة غزة في حدود سورية واتصلا منها بالجزائر باشا وإلى
عكا وشرعا بتحريضه يبعثان إلى مصر بالمنشورات السرية
لحرض الأهالي على الثورة والعصيان . فجمع نابليون علماء البلد
وذوى المكانة فيها وكلفهم بأن يقوموا بأسداء النصيح إلى
مواطنيهم ويدعوهم إلى الطاعة والامثال وتأدية الخراج في
سكينة وهدوء مرددين عليهم ماسبق لنابليون إذاعته من أن
الفرنسيين حلفاء السلطان وأنصار الاسلام . وأنهم ما جاءوا
مصر إلا لتطهيرها من عسف المماليك وفسادهم فصدرت
نشرة طويلة بهذا المعنى ذيلها بتوقيعه كل من السيد خليل البكري
والشيخ عبد الله الشرقاوى . وأعلام شيوخ ذلك العصر
كالمهدى والفيومى وغيرهما .

وانصرف نابليون بعد ذلك إلى الاصلاح على ما فيه خير
هذه البلاد فكان في مقدمة ما عنى به تعيين أمير للحج ومخابرة
الولايات الاسلامية الغربية كطرابلس وتونس والجزائر بأن
مصر ترحب بحجاج تلك البلاد الذين يفدون اليها في طريقهم
الى الحجاز علماً منه بما يترتب على مرور تلك القوافل في مصر
من الرواج والرخاء . ثم جاء موعد الاحتفال بفيضان النيل
وكان هذا اليوم من أيام مصر المشهودة التي يجتمع فيها الناس

من جميع الجهات لحضور مهرجانه فاشترك نابليون وجنوده في إحياء هذا العيد الوطنى وأقام الولائم لأعيان البلاد وابتدع لهذا العيد بدعة الألعاب النارية التى ظلت من تقاليد المهرجان حتى اليوم . وجاء بعد ذلك موعد الاحتفال بالمولد النبوى فحضر بنفسه ولية السيد خليل البكرى نقيب الأشراف الجديد الذى ولاه نابليون بدلا من السيد عمر مكرم النقيب السابق الذى فر إلى الشام مع ابراهيم باشا وبكر . وقد عرف نابليون كيف يستولى على مشاعر المصريين فى ذلك العيد العظيم حيث يروى أنه دخل معهم إلى المسجد فى وقت الصلاة وجلس متخشعا يتلو معهم ما يلقنونه من آيات القرآن الكريم ويركع ويسجد مع الراكعين والساجدين .

ولقد قام نابليون إلى جانب هذه الأعمال بتنفيذ مشروعه الجليل الخالد الذى كان فاتحة عصر جديد لمصر بل وللعالم أجمع فى كل ما يصل بينه وبين مصر وذلك بإنشاء المجمع العلمى وتنظيم أعماله وتقسيمه إلى فروع ليأخذ كل فرع منها القيام بمهمته فشرع المهندسون فى مسح الأراضى وضبط حدودها ورسم خرائط مفصلة لجهاتها . وأخذ آخرون فى دراسة نهر النيل ووضع المشروعات اللازمة لضبط مياحه وصرفها لفائدة الأهالى واهتم

فريق آخر بدراسة نباتات مصر وحاصلاتها وتربتها ومناخها وأخذ علماء الآثار في الحفر والتنقيب للبحث عن الآثار القديمة التي تثير تاريخ مصر القديم وتكشف عن أسرارها . وقد وفق أحد الضباط الى العثور على لوحة من البازلت في مدينة رشيد كانت تحمل على جوانبها عبارة كتبت بالمصرية القديمة وبالرومية في آن واحد . فجاء كشف هذه اللوحة نصراً باهراً في هذا الميدان جنى منه العالم بأجمعه أطيب الثمرات حيث تمكن بعض العلماء بواسطتها من حل رموز الكتابة الهيروغليفية وانفتح بذلك باب البحث امام العلماء والمؤرخين .

(١١) معركة ابى قير البحرية

على أن نابليون ما كاد يجتمع له من أمر مصر كل هذا الشأن حتى فوجئ بصدمة هادمة لم يكن يقوى غيره على الاستواء بعدها على قدميه . وذلك أن نلسون أمير البحر الانجليزى الذى كان يتعقب أسطوله ما لبث أن عاد إلى الاسكندرية بعد أن علم بوصوله اليها فرأى مراكبه راسية فى خليج أبى قير فهاجمها من فوره وكان الفرنسيون على غير أهبة للقتال . فانتشبت بين الفريقين معركة عنيفة بدأت فى مساء أول أغسطس سنة ١٧٩٩

ودامت الليل بطوله واسفرت قبيل ظهر اليوم التالى عن تحطيم معظم البوارج الفرنسية وفرار البقية الباقية منها إلى مالطا . وبذلك انقطعت الوسيلة الوحيدة التى كانت تربط رجال الحملة بفرنسا وتخرج موقف نابليون أكثر من ذى قبل .

ويدهشك بعد ذلك أن تعلم أن كل ما أثارتته هذه النكبة من الخواطر فى صدر نابليون هو أنه أحس بأن واجباً عليه أن يوسع دائرة العمل الذى كان ينوى القيام به فى الشرق بعد أن أصبح لا أمل له ولو مؤقتاً فى الاتصال بالغرب . وأنتك لتقرأ ذلك صراحة فيما كتب الى الجنرال كليبر بالاسكندرية على أثر هذه الحادثة حيث أرسل اليه يقول « إن ما حدث فى أبى قير يحملنا على أن نقوم بأعمال أعظم من الأعمال التى شرعنا فى القيام بها » .

ولقد أخذ نابليون فعلاً بعد ذلك فى تجنيد فرقة من الشبان المصريين ممن تتراوح سنهم بين ١٦ و ٢٤ سنة وأنشأ فى مصر معملاً للبارود والرصاص وأصناف الذخيرة اللازمة حتى يكون فى غنى عن الرجوع الى فرنسا فى طلب نجدة أو مؤونة وأقام بريداً بين القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة واستمر فى إدخال اصلاحاته والقيام بأعماله المعتادة حتى تغلب بثباته وقوة

روحه على ما كانت قد تسرب الى قلوب رجاله من الياس
والضعف والاستسلام للمقادير .

(١٢) ثورة القاهرة

على أن نكبة أبي قير ما لبثت أن انتشرت أخبارها بين
الاهالى وتوسع المعارضون فى تأويل نتائجها والتعليق عليها
بما تطمئن له قلوبهم حتى حسب الناس أن لا قبل للفرنسيين
بعدها بالمقاومة وكانوا قد بدأوا يحسون بثقل الضرائب التى
فرضها عليهم نابليون لتنفيذ إصلاحاته كما أنهم لم يرتاحوا
لكثير من هذه الإصلاحات لما فيها من التكاليف التى لا عهد
لهم بها كأنارة الطرقات والعناية بكنسها ورشها والامتناع عن
دفن الموتى داخل المنازل وغير ذلك . فاختمرت الفتنة فى
نفوسهم وباتوا يتربصون للإيقاع بنابليون وجنوده متى
سمحت الظروف . وتمكن عمال نابليون فى تلك الفترة من
ضبط رسالة بخط السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية يحرص
فيها مراد بك على الحضور من الصعيد لیسلمه المدينة . فقدمه
نابليون للحاكم وحكم عليه المجلس بالاعدام فكان لهذا
الحكم صدى شديد فى نفوس الاهالى واشدد حقدهم بسببه

على نابليون . وحدث في أواخر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ان خرج نابليون إلى الجيزة ليتفقد بعض الأعمال العسكرية التي كانت تجرى هناك . فانتهر أهالى القاهرة فرصة غيابه وقرروا مهاجمة رجاله . فاجتمعوا فى الطرقات العامة أفواجاً أفواجاً ثم هاجموا الجنرال دييوى حاكم المدينة الفرنسى وقتلوه واعتدوا على الجنود الفرنسيين حيث وجدوهم ثم تحصنوا فى المساجد الكبيرة وكان الأزهر مركز رياسة هذه الحركة التى ما لبثت أن انتشرت إلى الأقاليم انتشار البرق حيث قام الأهالى يقتلون الفرنسيين فى كل مكان يصادفونهم فيه . ولم يقفوا فى اعتدائهم عليهم عند حد فقد حدث ذات يوم أن أقبلت ثلة من الفرنسيين إلى المدينة ومعها نحو ٢٠ جندياً من الجرحى فهاجمها البدو فقر رجالها وخلفوا أولئك العجزة تحت رحمة خصومهم فقتلوه عن آخرهم .

وأقبل نابليون فى مساء ذلك اليوم العاصيب عائداً من الجيزة ولكن الأهالى كانوا قد أغلقوا دونه باب المدينة . فلم يتمكن من دخولها إلا بعد أن دار حول أسوارها حتى دخل من باب آخر . وهناك اجتمع برجاله وشرع فى مقاتلة الثائرين فوق اختياره على تل مرتفع بجوار قلعة صلاح الدين تشرف

قمته على الجامع الأزهر . فأقام عليه صفاً من المدافع ولبث
ينظم وسائل دفاعه حتى انتصف الليل وعند ما تمت معداته
أرسل لشيوخ الأزهر يطلب إليهم أن يعودوا إلى الهدوء
والطاعة ووعدهم بالعفو إذا هم دانوا له وأقلعوا عن العصيان
فرفضوا طلبه ظناً منهم بأن الخوف هو الذي دفعه إلى
مفاوضتهم . فما كان منه إلا أن أمر بمحاصرة منطقة الأزهر
من نواحيها الأربعة حتى لا يتمكن أحد فيها من الفرار . ثم
صب على الشاثرين ناره بدون انقطاع مدة ساعتين وهم
لا يجدون عنها مصرفاً إلا إلى رماح جنوده التي أحاطت
بهم . فلما أيقنوا بالهلاك إذا هم صبروا على هذا البلاء
أرسلوا إليه يستغيثون بعضوه فأجابهم لقد عرضت عليكم
السلم فأيتتم إلا الحرب والعدوان فأنا الآن أتمم ما شرعتم
أتم فيه .

أزاء ذلك لم يبق من أمل للشاثرين إلا أن يستमितوا في
الدفاع فهجموا على خطوط الحصار المضروبة حولهم يلتمسون
اختراقها ولكنهم كانوا يرتدون عنها كل مرة بعد أن تذوب
صفوفهم تحت نار المحاصرين وأخيراً تقدم كبار العلماء بغير
سلاح طالبين مواجهة اابليون فأذن لهم هذه المرة بالدخول

عليه ثم أمر بإيقاف القتال ، ولكنه ألقى القبض على زعماء
الفتنة وتشكلت هيئة لمحاكمتهم في الحال فحكمت عليهم بالإعدام .
وأعدموا في نفس ذلك اليوم . وأعلنت بعد ذلك الأحكام
العرفية في القاهرة وفرضت على أهلها غرامة طائلة . وبذلك
عادت الأمور تجري في مجاريها الأولى وانصرف كل إلى
ما كان قد شرع فيه فعاد الأهالي إلى شئونهم وعاد نابليون
إلى عمل الاستحكامات اللازمة لجنوده والضرب على أيدي
اللصوص وقطاع الطرق الذين انتشروا في ظل عهد الفوضى
وأقام كثيراً من المنشآت العامة في القاهرة كالملاهي والمتنزهات
والمكاتب والصحف وهكذا كانت ثورة القاهرة سبباً في
دسوخ أقدام الفرنسيين فيها .

(١٣) الحملة السورية

ولكن الانجليز كانوا ما فتئوا يعملون على إثارة السلطان
ضد نابليون ويحضونه على إرسال قوة لطرده من مصر
ووعدوه بتقديم كل مساعدة ممكنة عن طريق البحر فتحرك
السلطان أخيراً وجهز حملة برية عظيمة بمساعدة أحمد باشا
والى عكا الملقب بالجزار . وكانت تتألف هذه الحملة من

عشرات الألوف من المقاتلين الذين اجتمعوا من مختلف الأقاليم . وظهرت طلائعهم عند حدود مصر حوالى يناير سنة ١٧٩٩ واستولت فعلا على قلعة العريش . وكان نابليون إذ ذاك بجهة السويس ينقب عن آثار القناة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر فلما جاءت هذه الأنباء رحب بها لأنه كان من جانبه ينوى غزو الشام والحصول منها على المدد اللازم له فى حفظ مركزه بمصر وتعويض نفسه عن الخسائر التى أصابته على يد الانجليز والمماليك ولكنه كان كعادته لا يريد أن يتحمل مسئولية البدء فى العدوان . فلما استولت جنود الجزار على العريش أسرع اليهم وحاصروهم فيها ثمانية أيام طوال عرضوا عليه من بعدها أن يخلوا له القلعة إذا هو سمح لهم بالخروج منها بسلاحهم فسمح لهم بذلك وأطلق سراحهم على أن لا يعودوا لقتاله قبل مضى سنة فأقسموا له على ذلك وتابع هو سيره إلى غزة ولم تطل إقامته حول أسوارها لأن أهلها بادروا بتسليمها إليه بعد أن أمنهم على حياتهم . فأقام فيها ليلة ثم سار عنها قاصداً يافا فأرسل إلى حاكمها رسولا يطلب إليه أن يحقن دماء أهلها ويسلمها إليه على أن يكون آمناً هو ورجاله كما فعل أهل غزة . فكان جواب الحاكم

أن قتل الرسول ورفع رأسه على برج من أبراج المدينة العالية
فهاج لرؤيته الفرنسيون وحمل بهم نابليون على تلك المدينة
حملة شديدة تمكنوا بها من فتح أبوابها على أن أهلها رفضوا
التسليم على الرغم من ذلك واستمروا في القتال . فدامت
الحرب بين الفريقين يومين كاملين كانا من أشأم أيام
الحروب لوفرة ما ذهب فيهما من الضحايا وكثرة ما ارتكب
فيهما من ضروب القسوة وأعمال العنف والتخريب .
وأخيراً تم لنابليون إخضاع هذه المدينة وكانت غنيمة
الفرنسيين من فتحها عظيمة وافرة إذ حصلوا على زاد كثير
ومدافع عديدة ووقع في أسرهم نحو ثلاثة آلاف جندي
فأمر نابليون بإطلاق سراحهم أيضاً على أن يهادنوه سنة كاملة .
وكان الذي يدفع نابليون إلى سلوك هذا السبيل مع أسراه
أنه كان لا يجد المئونة الكافية لجنوده إلا بكل مشقة . فكان
من غير الميسور له أن يحتفظ بهؤلاء الأسرى معه فيلتزم
بأطعامهم وحراستهم وهو محتاج الى كل لقمة يأكلونها والى
كل جندي يشغلونه .

٥ (١٤) مصر عكا

ولم يبق بعد يافا امام نابليون الا حصن عكا ليم
استيلاؤه على سورية بأكملها وقد قدر في نفسه انه متى تم له
ذلك فلا بد للسلطان من مهادنته وطلب الصلح منه لأن عكا
كانت القلعة الشمالية الوحيدة التي تستطيع أن تحول دون
تقدمه إلى القسطنطينية فسار إليها وقد علق كل آماله على
إسقاطها ولكن الطاعون كان قد علق بأردان جيشه مذ خرج
من مدينة يافا فما بلغ مدينة عكا وألقى عليها الحصار حتى كابد
من الطاعون أكثر مما كابد على يد الجزائر والعثمانيين وحلفائهم
الانجليز الذين تولوا تموين المدينة عن طريق البحر كما كانوا
يفعلون في تولون . ومن سوء حظ نابليون أيضاً أنه كان
قد بعث بمدافعه الثقيلة عن طريق البحر لتجتمع به عند عكا
فتنبه الانجليز إلى ذلك وتربصوا لها في البحر حتى ظفروا
بها وبالسفن التي كانت تحملها واستولوا عليها جميعاً . ثم أقاموا
تلك المدافع بعينها لتعزيز الدفاع عن أسوار المدينة وهكذا
أصبح نابليون عند عكا يحاربه أعداؤه بسلاحه وتحاربه
الطبيعة بما لا قبل له على دفعه ولكنه تجلد وبدأ الهجوم على

المدينة في الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٩ بكل ما أودع الله فيه من عنف وقوة حتى وقع الرعب في قلب الجزائر . وفكر في إخلاء القلعة والفرار بنفسه منها لولا وقوف الانجليز في وجهه واعتراضهم عليه . وقد وفق السير سيدنى سميث كوميدور الأسطول الانجليزى الذى كان يعاون الجزائر إلى الاتصال فى تلك الفترة بالمهندس الفرنسى ييكار دى فيلبو « Picard de Phélippeau » صاحب الشهرة الواسعة فى شئون المدفعية وهو من أنصار الملكية الذين فروا من فرنسا إبان الثورة الكبرى . فكان من المعونة التى قدمها هذا المهندس أكبر مشجع للجزائر على البقاء واستئناف الدفاع .

واجتمع خارج المدينة حيش جرار من كافة أنحاء سوريا يبلغ تعدادة ثلاثين ألفاً وعلم نابليون بزحف هذا الجيش نحو المدينة لنجدتها فخرج للقاءه فى وسط السهل ودارت بين الفريقين معركة هى من مفاخر الفرنسيين حيث انتصر ستة آلاف منهم على هذه الثلاثين ألفاً وغنموا كل ما كان معها من مدافع وذخيرة وبذلك اشتد ساعدهم وقوى روحهم وعاد بهم نابليون لاستئناف الهجوم على عكا وهم أوفر عدة

وأرحب آمالا .

ولم يكتف السير سيدنى سميث مدير حركة الدفاع عن
عكا بما كان يلقيه على خصومه من القنابل والمفرقات
ولكنه امعاناً في النكاية بنابليون لجأ إلى الطريقة الانجليزية
المشهورة المأثورة فوزع على الجنود الفرنسية نشرات يقطع
فيها أصدق الوعود على نفسه بأن يعيد الى فرنسا كل من
يلتجئ إليه منهم تاركا خدمة بونايرت . وكان في ذلك اغراء
تدور له أرسخ الروس لا سيما في مثل تلك الظروف التي
كان يكابدها الفرنسيون بين الطاعون المييد وبين النار
والحديد . على أن جندياً واحداً لم يستمع لهذه الدعوة فيروى
التاريخ عنه أنه فر من فرقته . وقد لذ انابليون أن يجيب على
نشرة السير سيدنى سميث بنشرة أخرى أذاعها هو وقال فيها
« أبشركم أيها الجنود فقد أصيب الكوميدور الانجليزي
بالجنون ! » فبلغ ذلك السير سدننى سميث فاهتاج وأرسل
لنابليون يطلب إليه أن يخرج لمبارزته فأجابه بونايرت :
« إذا أمكن السير سدننى سميث أن يبعث مارلبورو Marlborough
من قبره ليبارزنى فانى سأفكر فى الموضوع . أما إذا أراد
هو أثناء ذلك أن يظهر بطشه ومبلغ قوته فانى على استعداد

لتعيين مكان أرسل إليه فيه أحد جنودى العمالىق ليقاتله . .
فكان ذلك أنكى للسير سدنى سميث وأبلغ فى إيلامه .
وظل الحصار مضروباً حول عكا حتى تهدمت أسوارها
واندلت منازلها وتشققت طرقاتها ولم يبق لها من معالم المدن
ما يجعلها جديرة بهذا الاسم وأخيراً ظهرت فى البحر أمام
عكا عدة بوارج أجنبية ظنها كل فريق من المتقاتلين أنها
قد جاءت لنجدته فهدأت حركة القتال انتظاراً لقدم هذه
البوارج وخرج إليها السير سيدنى سميث ليضمها إليه ان
كانت موالية له أو ليحاربها فى عرض البحر إن كانت آتية
لنجدة خصومه . فاذا بها بوارج عثمانية جاءت لعكا بنجدة
جديدة فلما تحقق الفرنسيون ذلك هاجوا وعولوا على مهاجمة
المدينة للمرة الأخيرة قبل أن تصل هذه النجدة غير أن
هجومهم كلفهم ضحايا غالية كثيرة . وأخيراً علم نابليون بأن
البوارج العثمانية قد سارت إلى مصر لتتمكن من الدخول
أثناء غيابه . ووصلته فى تلك الفترة أخبار عن فرنسا كانت
هى الأولى بعد ثمانية شهور قضاها فى عزله التى سببتها نكبة
أبى قير البحرية . وعرف نابليون من هذه الأنباء أن حكومة
الإدارة واقعة فى أشد الارتباك بسبب تحالف الدول عليها

من جديد . وأن ميدان القتال انفتح في أوربا وأن نظراءه
مورو وأوجيرو وغيرهما يتولون القيادة العليا هناك وهو
هنا مرابط أمام عكا يحالده أقدر خلق الله على الجلد وقد
تنقضى شهور وشهور قبل أن يقلع سدنى سميث عن الدفاع .
وليس هذا الصبر البليد من طبع نابليون الذى كان من ماثور
كلامه : « شيئان يجب على الانسان أن يستولى عليهما بالهجوم
المفاجئ أو يتركهما دون أن يتعرض لهما — الحصون
والنساء ! — ولذلك عول على رفع الحصار عن عكا والعودة
إلى مصر للدفاع عنها أولا أمام الجيش التركى الذى كان يسير
فى طريقه إليها حتى إذا ما اطمأن عليها أمكنه انابة بعض
قواده عنه وسافر هو إلى فرنسا .

(١٥) الانسحاب

وليس يخفى إن ارتداد نابليون عن عكا كان فى الواقع
شر هزيمة لقيها هذا البطل منذ بدء حياته العسكرية . وفيها
انهارت آماله التى كان يبنى نفسه بها للوصول إلى الهند .
ولتكوين امبراطورية عظيمة فى الشرق . ولكن لما كانت
هذه الآمال سرا بالنسبة لجنوده الذين لم يكونوا يعلمون من

أمر الحملة السورية الا أنها وجهت لتفريق تلك الجيوش التي اتفق الأتراك والأتجليز على تسييرها على مصر فقد رأى هؤلاء الجنود أن الحملة السورية قد تكللت بالنجاح في مقصدها حيث استولوا فيها على مدينتي غزة ويافا وهدموا حصن عكا وأسواره وتركوه خراباً بعد أن كسروا ذلك الجيش الجرار الذي كان كل ما يمكن أن تهددهم به سوريا ولذلك عاد نابليون إلى مصر ودخلها دخول الظافرين وقد سبقته إليها أخبار نصره في غزة ويافا ومعارك عكا الشهيرة المشرفة .

(١٦) نابليون في ميزانه التاريخ

على إن قصة عودة هذه الحملة من سورية كانت في ذاتها فاجعة أليمة من تلك الفواجع التي نكب بها نابليون والتي لم يكن غير روحه العاني يقوى على مناهضتها وحمل أثقالها . فأن أكثر من ألف من جنوده القلائل الذين نجوا معه من الهلاك أثناء الحملة كانوا بين الموت والحياة من أثر الطاعون . أو أثر المعارك . ولم يكن يملك نابليون من الخيل ما يكفي لحملهم وتخفيف آلامهم فنزل عن جواده الخاص وأمر ضباطه

بان يترجلوا عن خيلهم لتكون في خدمة هؤلاء الجرحى والمرضى وسار هو وسط جنوده تحت شمس الصيف المحرقة يقطع على قدميه تلك القفار الجرداء التي خربتها الحروب حتى قارب الحدود المصرية . وهناك علم بأن جماعة من جنوده المصايين بالطاعون أصبحوا لا أمل في شفائهم وإنهم لاشك هالكون بعد قليل . فاقترح على طبيب جيشه أن يرحم هؤلاء البائسين باعطائهم جرعاً من الافيون تذهب بصوابهم فيما بقي من ساعات نزعهم . وتعجل بهم في قطع المرحلة الأخيرة من حياتهم الآليمة . ولكن الطبيب اعترض عليه قائلاً إن مهمته أن يشفي المرضى وليس أن يقتلهم ! فما كان من نابليون إلا أن سلم مكرهاً بتركهم يموتون على مهلهم تحت حراسة ثلة من جنوده أمرها بالبقاء لحراستهم حتى يسلبوا الروح ولقد كان هذا الحادث سبباً في حملة أثارها بعض المؤرخين على نابليون وأكثروا فيها من ذكر الوحشية وسفك الدماء وموت الضمير وأذاعوا تفاصيل الأمر على الوجه الذي أرادوا تصويره للناس في كافة أنحاء أوروبا وفي أمريكا ليشوهوا أعمال نابليون وليدمغوا سمعته ولن يعدم الانسان حتى اليوم مؤرخاً من هؤلاء المؤرخين ما يزال يرمى نابليون

بمثل هذه النعوت بعد أن وضحت الحقيقة وتكلم نابليون بنفسه مؤكداً أنه ما كان يتردد في طلب مثل ما طلب من ذلك الطبيب لو أنه رأى ابنه في مثل تلك الحالة التي كان يعانيتها جنوده .

على أن أخبار تلك الأيام السوداء مليئة بأعمال البر والعطف والمعونة الكفيلة بأن تخلد اسم نابليون بين أسماء أحب المحسنين لولا أن خصومه حرصوا على أن لا يعلم الناس من أمر غريمهم إلا ما يزرى به ويبخس من قدره ولذلك نسمع منهم أن نابليون فكر في تسميم جرحاه ومرضاه ولا نسمع منهم أنه بعد أن نزل عن جواده لهؤلاء الجرحى وسار هو على قدميه في قفر ملتهب ورمل غزير محرق . صادف ضابطاً من ضباطه صحيح الجسم ما زال يحتفظ بجواده تاركاً رفاقه العاجزين يحرون على الرمال المحرقة أطرافهم المهشمة فاشتد غيظه وهجم عليه في سرجه ورماه عنه بضربة من قبضة سيفه طرحته على الأرض ثم أمسك بيد أحد الجرحى القريبين منه ورفعها إلى ظهر الجواد وسط هتاف الجنود وتهليلهم لهذا العمل الانساني المجيد على أن المنزلة التي كان يتمتع بها نابليون في نفوس رجاله

كانت من السمو بحيث لم يرو التاريخ لها شديها عن عظيم من
عظمائه . فان جنوده لفرط عنايته بأمورهم وحنوه عليهم كانوا
لا يترددون في التضحية بأرواحهم لحمايته من كل ما يهدده
ويحولون بأجسامهم دون الخطر المحدق به . وقد حدث حول
أسوار عكا نفسها أنه كان في خندق من خنادق الحصار يصدر
بعض تعليماته لجنوده فسقطت قبلة تحت قدميه فما هو أن
رآها الجنود حتى انقض منهم اثنان على نابليون واحاطا جسمه
بأطرافهما وانفجرت القبلة فأحدثت فجوة في الأرض «تسع
عربة بجواديه» كما يروى الرواة فلم يلبث الثلاثة أن انهاروا
وغطتهم الانقاض والحجارة وأوشك أحد الجنديين أن يهلك
من أثر السقوط . أما نابليون فانه أصيب برضوض خفيفة
وكان أول ما عمله بعد أن أفاق من غشيته أن رفع هذين
الجنديين الى رتبة الضباط

وانك لتقرأ أخبار مثل هذه التضحية في كل صحيفة قلبها
من تاريخ نابليون والحقيقة التي لا مرية فيها أن قائداً من قواد
العالم لم يظفر بمثل ما ظفر به هو من محبة جنوده وتفانيهم في
الولاء له .

وأخيراً (في ١٤ يونيه سنة ١٧٩٩) بعد مسيرة ثلثمائة ميل على طريق قفزة وعرة وطعام تافه ضئيل وصل جيش الشام الى القاهرة . وبرهن بذلك السفر الذي استغرق ٢٦ يوماً على مبلغ ما يستطيع الانسان احتماله من الشدائد والآلام إذا ما أتيح له قائد عظيم ينفث فيه من سحر همته وينفخ فيه من روح إرادته .

(١٧) مآلة الفرنسيين في مصر .

دخل نابليون القاهرة بعد أن غاب عنها نحو ثلاثة شهور فألقى روح القلق سائداً على من خلفهم فيها من رجاله إذ كانت أخبار أهلهم ووطنهم قد انقطعت عنهم قرابة عام . وباتوا كلهم يتطلعون إلى العودة من هذه الديار التي كانوا يمنون أنفسهم قبل دخولها بقصور الرخام والمرمر فإذا هم لا يرون في بلدانها غير الطوب والآجر والتي كانوا يطمعون في لين جانب أهلها واستسلامهم فإذا هم لا يجدون فيها أمناً إذا ما ابتعدوا عن خيامهم بضع خطوات .

ولكن كان على نابليون قبل أن يفكر معهم في العودة أن يلاقى ذلك الجيش الذي جهزته له تركيا وأمدته روسيا

وعادته انجلترا وقيل عنه إنه جاء في طريقه إلى مصر . غير أنه لم يكن يعرف حتى هذه الساعة متى تصل السفن التي كانت تقل هذا الجيش ولا في أى مكان عزمت على أن تلتق مراسيها فلم ير بدا من انتظارها والتربص لأخبارها .

وفي ذات مساء بينما كان يسير صديقاً له في ظل الأهرام إذا بفارس يقبل نحوهما وقد غشيته سحابة من الغبار . فلما جاءهما ترجل وسلم نابليون رسالة كان يحملها إليه من الاسكندرية مؤداها أن أسطولا بحرياً عظيماً قد وصل مياه أبي قير ونزل منه نحو ثمانية عشر ألف مقاتل شاكي السلاح تعززهم مدفعية قوية وأن أخباراً وردت عن مراد بك بأنه في نفس الوقت يغادر الصعيد بجيش كبير لينضم إلى هؤلاء الجنود العثمانيين . فعندما وقف نابليون على هذه الأخبار الهامة قرر السير من فوره إلى أبي قير لمفاجأة تلك الحملة قبل أن تأخذ عدتها للقتال . ثم دخل خيمته وظل يملأ أوامره على أركان حربه حتى الساعة الثالثة صباحاً . وفي الساعة الرابعة ركب فرسه وخرج فيمن اجتمع له من رجاله قاصداً أبا قير .

(١٨) معركة أبي قير البرية

كانت القوة التي تيسر لنابليون جمعها في تلك الليلة نحو ستة آلاف مقاتل وكان الجنرال كليبر مكلفاً بأعداد فرقة أخرى قوامها ألفان للحاق بقوة نابليون . على أن نابليون واصل زحفه ليلاً ونهاراً بدون تمهل مدة سبعة أيام وفي منتصف الليلة الأخيرة (ليلة ٢٥ يولية سنة ١٧٩٩) أشرف على خنادق العدو في أبي قير واستطاع بخبرته الحربية أن يقدر قوة أعدائه فاذا هي لا تقل عن عشرين ألفاً لا يملك لقتالهم إلا هذه الثمانية آلاف على فرض أنه ينتظر حتى يصل إليه كليبر ومن معه . ولكنه كان يتحرق شوقاً للثأر لنفسه ولوطنه من نكبة أبي قير البحرية . ولتعويض ما أصابه فيها من الخسائر . وكان يعلم أنه لو كسر في هذه المعركة فسوف لا تقوم له من بعدها قائمة . وأن الضربة التي تصيبه فيها ستكون القاضية عليه وعلى جيشه كما كان يقدر أن النصر الذي يحزره في هذا الميدان سيفتح له طريق الخلاص من جديد . فيذهب إلى فرنسا حيث تيسر له الاشتراك في الدفاع عنها ضد الدول الأوروبية التي تألبت عليها . وهناك ميدان العمل الطلق

الفسيح . وهناك الحياة والمستقبل الواسع فقرر الهجوم من
فوره دون انتظار كبير .

وأجفل الجيش العثماني عندما أشرقت عليه أشعة الفجر الأولى
فاذا هو أزاء نابليون وفرسانه واذا بوابل من القنابل يهطل
عليهم وهم في خيامهم وخنادقهم آمنون قدب الرعب في
قلوبهم وبادروا إلى سلاحهم ولكن سرعة نابليون وعنف
هجومه كان لهما أثرهما في نشر الذعر بين صفوف أعدائه
فصاروا يتخبطون تحت حملات الفرنسيين ويروغون منهم
هنا وهناك يلتمسون التخلص من تلك النار التي تنصب عليهم
كأنما تفتحت عنها أبواب السماء فلا يجدون حولهم إلا ماء
البحر المحيط بهم . فدفعهم يأسهم إلى أن يلقوا بأنفسهم فيه
لعلهم يصلون سباحة إلى بوارجهم الراسية قريباً من الشاطئ .
ولكنهم بعد أن نزلوا في الماء أمسوا غنيمة باردة لنار الفرنسيين
وأصبح التخلص منهم لا يكلف نابليون أكثر من إطلاق
مدافعه عليهم وهم في الماء لا يملكون لها دفعاً ولا رداً وبالفعل
لم تمض إلا ساعات فلائل حتى كانت تطفو على سطح مباء
أبي قير اتنا عشرة ألف جثة خضت دماؤها زرفه الماء . ولم
يبق من رجال هذه الحملة إلا الألفي الأسير الذين وقعوا في

يد نابليون في ذلك اليوم العصيب . وبذلك تم له هذا النصر المبين . وتمكن نابليون من أن يحو بذكوه كل ما يمكن أن يكون قد علق باسمه من عار المعركة البحرية الأولى . وأمن بعده على مصير مصر . واطمأن إليه كختام باهر لتاريخه القصير في الشرق . وارتضاه شاهداً يشهد له ببراعة المقطع إذا هو ختم جهاده في ميدان من ميادين القتال !

(٢١) معمرات العودة الى فرنسا :

واتصل نابليون عقب هذه المعركة بأمر البحر الانجليزى يتظاهر بمفاوضته في أمر تبادل الأسرى وكل همه في الحقيقة أن يصل منه إلى شيء من أخبار فرنسا وأوروبا وكان السر سيدنى سميث من جانبه قد أعيته الحيل في مقاومة نابليون واقصائه عن هذا الميدان الشرقى الذى أمسى وجوده فيه أكبر مهدد للانجليز فى امبراطوريتهم الشرقية العظيمة . ففكر فى أن يشغل باله بأخبار فرنسا وما هى متورطة فيه من الحروب والهزائم (بعد أن تألف ضدها التحالف الدولى الثانى) لعله يفكر فى العودة إليها واخلاء مصر . ولذلك أرسل إليه مجموعة من الجرائد فحملها ياور نابليون من فوره

إلى خيمته فإذا هو نائم في فراشه . فناداه أنه قد حمل إليه مجموعة من الصحف الأوربية . فاستوى نابليون جالساً في سريره . وسأل بلهفة « وما هي أخبار أوربا ؟ » فأجابه ياوره بأن (شرّار) قائد الجيوش الفرنسية في إيطاليا قد انهزم أمام الأعداء وأن إيطاليا توشك أن تفلت من أيدي الفرنسيين . فوثب نابليون من سريره وأكب على تلك الصحف يقرأها حتى طلع الفجر وهو يصرخ كلما جاء على خبر يسوؤه صراخ الاستنكار والحنق . ولما فرغ من قراءته دعا إليه رئيس أسطوله ولبث معه في خيمته زهاء ساعتين وبعد ذلك قفل راجعاً إلى القاهرة .

(٢٠) مجازفة بارعة

ولقد كان من مظاهر عبقرية نابليون أنه كان إذا اعترضت طريقة عقبة أبرم فيها رأيه بسرعة البرق . ولم يكن لسرعة تفكيره في مثل هذه المواقف من شبيه إلا سرعة إجراءاته في العمل على تنفيذ أفكاره . فمعلم من الجرائد التي تصفحها بأن ملوك أوربا قد اجتمعوا لمقاومة الجمهورية الفرنسية في حلف جديد (التحالف الدولي الثاني) وانهم نجحوا

فى طرد الفرنسيين من إيطاليا وفى تعقبهم إلى الحدود الفرنسية
نفسها حتى قرر العودة فوراً إلى فرنسا ضارباً عرض الحائط
بكل ما كانت تعج به مياه البحر الأبيض المتوسط من السفن
الانجليزية والتركية والروسية . ورسم الخطة التى يريد أن تدار
بها شئون مصر بعد سفره ثم أناب عن نفسه الجنرال كليبر
ليشرف على إدارة البلاد وبعد أن تم له ذلك أعلن عزمه على
السفر إلى شمال الدلتا لفحص بعض جهاتها . وذلك لى
يصرف أذهان الناس عن حقيقة نواياه حتى لا يحدث منهم
ما يعوقه عن السفر ثم جد فى السير حتى وصل الاسكندرية
فى بضعة أيام . وفى مساء ٢٢ أغسطس خرج فى جنح الظلام
ومعه ثمانية من رجاله المخلصين وهم لا يعلمون أين يذهب بهم
قائدهم فسار بهم إلى مكان منقطع فى المينا كانت ترسو فى
مياهه بارجتان . وقد شدت إلى الشاطئ "تجاههما جملة زوارق
صغيرة . فلما جاء نابليون إلى تلك البقعة فاجأ رجاله بأنه
سيستصحبهم معه إلى فرنسا فكادوا يطيطون من الفرح
لذكرى بلادهم وأهلهم ونزلوا عن أفراسهم وتركوها
تعدو وحدها إلى الاسكندرية واستقلوا القوارب إلى
البارجتين فأقلعتا بهم تواء وما أصبح الصباح حتى غابت

عن أعينهم أرض مصر ؟ .

وكان على ظهر هاتين البارجتين خمسمائة جندي أمر نابليون بأعدادهم ليصبحوه في هذه الرحلة إلى فرنسا وليكونوا عدته إذا ما اصطدم في طريقه بيوارج الانجليز . وكان قبطان البحر الفرنسي يرغب في قطع الطريق إلى فرنسا في عرص البحر حتى لا يظل في مياهه المحفوفة بالمخاطر طويلاً ولكن نابليون أمر بأن تسير البارجتان بجوار شواطئ أفريقية الشمالية حتى لا تكون عرضة لأنظار الانجليز ، وحتى نكون قريباً من البر فننزل إليه ونسير نحن ورجالنا الأبطال ومدافعنا القليلة إلى أوران أو تونس ومنها إلى فرنسا ، وبعد أن أقاموا في البحر أربعين يوماً لاحت لهم في الأفق جبال كورسيكا فقصدوها وألقوا مراسيمهم في مياه ميناء أجاكسيو . وانتشر خبر وصول نابليون إلى أهلها فطاروا إلى لقائه والاحتفاء به وغصت الميناء بزوارقهم وأعلامهم وكلهم يدعى القرابة لذلك البطل الذي خرج هو وأمه وأخوته منذ ست سنوات فقط يلتمس النجاة من شرهم وأذاهم .

والناس من يلق خيراً قائلون له

ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

وبعد أن تزودت البعثة بما تحتاج إليه من ماء وطعام وبعد أن استطلع نابليون من الأهالي أخبار فرنسا وما لحقها من الهزائم استأنفوا سيرهم نحو تولون . ولكنهم لم يتعدوا عن شواطئ كورسيكا مسيرة يومين حتى لاحت لهم بعض البوارج الانجليزية فصاح القبطان : « إلى الورا ، ! يريد العودة إلى كورسيكا ولكن نابليون صاح بدوره : « إلى الأمام ! — فان الذهاب إلى كورسيكا يصل بنا إلى إنجلترا في حين أني إنما أريد الوصول إلى فرنسا » .

وكان ظهور تلك البوارج عقب غروب الشمس بقليل فلما أرخى الليل سدوله على الفرنسيين وحجب عنهم غرماءهم لم يعرفوا كيف يتقون الوقوع في قبضتهم وزادت مخاوفهم وضعف كل أمل في الخلاص حتى أن نابليون نفسه أمر بتهيئة زورق ليفر به اذا ما اشتبك الانجليز بمركبه وجمع كل أوراقه التي يخشى عليها أن تقع في يد أعدائه لتكون حاضرة أمامه ساعة فراره ثم ظل هو وصحابه يترقبون طول الليل على أي حال تطلع عليهم شمس الغد ولكن الحظ كان في هذه المرة أيضاً يسير في ركاب نابليون . فانه وجد نفسه في صباح اليوم التالي ازاء جبال فرنسا الجنوبية الشاهقة فاطلع في الجهة

الأخرى فاذا هو يرى أطراف البوارج الانجليزية وهى
تغيب أمامه تحت الأفق

وبعد أن قضى نابليون فى البحر خمسين يوماً وطئت
أقدامه هو ورجاله أرض فرنسا فى الساعة الرابعة من صباح
يوم ٨ أكتوبر سنة ١٧٩٩ قرب مينا فريجو Fréjus وانتشر
الخبر فى جميع أنحاء فرنسا انتشار البرق . وبلغ من فرح الناس
واستبشارهم بعودة نابليون فى تلك الضائقة التى كانوا يعانونها
أنهم هجروا قراهم ومنازلهم وخرجوا لاستقباله على طول
الطريق من فريجو الى باريس . بل لقد حدث أن نائباً من
نواب الشعب اسمه بودان Baudin بلغت به غيرته ووطنيته
أنه قضى نحبه من فرط السرور والانفعال لدى علمه بأن
نابليون ظهر فى فرنسا من جديد وأن الأمل فى التخلص من
أعداء الوطن على يديه بات قوياً عزيزاً .

(٢١) نتائج الحملة .

وجدير بنا قبل أن نختم هذا الفصل وننتقل مع نابليون
الى فرنسا أن نلقى نظرة سريعة على ما خلفته هذه الحملة
المصرية من الآثار .

فأما عن مصر فقد كانت غارقة بماليكها وحكومتها في أغوار العصور المظلمة متخلفة عن ركاب الزمن الذى سار غيرها الى ساحات التقدم والرخاء . فامتدت يد نابليون واستخلصتها من ذلك الحضيض . وكشفها لضوء الشمس وأمدتها بما تيسر من عناصر المدنية الحديثة . وأوقدت فيها تلك الجذوة التى يصح أن تعتبر بحق أساس كل ما يرى اليوم فيها من نور . فمستشفى القصر العينى الذى أنشأه نابليون كان أول ما عرفته مصر الحديثة من المنشآت العامة التى تعمل على محاربة الأمراض وتخفيف آلام المصابين وحجر رشيد الذى اكتشفه أحد رجال نابليون كان مفتاح التاريخ المصرى القديم بكنوزه وفنونه . ووضح تحت ضيائه ما استسر على العالم من تاريخ الفراعنة العظام عدة قرون . وكتاب « وصف مصر » الذى وضعته بعثة نابليون العلمية كان أول وأدق ما وصل الى علم العالم المتمددين من شئون مصر بعد الذى كتبه عنها رجال الدولة الرومانية . ولسنا نذكر فى هذا المقام ما شقته الحملة من الطرق الرئيسية فى مدينة القاهرة القديمة ولا ما أقامته من الجسور ولا ما استحدثته من البدع المفيدة ولعل آخر ما كان يتوقع القارىء سماعه فى هذا الصدد أن مدفع

الظهر الذى يطلق الآن وقت الزوال كان واحدا من تلك البدع .

وأما عن نابليون فقد صدقت فراسته فيما سيكسبه لنفسه من الشهرة والمجد بظهوره فى هذه الميادين الشرقية التى ظهر فيها قبله كبار الأبطال والزعماء . وسطع فيها نجم الاسكندر المقدونى . ولقد عاد من الحملة الايطالية تحيط باسمه هالة من السحر اكتسبها لنفسه على جسر لودى وحول أسوار مانتوا ولكنه لم يكن يستطيع أن يقوى ضوء هذه الهالة ويؤكد نورها بأكبر من ربط اسمه بتلك الأسماء التاريخية الخالدة كالاهرام ويافا والناصره .

ولقد كانت الأحوال فى فرنسا أثناء غيبة نابليون فى مصر تدعو أهلها إلى اليأس والقنوط . فان الابتسامة التى افتر لهم عنها ثغر الدهر فى معاهدة كامبو فورميو بعد حرب مهلكة استمرت نحو عشر سنوات ما لبثت يد الحوادث أن عفت آثارها فتقلص نفوذهم عن ايطاليا — ايطاليا التى كسبها لهم نابليون — وانكسرت فيها جيوشهم — تلك الجيوش التى أدهشت أوروبا تحت لواء نابليون — وتزعزع من جديد مركز الحكومة — تلك الحكومة التى حماها وثبت قواعدها نابليون

— فبات الناس ينتظرون رسولا من عند الله يقوى ضعفهم
ويشد أزهم ويقل عثراتهم . وفي تلك اللحظة ظهر أمامهم
نابليون عائدا من مصر وكأنما هبط عليهم من السماء . فالتفوا
حوله واستسلموا إليه . وكان هذا أكبر مشجع له على أحداث
(انقلاب برومير) الذى سار به خطوة جديدة نحو العرش .

الباب الثالث

في منزل نابليون

الفصل الأول : خيانة جوزفين

» الثاني : پولين فوريس

» الثالث : لقاء الزوجين

الفصل الأول

خيانة جوزفين

وضحنا في بعض الفصول السابقة كيف كان حب نابليون لجوزفين، وكيف أن تكوين هذا الرجل الخاص جعل من هذا الحب تقيماً وولها . وكيف أن ارادته الحديدية التي كان ينشئ تحت ضغطها أصلب الأعواد كانت تلين بدورها وترق حتى تصبح كالهواء أمام رغبات جوزفين . وذكرنا أن نابليون سافر وحده عقب زواجه إلى إيطاليا وأن هذا الفراق العاجل الذي جاء في غير أوانه كان نكبة على أعصابه حتى أنه ظل يرسل إلى زوجته الكتب كل يوم يتوسل إليها أن توافيه في سهل إيطاليا لتكون على مقربة منه حتى يسعد بصحبها وينصرف إلى أعداء الوطن وهو قوى النفس هادئ البال . كما ذكرنا أنها كانت تلتمس لنفسها المعاذير لتبقى في باريس حيث تنعم بمظاهر العزة والمجد الذي كسبه لها نابليون ولتتمتع وهي تمرح في ميادين اللهو بثمرة أعمال زوجها وهو يكدح في ميادين القتال . ولقد أحاط بها هناك جماعة من شبان باريس

وظرفاتها ووقفت هي منهم موقف طاحونة الهواء من خطرات
الريح : — صدر مفتوح — وذراعان مشروعتان — وجناح
ينخفض لكل هبة نسيم !

وظل نابليون المسكين على حاله يتوسل ويشكو حتى
أخرجت جوزفين وتبين لها أن السفر أمر لا مفر منه فشدت
رحالها اليه وخرجت من باريس « وهي تبكي وتذرف الدمع
السخين وتشق كأنها سائرة الى العذاب » . أما نابليون فانه
كاد يطير من الفرح للقاءها وسر بقدمها أبلغ سرور كما ذكر
مارمون أحد رجاله المقربين « لانه لم يكن يعيش إلا بها .
وأني لم أر حبا تملك قلب رجل وكان أصدق مظهراً وأشد
صفاء وأقوى اندفاعاً من حب نابليون لجوزفين » .

وأن الانسان ليحزن حقاً كلما تأمل في هذا الحب القوي
الذي كان يضمه نابليون لزوجته والذي لم تكن تبادله له
جوزفين . فأن خيبة أمل نابليون في هذا الحب قد مهدت
الطريق أمام قلبه وعينه لتبحثا لها عن ساكن جديد . ثم لما
تبين اعوجاج جوزفين بعد ذلك وتيقن من خيانتها له مع
ضباطه ورجال جيشه لم يتردد في يأسه من هذا العالم وحنقه
على أهله أن يمد عينيه إلى زوجات غيره هو أيضاً فيعاشر

بعضا ويستبي بعضا ويندمج بهذه النقائص في زمرة الفجار ويشوه بمثل ما أتاه من الفضائح جمال اسمه الرائع الوضاء .
وتفصيل ذلك أن جوزفين ما وصلت الى ميلانو حتى اتخذتها قاعدة لمقامها فكان نابليون يكاد يحسب النماطين ويكافهم في شرق ايطاليا ثم يأوى اليها كلها سمحت له ظروف القتال . أما هي فكانت في غيبته تسلك نفس مسلكها في باريس وقد أحاط بها في تلك المدينة أيضاً جمهور من الضباط الشبان الذين أخذوا يلتفون حولها باسم الإعجاب بزوجها وبيالغون في التحبب لها والتزلف اليها . وقد نسيت هي وسط أنسهم وما كانوا يتنافسون فيه من ضروب الملق نابليونها وما كان يشكو في وحدته من الوحشة « وكانت تصل اليها كتب الشوق والرجاء والتضرع التي يرسلها اليها نابليون وهي في ذلك المحيط بين صنوف الملذات وأفانين المسرات فتتحل الأعداء التي ألفتها في باريس لتؤجل سفرها إلى حيث يكون » .

على أن ذلك لم يكن ليؤثر في حب نابليون لها وإن كان الشك قد بدأ يتطرق فعلا إلى نفسه من جراء هذا السلوك الغريب . فأنت لتقرأ في إحدى رسالاته اليها وهي في ميلان :

«... كنت أؤمل أن أحصل على كتاب منك نخاف
الامل وتولاني عليك قلق مخيف.... ألا خبريني كيف
يمكنك أن تنسى من يحبك هذا الحب الشديد؟... فكرى
فى يا جوزفين ولا تعيشى لغيرى واقضى معظم أوقاتك مع
من يحبك فانى لا أخاف فى هذه الدنيا إلا مصيبة واحدة
وهى أن لا تحبنى جوزفين !» .

بل إنك لتقرأ هذا الشك وهو يساوره فى صورة أقوى
وأوضح حينما سكنت على هذا الخطاب وغيره ولم تحر جوابا
فكتب اليها يقول :

« ماذا تعملين سحابة نهارك ؟ وأى شغل هام لا يدع
لك وقتا لمكاتبة محب طيب القلب مثلى ؟ ألا خبرينى أى حبيب
جديد يستغرق كل أوقاتك ويقتل ساعات نهارك فيحول
بينك وبين مراسلة زوجك ؟ حذار حذار يا جوزفين فانى
سأباغتك ذات ليلة وأخلع باب مخدعك : أرجو أن
أضمك بين ذراعى عمى قريب وأنهال عليك بقبلات حارة
كجو خط الاستواء !»

وعلى الرغم من كل هذا النذير فقد قصد نابليون فى أواخر
شهر نوفمبر سنة ١٧٩٦ إلى ميلانو ليحظى بتلك القبلات

الاستوائية التي وعد بها زوجته ، فوجد القصر خلوا من زوجته فسأل عنها فقيل له أنها سافرت إلى جنوا لترويح النفس وحضور بعض الحفلات هناك فاستولى عليه يأس عنيف وكتب إليها يقول :

« وصلت ميلان وأسرعت إلى غرفتك تاركا كل شيء ورأى لأراك وأضمتك إلى صدرى فلم أجذك لأنك تنتقلين من بلدة إلى أخرى في طلب الأفراح والملاهي وتبتعدين عني كلما دنوت منك . ولم تعودى تهتمين (بنابليونك العزيز) لأن تقلب أهواءك مال بقلبك إليه برهة ثم مالبث أن صرفك عنه انصرافاً . على أنى رجل ألفت المخاطر وعلمتنى صروف الدهر كيف أتغلب على محن الحياة وأعالج همومها فامضى أنت في طريق مسراتك فان السعادة قد كتبت لك وأن الدنيا بأسرها لتعد نفسها سعيدة إذا أتيح لها أن تدخل على نفسك شيئاً من السرور . أما الشقاء والنكد فهما نصيب زوجك وحده دون سواه . »

وانك لتلبح من نفسك مبلغ التطور الذى طرأ على كتابة نابليون أزاء صد جوزفين عنه فانه بعد مطالبته إياها بأن تفكر فيه وأن لا تعيش إلا له أصبح يقنع بأن يتمنى لها

السرور والصفاء لأنها خلقت للسعادة والهناء ويكتفى بان
يندب سوء حظ نفسه لأنه خلق للشقاء والتكد والحرمان .
وإليك أيضاً ما كتبه لها في صبيحة اليوم التالى لترى إلى
أى مدى بلغ به اليأس وإلى أى حد من العجز والذلة هوى
به ضعف الحب :

« إن رجلا لا تحببته ليس من حقه أن تكون سعادته
أو شقاؤه موضع اهتمامك . أما عن نفسى فقد جعلت غايتى
من هذه الحياة أن أعيش لأحبك فلا تهتمى بشئون رجل
لا يستمد حياته الا من حياتك . ولو أنى تقاضيت منك أن
تحببني بقدر حبي لك إني إذن لقي ضلال مبين ! وهل أنا إن
فعلت ذلك إلا كمن يتطلب أن تزن « الدتلا » مثل وزن الذهب ؟
وإن الذنب لذنبى اذا كانت الطبيعة لم تهبنى من الجاذبية
ما أجذب به قوادك ! ولكن الذى أستحقه من جوزفين إنما
هو اعتبارها وتقديرها لأنى أحببتها هذا الحب العنيف الفريد !
وانى فى الساعة التى أعرف فيها أنها لم تعد تحبني سأطوى على
هذا السهم الدامى جناحى وأرضى من هذه الدنيا بأن أوفق
إلى تأدية خدمة نافعة لها فى أية ناحية من نواحي الحياة
هأنا أعيد فتح كتابي لأقبلك ! آه — يا جوزفين !

يا جوزفين !

فانظر كيف غلب الحب على عقل نابليون حتى أنساه أن جوزفين إن لم تكن تستطيع أن تحبه طائفة فلم يكن أقل عليها من أن تخافه وتخشاه وتنزل على إرادته ولو كارهة . فتكون إلى جواره حيث أقام وتحفظ اسمه مما يجعله مضغة في أفواه العامة . وهو الذى وجدها أرملة فأواها ووجدها عائلة فأغناها . ولكن العبرة قضت بأن يفقد نابليون العظيم ثقته بنفسه معها فينقلب آدمياً كبقية الناس ويهبط من سمائه إلى مستوى كل من ضاعت ثقته بنفسه منهم فلا يعود له ما يميزه على غيره .

ولقد كان العامل الأكبر فى غواية جوزفين وهى فى ميلانو قتي ضابطاً فى جيش نابليون اسمه هيبوليت شارل Hyppolite Charles كان قد نال حظوة التعرف اليها وهى فى باريس ثم جمعت الظروف بها فى ميلان . وكان شاباً نحيف الجسم أسمر اللون شديد العناية بملبسه وهندامه حلو الفكاهة أنيس المحضر لا يجلس فى جماعة الا ويسترعى سمعهم وبصرهم بحلاوة حديثه وخفة روحه فالت إليه جوزفين وافتتنت به وخلعت عنده ثوب حشمتها وقربته من نفسها حتى تقول

الناس عليهما الأقاويل . وبلغ شيء من ذلك أسماع نابليون
فأسرع إلى هذا الضابط فطرده من الجيش هو وكل من ثبتت
صلته من الضباط الآخرين بزوجته

ولكن ذلك جاء بعد فوات أوانه وبعد أن علفت بأذهان
الناس شهات كان من شأنها أن تخدش اعتبار نابليون وتغشى
حيناً على وضاءة اسمه المجيد .

على أن الحملة الإيطالية انتهت بما أكسب نابليون مجداً
ونفخاراً يحسده عليهما أبطال التاريخ وعادت جوزفين إلى
فرنسا وعاد هو أيضاً بعد توقيع معاهدة كامبوفورميو وافتتحا
في منزلها « بشارع النصر » عهداً جديداً كان يطمع نابليون
في أن ينسخ به صفحة الماضي وصفاتها العيش بالفعل دهرأ
الى أن نيط به أمر الحملة المصرية فزود جوزفين بنصائحه
ووصاياها ثم ودعها وداعاً مؤثراً . وقد آثر أن يسافر وحده
إلى مصر مضحياً بهنائه وصفائه في سبيل راحة زوجته وسلامتها
من التعرض لاخطار تلك الرحلة المحفوفة بالمكاره .

وأبحر هو ورجاله في شهر ما يو سنة ١٧٩٨ قاصدين الى
مصر فوصلوها على الرغم من أساطيل الانجليز وجواسيسهم
في أول يوليو من تلك السنة ودخلوا القاهرة في الرابع

والعشرين من هذا الشهر واستتب لهم الامر فيها وهكذا
سطعت في وجه نابليون ابتسامة أخرى من فم الدهر الساخر
فخيل اليه أنه أصبح سيد الشرق بأسره وأنه أصبح من القدرة
بمنزلة لا تظل آماله فيها كي تتحقق إلا ريثما تمر بخاطره
ولكن الطبيعة التي من دأبها أن ترمى بالصاعقة في سنا البرق
هيات لنابليون في هذا الصفو من أخبار خيانة جوزفين له
ما نعص عليه مقامه الجديد وما جعله يكتب إلى أخيه يوسف
هذه الرسالة التالية وفيها بتجلى يأسه من الحياة بأسرها وثورته
على الطبيعة البشرية بسبب ما فيها من العيوب والنقائص :
« أن مصر أغنى بلاد العالم في قمحها وتيلها وخضراواتها
ولحومها . والهمجية فيها على أتم ما تكون . والمال معدوم
حتى إننا لا نجد ما يكفي لسد مرتبات الجنود . أما أنا فقد
أصل إلى فرنسا في مدى شهرين . واني أكل اليك أمر مصالحي
فان أحزانا بيتية كثيرة ترهق فؤادي حيث قد انكشف الغطاء
ولم يعد يخفى على من الحقيقة شيء . وأنت الوحيد الذي بقيت
لي على ظهر هذه الأرض وليس بيني وبين (الميسانتروبيه)^(١)

(١) الميسانتروبيه mesanthropie احساس يستولى على الانسان

فيجعله يكره الناس ويهملهم وينتعد عنهم ويحقد عليهم

إلا أن أراك تخوتنى مع من سبقوك إلى ذلك ! ألا ما أشقى
الرجل الذى يركز كل عواطف قلبه فى محبة شخص واحد !
فاستمع الى ما أقول لك . انى أريد أن تعد لى منزلا فى
الريف يكون فى بورجونى أو بجوار باريس فانى أنوى أن
أعتكف فيه مدة الشتاء . لقد ضاق صدرى بالطبيعة البشرية
وأصبحت أحس بالحاجة إلى الانفراد والعزلة . وسئمت
مظاهر العظمة وجف نبع عواطفى وأصبحت وأنا فى التاسعة
والعشرين من عمري أعاف المجد وأراه قاترا لا طعم له .
لقد فنت منى هذه السكنوز جميعها ولم يبق لى إلا أن أعيش
خالصا لنفسى . فاما منزلى فسيكون لى وحدى ولن أعطيه
لكائن من كان إذ لا مطمح لى بعد اليوم فى أكثر من أن
أعيش . وداعا أيها الصديق الأوحى . انى لم أسئ اليك قط
فى حياتى ومن حقى أن تعترف لى بذلك . قبل لى زوجتك
وجيروم ! »

وهكذا نرى هذه الرسالة التى بدأها نابليون بأحاديث
القمح والخضروات تنتهى بأمر عبارات اليأس والسخط
والاشمئزاز إذ ما قيمة المجد والنصر والفتوح لرجل مثله
يصاب فى ناحية الضعف الوحيدة التى فى بنيان نفسه وهى

محبه لزوجته تلك المحبة التي تجعله يذسى نفسه معها حتى ليعتذر اليها عن ذنوبها ويكتب اليها عند يأسه منها : « كوني سعيدة فان لك السعادة والهناء وكلينى لهما فان نصيبى من هذه الدنيا الهم والشقاء ! »

لقد احتمل نابليون من جوزفين فى ايطاليا ما احتمل وكان يظن بعد أن عاد الى باريس أنها طوت صحيفة النزق التي نشرتها فى ميلان وأنها ستعيش معه بعد ذلك معيشة الزوجات الصالحات . فاذا به يعلم وهو فى مصر من الكتب التي وردت لبعض ضباطه أن زوجته عادت الى (هبوليت) وفتحت له أبواب قصرها ولم تستنكف من الظهور معه فى كل مكان أثناء غيبة زوجها بعد ما كان من طرده له من جيش ايطاليا ومن معاهدته لها على أن يعيش كل منهما للآخر مخلصا له الحب فى حضوره وغيبته وأن يصون اسمه فى قربه وبعده . فما بلغت هذه الأنباء حتى ثار لكرامته وجعل يرغبى ويزبد ويتوعد جوزفين وهو على مسيرة ستمائة مرحلة منها بالطلاق « نعم بالطلاق . . . طلاقا فاضحا واضحا أعلنه على رؤوس الأشهاد . . . لا بد لى من الكتابة الآن . . . انى أعلم كل شيء . ولست أريد أن أكون أضحوكة العاطلين من أهل باريس ! »

وعلى أثر هذه الثورة جلس نابليون فكتب إلى أخيه تلك الرسالة التي أوردت لك نصها قبل هذه السطور والتي غلب اليأس فيها على قلبه حتى ليقول :

« لقد ضاق صدرى بالطبيعة البشرية وأصبحت أحس بالحاجة إلى الانفراد والعزلة وسئمت مظاهر العظمة . وجف نبع عواطفى وأصبحت وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى أعاف المجد وأراه فاتراً لا طعم له . لقد سلبتنى يد الدهر كل أمل فلم يبق لى إلا شخصى أحيأ به حياة الآثرة والآنانية التامة المطلقة ! » .

ولقد بر نابليون فى هذه المرة أيضاً بهذا العهد الذى قطعه على نفسه وكان الدرس القاسى الذى تلقاه على يد جوزفين سبباً فى نكبة عشرات الأزواج الذين رمتهم الأقدار فى طريقه ليمثل مع زوجاتهم نفس الدور الذى مثله هيوليت مع جوزفين .

الفصل الثاني

بولين فوريس

فتاة شقراء — ذات عينين زرقاوين — وثنيا عذاب —
(موديست) صناعتها ابتكار الأزياء وتأليف ألوانها — أما
أمها فطاهية وأما أبوها فسر تعرفه أمها وحدها ولا يعرفه
الناس تلك هي بولين (Pauline) .

وتزوجت بولين وهي تناهز العشرين من عمرها فتى
ضابطا صغيرا ثم صدرت الأوامر إلى هذا الضابط بالسفر
إلى تولون ليكون مع الحملة التي أزمعت السفر إلى مصر تحت
قيادة نابليون فعز على الزوج الصغير أن يترك عروسه وراه
في فرنسا فألبسها لباس الجنود ونكرها على الناس لأن صغار
الضباط لم يسمح لهم في تلك الرحلة باستصحاب زوجاتهم —
وهبط الضابط بعروسه أرض مصر . وظل أياما وهو سعيد
بها قبل أن ينكشف أمره . . . ذلك هو الملازم فوريس .

وبقيت بولين فوريس في لباسها العسكري إلى أن كان
يوم أقام فيه نابليون حفلة في ضواحي القاهرة فخرجت هي

إلى هذه الحفلة فيمن خرج من زملائها الجنود . وقد استقل كل واحد من رفاقها حماراً وهي وسطهم على حمارها تضحك كما يضحكون وتتصايح معهم كما يتصايحون . فلفتت رخامة صوتها وحلاوة ابتساماتها انتباه نابليون فوكل بها بعض رجاله ليتحرى عن أمرها . فما لبث أن عاد إليه وقص عليه حقيقة حالها . فوقعت من نفسه كل موقع . وفكر لساعته في أن تكون له ينسب بين يديها جوزفين ويتخذها لنفسه خلية تؤنس وتسلية .

ولم يكن عزيزاً عليه وهذه نيته أن يضع لها (بتكتيكاته) الموقفة خطة تكفل له الاستيلاء عليها . وقد نفذت هذه الخطة فعلاً بأحكام عسكري دقيق فلم تدر مدام فورييس آخر الأمر إلا وهي غنيمة بين يدي نابليون .

وبيان ذلك أن ولية أقيمت باسم الجنرال بوناپرت لكبار ضباط الحملة ونسائهم وأرسلت دعوة إلى مدام فورييس دون زوجها فحاول هذا أن يمنعها من حضور الحفلة في أول الأمر . ولكنه عاد فخشى غضب رؤسائه عليه وسمح لها أخيراً بالذهاب . « وكانت المأدبة شائعة وبينما القوم في أنس وانشراح فتح الباب ودخل بوناپرت فوقف الجميع اجلالاً واحتراماً .

ثم مر بين المدعوين وهو يتسم لهذا ويحيي ذاك إلى أن وصل إلى حيث الجنرال (دبوى) ومدام فوريس وكان من حولها جماعة من الضباط والقوادفتقدم مسلها وحيا الجنرال دبوى فشكره هذا على تنزله لتشريف المأدبة ودعاه لتناول فنجان من القهوة فلبى نابليون الدعوة وجلس بين قائدين مواجهاً مدام فوريس وأخذ يحدق فيها بنظره .

ولحظت مدام فوريس من تلك النظرات الحادة التي كان يرمقها بها نابليون أنها وقعت من نفسه موقعاً عظيماً فساورتها حمرة الخجل . على أن نابليون لم يخاطبها بكلمة ولكنه شرب قهوته مسرعاً وانصرف قبل أن يفرغ المدعوون من تناول العشاء .

وكانت مدام فوريس جالسة بين الجنرال دبوى والجنرال جونو . وبينما كان هذا يتناول قهوته بعد الفراغ من العشاء سقط الفنجان من يده وانسكبت القهوة على ثوب مدام فوريس . وكان سقوط الفنجان برشاقة تامة لم يلحظها أحد . وسرعان ما أقبل القوم يحاولون تنظيف ثوب السيدة بواسطة الماء .

وما كان أشد اعتذار الجنرال جونو وتظاهره بالأسف

وازدادت البقعة انتشارا فى الثوب بسبب غسلها بالماء فاقتاد الجنرال جونو مدام فوريس إلى غرفة فى الطابق الأعلى لى تنشف ثوبها .

وهناك كان بونابرت فى انتظارها . . فبقيت معه بعد خروج جونو — ولم تبرح غرفته إلا عند منتصف الليل . وبعد هذه المأدبة بأيام صدر أمر للضابط فوريس أن يذهب لمقابلة الجنرال برتیه Berthier . فذهب فاستقبله القائد ببشاشة عظيمة وقال له :

إن حظك عظيم يا عزيزى فوريس لأنك ستعود إلى فرنسا ! فأن القائد العام (بونابرت) يريد إرسالك إلى باريس فى مهمة سرية فيجب أن تستعد للسفر بعد ساعة وهذه هى الأوامر الصادرة لقائد ميناء الاسكندرية لتسهيل سفرك .

فسقط فى يد فوريس ولم يعلم بماذا يجب ولكنه شكر الجنرال لحسن ظنه به وقال : إذا كان لابد من سفرى بعد ساعة فيجب أن أذهب وأخبر زوجتى لتستعد حالا للسفر معى . فقال برتیه : — زوجتك ! أو تظن أنك تستطيع أن تأخذها معك فى مهمة سرية يجب تأديتها بأقصى ما يمكن من

السرعة ولا سيما وأنت تعلم أنك معرض لخطر الأسر لأن
بوارج انجلترا تملأ البحر المتوسط ؟

فلم يسع فوريس إلا الخضوع . وفي الساعة الواحدة
بعد ظهر ذلك اليوم (١٨ ديسمبر سنة ١٧٩٨) ركب مركبة
خاصة قاصدا الاسكندرية . ومن هناك ركب سفينة فرنسية
تدعى (شاسور — Chasseur) وهي بقيادة قبطان يسمى لورنس .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مدام فوريس تحت مطلق
تصرف بونايرت . فاستأجر لها منزلا مجاورا لقصر ألني بك
حيث كان يقيم هو وأركان حربه وكان يقضى أكثر أوقاته
عندها أو يخرج للتنزه في مركبة وكان يصحبها أحيانا في مثل
هذه النزهة ياوره الصغير أوجين بوهارنيه ابن جوزفين . وعلم
الجيش كله بهذه الصلة الجديدة بين قائدهم ومعشوقته فلم يجدوا
تعليقا أفكه ولا أظرف من أن يطلقوا على مدام فوريس
اسم — Notre Dame d Orient أى قديسة الشرق .

أما مسيو فوريس فان الذى كان من أمره بعد أن غادر
الاسكندرية أنه رأى السفينة (شاسور) تمخر البحر متعرجة
في خط غير مستقيم . فسأل القبطان عن سبب ذلك فقال له
أنه يحاول اجتناب البوارج الانجليزية وكان فوريس قلقا

يتعجل الوصول الى باريس لينجز مهمته ويعود سريعاً الى زوجته ولكن قبطان السفينة كان يتباطأ ويتلوى في سيره كأنه يبحث عن البوارج الانجليزية ليقع في أسرها عمداً . وفي الواقع لم تمر بضعة أيام حتى التقت البارجة (ليون) الانجليزية بالسفينة (شاسور) فأسرتها ونقلت رجالها اليها . ولا تسلم عما خامر فوريس إذ ذاك من الحزن والأسف فإنه أقبل على قبطان السفينة يلومه ويغلظ له في الخطاب ويلقى عليه تبعة الوقوع في أسر الانجليز .

وبينما هو كذلك أقبل عليه مستر جون بارنت — أدهى جواسيس الانكليز يومئذ ومن أقدر الذين سعوا لنكاية نابليون — فأخذ يحادثه ليهدى روعه ويرفه عن نفسه . وكان فوريس المسكين يكاد يقتل نفسه حزناً لأنه اضطر أن يسلم الأوراق السرية التي كان ذاهباً بها الى باريس الا أن بارنت أعادها إليه بدون أن يفتحها وقال له : — خذ هذه الأوراق فانتا لم تفتحها ولا نريد أن تفتحها . وقد صدرت الأوامر بإرجاعك الى مصر وإطلاق سراحك هناك . فلم يكذ فوريس يصدق أذنيه وأدرك بارنت سبب دهشته فقال له .

نعم انك ستعود إلى مصر فترى زوجتك بين ذراعي

بونابرت ! فلم يكذب بسمع ذلك حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه
ولكن بارنت أخذ يتلو عليه ما يأتى ويرمقه من آن إلى آن
بالنظرات . قال :

« لقي الجنرال بونابرت مدام فوريس أول مرة على
الطريق بين القاهرة ورشيد . وللحال أمر برتييه رئيس أركان
حربه أن يستقصى أخبار السيدة ليعلم من هى . وفى ذلك اليوم
نفسه أعلمه برتييه أنها مدام فوريس زوجة الملازم فوريس
من ضباط فرقة الفرسان الثانية والعشرين . فأمر بونابرت
الجنرال دبوى أن يقيم فى الغد مأدبة يدعو إليها بعض النساء
الفرنسيات وفى مقدمتهن مدام فوريس بدون زوجها وفى
صباح الغد ذهب الجنرال جونوفقابل مدام فوريس على غير
علم من زوجها وألح عليها بحضور المأدبة بدون زوجها لأن
بونابرت يريد مقابلتها فأطاعت مدام فوريس ووعدت
بالحضور الا إذا منعها زوجها بالقوة .

« وفى المساء حضرت وجلست إلى المائدة بين الجنرال
جونو والجنرال دبوى وكانت موضوع سمر الجميع . وفى
الساعة التاسعة والرابع أى قبل الفراغ من العشاء دخل
نابليون مع اثنين من قواده وجلس تجاه مدام فوريس تماما

ولم يحول نظره عنها . وفي الساعة العاشرة تظاهر بالانصراف ولكنه صعد في الحقيقة إلى غرفة خاصة في المنزل حيث لحقت به مدام فوريس بعد ذلك يوضع دقائق وبقيت معه إلى منتصف الليل .

وظل نابليون يجتمع بها يوميا من سبتمبر إلى آخر نوفمبر وأخيرا اتفق معها على ابعاد زوجها ورأى نابليون أن أحسن طريق لذلك هو أن يعيده إلى فرنسا متظاهراً أنه يريد أن يرسله إلى باريس بمهمة سرية . ولكنه كان في الواقع يعلم أنه لا بد من وقوع سفينته في أسر الانكليز . وبذلك يتخلص منه ويخلو له الجو مع مدام فوريس .

ولما فرغ بارنت من تلاوة هذا التقرير التفت إلى فوريس وقال له « هذا ما اتصل بنا من وكيلنا بمصر . أما الأوراق التي تحملها والتي تزعم أنها سرية فأن عندنا صورة منها فلا شأن لنا بها . خذها وأعدّها إلى بونابرت كما هي . وستعود بك البارجة (ليون) إلى مصر . ومتى وصلت إلى القاهرة فأن أحد رجالنا سيستقبلك ويوصلك إلى منزل بشارع ألفي بك حيث تجد زوجتك بين ذراعي عشيقها ! » .

وكان كذلك فأن فوريس عاد إلى القاهرة وسار تواء إلى

المنزل الذى قيل له عنه . فوجد زوجته وحدها فطلب اليها أن تطلعه على الحقيقة . فاعترفت له بكل شيء فانها بالضرب والركل والرفس حتى كاد يقتلها . وفى اليوم التالى طلب طلاقها فأجيب طلبه .

وكان بارنت يرجو من اعادة فوريس إلى القاهرة أن ينتقم هذا لشرفه ويقتل بونابرت ولكن ظنونه لم تتحقق . وكادت الحناية تقع على رأس پولين ! .

الفصل الثالث

لقاء الزوجين

خرج نابليون من مصر كما أسلفنا وهو يعتزم طلاق جوزفين (طلاقاً قاضحاً واضحاً على رؤوس الأشهاد...) جزاء خيانتها له وعقد النية على أن يعيش بعدها حراً طليقاً خالصاً لنفسه ما دام تفانيه في حبها لم يحقق له حتى وفاءها لعهدده بله غرامها به .

فلما بلغ شواطئ فرنسا خرج الناس لاستقباله من كل مكان . وتنافس المتنافسون في تكريمه والاحتفاء به وكانت تضاء الأنوار ليلاً ويفرش طريق مركبته بالزهور وتقام له أقواس النصر . ولكنه كان يسير وسط هذه الحفاوة البالغة منكس الرأس مشغول الفكر كثير الهواجس بسبب همومه التي كان يجترها في نفسه أسفاً على ما كان من تصرفات زوجته

وكان في طريقه يلتقي السمع إلى كل من يحيط به لعله يعلم من أخبارها شيئاً فلا يسمع إلا حديث الحكومة وخذلانها والنمسا وتتمرها وجيوش فرنسا وما حل بها من الهزائم في كل ميدان . ولم يكن هو يحد في نفسه الشجاعة على بدء الناس بالسؤال عنها . والاستفسار عن شئونها فظل يكظم هذه الرغبة في نفسه حتى أشرف على باريس .

أما جوزفين فانها كانت في ولاية عند مسيو جويه Gohier (أحد المديرين الخمسة) في نفس الليلة التي انتشر فيها بباريس خبر وصول نابليون إلى أرض فرنسا فوجمت لهذه المفاجأة التي لم تكن تتوقعها وساورها قلق شديد على أثر الصدمة التي أحدثها هذا الخبر في نفسها . وذلك لأنها كانت قد انقطعت عنها مكاتبات نابليون منذ شهر بسبب وقوف البوارج الانجليزية بالمرصاد له ولرسله ورسائله . ولأنها كانت تعلم ما يعتقد الناس فيها وما يقولونه عنها فخافت أن يسبقها خصومها إلى زوجها ليقعوا بينهما ولذلك قررت القيام من فورها للقاءه قبل أن يصل إلى باريس وقبل أن يتصل به حسادها لتقطع عليهم الطريق إليه ولتحول دون سعاياتهم لديه . ولتكون هي البادئة بالهجوم — ألم تكن قاعدة نابليون

نفسه أن « الهجوم خير وسيلة للدفاع » .

وعلى ذلك أسرع إلى غرفتها فتجملت وتزينت ثم خرجت (شاكية السلاح) وهي تطمع في النصر والفتح القريب . واستقلت عند منتصف تلك الليلة مركبتها هي ولويس بونابرت أخو زوجها وهورتنس ابنتها الصغيرة وسارت في اتجاه مدينة ليون . وبعد أن واصلت الليل بالنهار في قطع هذا الطريق الطويل دخلت ليون فاذا بنابليون قد غادرها إلى باريس قبل وصولها هي بساعات . فسقط في يدها وعلمت أنها خسرت المعركة وأن نابليون سوف يدخل باريس ويجمع بأهلها قبل دخولها هي بيوم أو يومين فكاد يغشى عليها من فرط الحزن واليأس ولكنها عادت قماشكت ولم تر بداً من استئناف السير للحاق به ومحاولة الوصول إلى قلبه من جديد .

ولعل هذه الساعة كانت ساعة الانقلاب الذي حصل في عواطف جوزفين بالنسبة لنابليون . فانها ظلت طول عهدها السابق مستهترة متجنية عليه يدعوها فلا تجيبه ويستعطفها فتضحك منه وهو قانع بهذه الحال يصبر عليها ويطمع في

تحسّنها على مضي الأيام إلى أن كان ما كان من أمرها مع هيبوليت وغير هيبوليت وإلى أن كان ما كان من أمره مع پولين وغير پولين وعند ذلك انعكس الميزان بينهما إذ رآته جوزفين يكاد يفلت من قبضتها وسمعت عنه أنه يتلهى بغيرها فأكلت قلبها الغيرة عليه واستماتت في الاحتفاظ به والتودد إليه . وكان من أثر ذلك خروجها في تلك الرحلة غير الموفقة حيث وقفت هي في ليون وعرفت أن زوجها جاد في طريقه إلى باريس وعند ذلك أحست بأن الخاتمة قد دنت وأنها لن تسترد منزلتها الأولى من قلبه وأن هذا البطل الذي كان طوع بنائها وهذا الملك غير المتوج الذي كان عبد هواها قد خسرتة بخفتها وطيشها وسوء تدبيرها فتضعضت ثقتها بنفسها وانهزم كبرياؤها واستأنفت رحلتها عائدة إلى باريس لتبدأ دور الاستعطاف والتذلل بعد أن فرغ دور الأعراض والتدلل !

أما نابليون فإنه ما وصل إلى باريس حتى قصد قصر اللوكسمبورج توا وهناك قابله الحراس بهتاف يشق أطباق الجوفاء فلما سمع الأهالي هتافهم التفوا حول القصر وأخذوا يصيحون معهم « لتحي الجمهورية ليعيش بوناپرت ! » وانتشر

الاهتاف من شارع الى شارع حتى أصبحت تتجاوب به أنحاء المدينة وقرعت الأجراس وأطلقت المدافع وأخلت الملاهي والمنازل وخرج الناس من ديارهم وهم ألوف ليستقبلوا قائدهم ومنقذهم الذى نيط به الرجاء وانعقدت حوله الآمال . واجتمع نابليون فى ذلك اليوم كل من كانت تخشى اجتماعهم به جوزفين فأكد لهم نابليون نيته فى الطلاق وكرر لهم صدق عزمه عليه ولم يبق إلا أن تصل جوزفين نفسها ليصدمها تلك الصدمة الحاسمة التى بدأ تعبثها فى مصر .

وبعد يومين وصلت جوزفين ودخلت عربتها قصر اللوكسبورج فى ساعة متأخرة من ليلة ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ وكان فى استقبالها هناك ولدها أوجين ياور نابليون فى مصر فطرحت نفسها على صدره باكية متتعبة وهى ترجف كما ترجف أوراق الخريف المتساقطة . فعاونها على صعود السلم إلى حجرة نابليون وهناك تقدمت إلى بابها بيد واجفة ودفعته دفعا خفيفا فبدا لها من خلفه نابليون وقد عقد يديه على صدره ووقف جامدا كالتثال فما وقع نظره عليها حتى ابتدرها بخشونة قائلا :

« مدام ! أطلب اليك أن تنذهبي حالا إلى مالميزون ! »

فترنحت جوزفين بين يدي ولدها وبكت بكاء مرأ وعادت أدراجها تستند إلى ذراع أوجين . وكان نابليون يعلم أنها صرفت في سفرها هذا نحو أسبوع وهي تحاول لقاءه أو اللحاق به وأنها قد أنهكتها التعب وأضناها ولذلك لم يكن يتوقع أنها ستصدع بأمره فوراً وإنما ترجئه إلى الصباح لأن المالميزون Malmaison (منزل نابليون) كان يعد عن باريس بنحو اثني عشر ميلاً . فلما سمع وقع أقدامها على السلم هي وولديها ورآها تتأهب لركوب مركبتها أخذته الشفقة عليها وأسرع إلى فناء الدار ووجه خطابه إلى أوجين طالباً إليه أن يعود بأخته وأمه ليقضوا الليل وليتناولوا شيئاً من الطعام والشراب فصعدت جوزفين وهي تكاد تسقط من الجهد والاعياء وانطرحت على فراشها وهي توشك أن تكون فاقدة الصواب .

وتركها نابليون على هذه الحال يومين متتابعين وهو يضطرم شوقاً إليها وحنقاً عليها . واحتشدت في رأسه كل الذكريات الماضية واستعرض أيامه الأولى معها وما كان يلقاه

عندها من السعادة والهناء ثم تذكر الأيام التي قضاها بعيداً عنها في مصر — وذكر بولين وكيف أنها على الرغم من كل حسناتها وجمالها لا يمكن أن تضارع جوزفين في سحرها وفتنتها وعائده العطف على زوجته فقصد إلى حجرتها في اليوم الثالث وفتح بابها رويداً رويداً فإذا هي جالسة إلى مائدة صغيرة نثرت عليها رسائله التي كان يبعث بها إليها من مصر وقد اعتمدت رأسها بيديها وفي قلبها جيش من الأحزان والأكدار فتقدم نحوها في تردد ورفق ثم ناداها بقوله :

— جوزفين !

فأجفلت ورفعت عينيها المتقرحتين قائلة بصوت مختنق .

— يا عزيزى ! Mon ami

فهزت نبرات صوتها قلب نابليون ووقع هذا النداء القديم المحبوب موقعاً مؤثراً من نفسه فمد إليها ذراعيه . فطرحت نفسها بين يديه وألقت رأسها الموجه على صدره وغلب عليها التأثر فأجهشت بالبكاء .

ودار بينهما عتاب تصافيا من بعده وفي اليوم التالي أطلعت
جوزفين على ديونها وكانت تتجاوز عشرات الآلاف من
الفرنكات فدفعها راضياً ولم يفه بكلمة اعتراض ! .

الباب الرابع

نابليون رئيس حكومة فرنسا

الفصل الأول : — حالة فرنسا في غياب بونابرت

» الثاني : — انقلاب برومير

» الثالث : — دستور سنة ١٧٩٩

الفصل الأول

حالة فرنسا في غياب بوناپرت

لما سافر نابليون إلى مصر حسبت حكومة (الديركتوا) أن الجو خلا لها من منافسها الخطر . وأنها أصبحت تستطيع أن تسترد نفوذها وتثبت شخصيتها بتصرفاتها النافعة وأعمالها الرشيدة المفيدة .

وكانت السياسة التي رسمها رجال الثورة بفرنسا والتي تولت حكومة الديركتوار تنفيذها هي نشر المبادئ الديمقراطية ونظام الحكم الجمهوري في سائر أنحاء أوربا لتكون فرنسا بحكم سيادة هذا النظام صاحبة النفوذ على دول هذه القارة جميعها . وهذه السياسة نفسها هي التي اتبعها نابليون في خلال الحملة الإيطالية . وكان من آثارها إنشاء جمهوريتي شمال إيطاليا .

وقد حدث بعد ذلك أن نزاعا قام في ولايات البابا بين الحزب الوطني فيها وبين البابا بيوس السادس Pious VI (ديسمبر سنة ١٧٩٧) وقتل بسبب هذا النزاع ضابط فرنسي

في السفارة الفرنسية . فبادرت الحكومة بتسيير حملة إلى روما
أسقطت البابا عن عرشه وقلبت حكومة البابوية إلى حكومة
جمهورية وجعلت هذه الحكومة الجديدة تحت حماية فرنسا
(١٥ فبراير سنة ١٧٩٨) .

وكانت سويسرا أيضاً بحكم متاخمتها لفرنسا قد تأثرت
بمبادئ الثورة وقام أهلها بفتنة ضد حكومتهم يسعون إلى
قلبها وإقامة حكومة جمهورية فيها كحكومة فرنسا فانتهزت
الديركتوار هذه الفرصة واحتلت البلاد السويسرية وقلبت
نظامها الاتحادي إلى نظام جمهوري (ابريل سنة ١٧٩٨) كما
فعلت في روما .

ومذ رحل نابليون إلى مصر في مايو سنة ١٧٩٨ لم تفتأ
حكومة الديركتوار تتحين الفرص لتوسيع دائرة نفوذها
فنجحت بادية الأمر في بسط سلطانها على بعض الولايات
الاطالية ولكنها لم يكن من السهل عليها بعد ذلك الاحتفاظ
بفتوحاتها وذلك لعدم كفاية مديريها وعجزهم عن حفظ النظام
في فرنسا نفسها فضلا عن إدارة فتوحاتها الخارجية

وكانت الدول الأوروبية العظمى تستنكر سياسة فرنسا ،
ولا تنظر بعين الارتياح إلى ما تصدت لنشره من المبادئ

الديمقراطية ، فتألف ضدها حلف جديد من روسيا ،
وانجلترا ، والنمسا ، وتركيا ، وناپولى ، والبرتقال^(١) . واتفق
المتحالفون على أن يطبقوا على حدود فرنسا من كل صوب
ليخرجوا منها ما حشر فى دائرتها غصباً . فنجحوا فى ذلك الى
حد بعيد ، وهزمت جيوش فرنسا فى النمسا وفى ايطاليا ...
وكانت أخبار هذه الهزائم هى التى دسها السير سدن سميث
الى نابليون وهو فى مصر ليجذبه بها الى فرنسا ، وكان بعد
ذلك ما سبق لنا يئانه من ركوب نابليون البحر فى جماعة من
صحابه وعودته الى أوربا لينظر ماذا فعلت الحكومة بتراث
المجد الذى كسبه لفرنسا هو وجنوده الشجعان على ضفاف
نهر البو وفى معاهدة كامبو فورميو
على أن الحالة فى فرنسا كانت أسوأ مما صورته

(١) كان لكل واحدة من هذه الدول سبب خاص للاشتراك فى هذا
التحالف الدولى الثانى . فالروسيا كانت غير مرتاحة لانتزاع الفرنسيين لما لطا
من يد الفرسان الذين كانوا تحت حماية القيصر . وانجلترا كانت ترغب فى
اخراج الفرنسيين من مصر . والنمسا لم تنظر بعين الارتياح الى احتلال
الجيوش الفرنسية لسويسرا . وناپلى لم ترض كذلك عن انشاء جمهورية
تجاورها بدل امارة البابا . والبرتقال كانت حليمة لانجلترا . وكانت تركيا
تعتبر دخول الفرنسيين فى مصر اعتداء عليها .

الجرائد التي استفزت عواطف نابليون في خيمته المنعزلة عند أبي قير فان حالة الأمن كانت من الفوضى بحيث لم يعد يأمن معها تاجر على تجارته ولا مالك على ملكه ، إذ كانت تنهب الأموال ويسطو اللصوص على المتاجر جهارا نهارا ، ولم يكن يمر يوم في باريس من غير أن تتناقل الأندية فيه خبر مقتل بعض الصيافة ونهب أموالهم ، أو خبر سرقة جديدة جريئة لمخزن بعض الجواهريين أو لصندوق دار من دور التجارة الكبيرة ، وكثر اقتحام اللصوص للاستطبالات ودور الذخيرة لتزويد أنفسهم بالخليل والبارود ، وانتشرت عصابات الشر في كل مكان ، وعجز البوليس عن مطاردتها وضط المجرمين ، وانقطعت الطرق وتعطلت التجارة ، وساد البوار على الأسواق ، وكانت الثورة في بدء حربيها مع الاشراف وامتيازاتهم قد اكتسحت رجال الدين وكنائسهم وسخرت من طقوسهم ونبذت عقائدهم فأصبح الناس وليس لهم ضابط يضبطهم من دين أو خلق ، وراجت بينهم سوق الخلاعة والتهتك وارتد المجتمع الفرنسي الى حالة تشبه الهمجية الأولى وعمت الشكوى من هذه الحالة ولم يجد الشعب أمامه من يلقي عليه مسئولية هذه الفوضى غير الحكومة . فأبدى

تبرمه بها وسخطه عليها وبذلك سقطت هيئتها وضعفت كلتها
وزاد تخطيطها وارتباكها وتطلع الناس من كل ناحية إلى يد
قوية تنشلهم من هذه الوهدة التي تردوا فيها ، وفي وسط هذه
الضائقة ظهر نابليون فجأة في فرنسا يحمل على رأسه كاليل
المجد التي صاغها لنفسه في ميادين مصر والشام ، فطرح الشعب
تحت قدمه آماله وآلامه واستقبله ذلك الاستقبال الفخم
الذي أتينا على وصفه في الباب السابق وأدرك نابليون أن
الساعة ساعته فلم يتردد في تلبية نداء الشعب واتهاز هذه
الفرصة لقلب الحكومة واستلام مقاليد الحكم

الفصل الثاني

انقلاب برومير^(١)

ليس من الأمور الميسورة أن يقوم فرد أو جماعة بقلب نظام الحكم في أى بلد من البلاد . وكثيرا ما تصحب حركات الانقلاب ثورة أو حرب داخلية تجر في ذيلها كثيرا من الويلات .

وهناك شروط لا بد من توفرها في الحكومة التى يراد قلبها ، وفي الشعب الذى تحكمه هذه الحكومة لكي تتم حركة الانقلاب فى هدوء ومن غير اراقة للدماء ، فكلما كانت الحكومة ضعيفة مكروهة كان من السهل قلبها وكلما كان الشعب أميل الى التساهل والاستسلام كانت حركة الانقلاب مأمونة العاقبة — ولكن على الرغم من ضعف حكومة الديركتوار وقوة مركز نابليون ورغبة الشعب فى التخلص من تلك الحكومة الضعيفة فقد كانت أمام نابليون عقبات جمة يجب عليه تذليلها قبل أن يقدم على قلب تلك الحكومة

(١) برومير فى تقويم الثورة الفرنسية اسم الشهر الذى يوافق شهر نوفمبر

في هدوء وسكينة وبدون أن يلتجئ إلى القوة المادية والسلاح -
وذلك أن رجال الديركتوار أنفسهم وهم الذين ما تزال
السلطة التنفيذية في يدهم كانوا بحكم مركزهم أول من يعترض
طريق نابليون ويقف في وجهه .

وكان في فرنسا غير هؤلاء قواد ينافسون نابليون
وينظرون بعين الريبة والتوجس إلى كل حركاته . ولا يمكن
أن يرضوا بسيادته عليهم . وكان من وراء هؤلاء جنود يحبونهم
ويطيعون أمرهم . وكان لابد لنابليون أن يتفادى التصادم
مع هؤلاء إذا هو أراد أن يقلب الحكومة دون أن يثير
حرباً أهلية .

وكان هناك غير هؤلاء وأولئك رجال من سياسة فرنسا
(كاليعاقبة مثلاً) تتفق مصالحهم مع بقاء حكومة الديركتوار
وهم لهذا السبب يقفون ولا شك موقف المعارضة من كل
من يريد المساس بنظامها

وما دما في معرض الكلام عن الهيئات التي لا بد أن
تقف في طريق الانقلاب الذي أراد نابليون إحداثه فليس
لنا أن ننسى ذكر مجلس النواب (مجلس الخمسمائة) ومجلس
الشيوخ وهما عماد الدستور الذي اعتمد نابليون القضاء عليه

فكل هذه القوى كانت في وجه نابليون . وكان هو
أحرص من أن يدفع نفسه بينها قبل أن يرسم طريق خطواته
خطوة خطوة ليضمن سلامة الوصول . فاعتزل الجماهير
وعكف على دار الأكاديمية يشترك مع رجالها في بحوثهم
ويحاضرهم عن قناة السويس وحجر رشيد يريد من ذلك أن
لا يلتفت أنظار الأحزاب السياسية إلى شخصه حتى يطمثوا
إليه ويأمنوا جانبه ويتمكن هو في ظل غفلتهم هذه من تدبير
أمره وأحكام خطته :

وكان في فرنسا في ذلك العهد أحزاب ثلاثة :

(١) — الحزب الملكي — وكان أعضاؤه يعملون في
الخفاء على إعادة الحكم في فرنسا إلى أسرة بوربون التي قتل
آخر ملوكها (لويس السادس عشر) أثناء ثورة سنة ١٧٨٩ .

(٢) — حزب اليعقوبيين — وكان أعضاؤه من
الديمقراطيين المتطرفين الذين يعملون على استبقاء الحكم في
يد الشعب . وكان باراس (أحد المديرين الخمسة) زعيم هذا الحزب

(٣) — حزب الجمهوريين المعتدلين — وزعيمه الأب
سياس (أحد المديرين الخمسة أيضا) وكان أعضاؤه يرغبون

فى تعديل نظام الحكم لفشل الديركتوار وعجزها عن إدارة
شئون البلاد .

وعلى الرغم من أن نابليون لم يكن يريد أن يشترك أحد
معه فى تديراته إلا أنه أراد أن يستغل الحزب الأخير وزعيمه
لتسهيل العمل الذى اعتزم القيام به . فاتصل بسياس وتم
الاتفاق بينهما على وجوب استقالة (المديرين) أولاً حتى إذا
سقط ركن من أركان الحكومة بسقوطهم تشكلت لجنة
تنفيذية من ثلاثة قناصل مؤقتين تكون مهمتهم اعداد
دستور جديد .

وهذه الفكرة — على بساطة ظاهرها — لم يكن من السهل
تنفيذها دون التعرض لأخطار كثيرة ومقاومات عنيفة .
فأن (المديرين) الخمسة مثلاً وهم سياس Sieyès وديكو
Ducos وباراس Barras وجوهيه Gohier ومولان Moulins
لم يكن من الميسور اقصاؤهم عن مراكزهم . وكان لابد من
اغراء بعضهم على الاستقالة بالمالى والوعود وحمل الآخرين
على التخلي عن مناصبهم بالقوة عند اللزوم .

ولما كان كل ما حدث فى الانقلاب الذى نحن بصدد
إنما هو فى الواقع ثمرة النديرات التى قام بها نابليون فلسنا

نحاول هنا شرح هذه التدابير ولكننا نكتفى بعرض الحوادث كما وقعت وهي تتم من نفسها عن الاجراءات التي اتخذت في سبيل تحقيقها .

١٨ برومير :

ففي فجر يوم ١٨ برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) خرجت الفرق العسكرية في باريس من ثكناتها وهي تهرز بموسيقاها أرجاء المدينة .

وفي الساعة السادسة صباحا من ذلك اليوم انعقد مجلس الشيوخ — ومنذ تلك الساعة بدأ يتوافد على منزل نابليون كبار الضباط الذين كانوا يلحون في مقابلته والاجتماع به منذ عودته من مصر — وذلك بناء على موعد سابق بُلِّغ على حدة لكل ضابط من هؤلاء الضباط .

وفي الساعة الثامنة كان منزل نابليون يموج بالزائرين حتى لم يعد يتسع لهم جميعا فخرج بعضهم إلى الشارع يذهبون أمام بابه ويحيئون .

وفي تلك الساعة تقدم إلى مجلس الشيوخ اقتراح بطلب جعل اجتماع اليوم التالي في ضاحية سان كلود S' Cloud بدلا من باريس حيث يشاع أن مؤامرة تدبر فيها ضد أعضاء

المجلسين للتأثير عليهم والتدخل في شئون الحكومة^(١). فتقرر ذلك كما تقرر تعيين نابليون بونابرت محافظا لباريس وقائدا لقوات الدفاع فيها .

وعقب صدور هذا القرار حمله رئيس مجلس الشيوخ بنفسه الى منزل نابليون فخرج به نابليون الى شرفة في منزله وأطل منها على ضيوفه ثم تلا عليهم ذلك القرار . وخاطبهم قائلا : « أيها السادة ! هل تعدون بمعاويتي في العمل على انقاذ الجمهورية ؟ » .

فصاح الحاضرون في صوت واحد قائلين : « نقسم لك ! نقسم لك ! » .

ونزل نابليون فأمر بأن يتلى هذا القرار على الجنود ليحيطوا به علما وركب هو في وسط الضباط الذين كانوا بانتظاره وما كادوا يتجاوزون حدود المنزل حتى اتصلت بركابهم كوكبة من الفرسان يبلغ عددها نحو ألف وخمسمائة فارس كانوا ينتظرون هذه الساعة . فطلع هذا الموكب الفخم

(١) كان المقصود من الانتقال إلى سان كلو أن يعرّد نابليون بأعضاء المجلسين ليسهل عليه التأثير فيهم ولأن الانقلاب يهدوء بعيدا عن شعب باريس .

على أهل باريس فدهشوا له دهشة النائم للحلم الرائع الغريب .
وسار نابليون في طريقه حتى بلغ سراى التويلرى وهناك
تقدم الى مجلس الشيوخ ليحلف اليمين الخاصة بمنصبه الجديد .
وكان المديرون الخمسة فى تلك الساعة مجتمعين فى قصر
اللوكسمبرج . فذهب اليهم من أبلغهم قرار مجلس الشيوخ .
فتقدم الآب سيايس لدى سماع الخبر وقدم استقالته من
الحكومة (طبقا للاتفاق السابق مع نابليون) وتبعه فى ذلك
ديكو . أما باراس فأنه أرسل مع سكرتيره احتجاجا على ما حدث
وذهب به السكرتير الى سراى التويلرى حيث يجتمع البرلمان
فراه نابليون وما كاد يطلع على الخطاب حتى انفجر فيه أمام
الحاضرين قائلا :

لقد تركت فرنسا هادئة ظافرة . وهاءنا أجدها تنوء
تحت أثقال الذل والانقسام . لقد تركت جيوشا جرارة منيعة
الجانب . وهاءى الآن من نجا فيها من الموت لم ينج من
الهزيمة . أنى أسأل ماذا أصاب رجالى الذين عاونونى فى أعمالى ؟
إنهم ماتوا ! إهم هلكوا فى ميدان البؤس والتعاسة ! إن من
جر على البلاد مثل هذه الويلات لا ينبغى أن تمتد بعد اليوم
يده إلى شئوننا العامة ! إنه يجب أن ينسحب من الميدان

ويقضى بقية ايامه مطمورا تحت أطباق الاهمال والنسيان ،
أما السكرتير المسكين فإنه كاد يتناثر تحت هذه العاصفة
التي انفجرت في وجهه وتسلى بين الناس منكس الرأس ثقيل
الخطا — وأما باراس فإنه بادر الى الاستقالة حتى لا يحيق به
غضب نابليون . وبذلك سقطت أغلبية الهيئة إذ لم يبق من
أعضائها إلا اثنان وهما جوهيه ومولان . غير أنهما أصرا
على التمسك بمناصبهما الى النهاية . بل لقد بلغ الأمر بجوهيه
أن يواجه نابليون وينبئه الى عدم الاخلال بواجباته نحو
الدير كتوار . فما كان من نابليون إلا أن أجابه بقوله : أى
دير كتوار ؟ إن الدير كتور الآن لا وجود لها والجمهورية
في خطر . ولا بد لنا من تخليصها . تلك إرادتى ! وقد استقال
سياس وديكو وباراس وأنى أنصح لكما أن لا تفكرا في المقاومة .
غير أنهما بقيا على اصرارهما فأمر بهما نابليون فأعيدا
إلى قصر اللوكسمبرج . وعزل كل منهما عن صاحبه فى غرفة
خاصة به وبقي فيها (تحت الحفظ) .

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم اجتمع
مجلس الخمائة . وأبلغ قرار مجلس الشيوخ الذى يقضى بأن
ينعقد المجلسان فى صباح اليوم التالى بضاحية سان كلو . فلم ير

المجلس سيلا للاعتراض لأن ذلك القرار كان من حق مجلس الشيوخ اتخاذه ما دامت تدعو إليه الظروف وعلى ذلك انفض الاجتماع . وتحققت نصف آمال نابليون بسقوط الهيئة التنفيذية من حكومة الديركتوار . لم يبق إلا أن ينعقد المجلسان في صباح الغد ليقررا تشكيل الهيئة الجديدة التي يناط بها إعادة النظر في الدستور

وأكب نابليون من فوره على تدبير شئون ذلك الغد فقرر أن يربط الجنرال Lannes في سراي التويلري . وأن يسير الجنرال مورا Murat إلى سان كلو وأن يبقى الجنرال Moureau في اللوكسمبرج لحراسة جوهيه ومولان . واقترح سيايس أن يأمر نابليون بالقاء القبض على زعماء اليعاقبة الذين تخشى معارضتهم في جلسة الغد . ولكن نابليون استنكر منه هذا الاقتراح وأكد له رغبته في أنه لن يعمل عملا إلا في ظل القانون .

وفي وسط تلك الحوادث الخطيرة التي ازدحمت بها ساعات ذلك اليوم المشهود لم ينس نابليون زوجته جوزفين التي كانت تنتظر في منزلها أخباره بغاية القلق وفارغ الصبر فكان يرسل إليها كل ساعة رسولا يخبرها بما تم وأخيرا عاد إليها بنفسه في

ساعة متأخرة من الليل . وأعاد على مسامعها قصة النهار فباركته وزودته بدعواتها الصالحة ؟ ليصيب في غده من التوفيق مثل ما أصاب في يومه . ثم تركته يستجم نشاطه لمعارك اليوم التالى وانقلبت الى فراشها لتحلم بذلك الملك الواسع الذى سوف يتفتح لزوجها بعد يوم سان كلو . . .

١٩ برومير :

وفي صبيحة اليوم التالى خرج نابليون مبكرا على ظهر جواده ومن حوله حاشية ملكية نفخة وكان اليعاقبة قد تحفزوا لأبداء معارضتهم الشديدة لقرارات الأمس فمارأوا حدائق سان كلو تعج بالجنود حتى تعززت وسأوسهم وأوجسوا شرا وصاحوا « ليسقط الطاغية ! » « الموت للظالم ! » « ليحيى الدستور ! »

ولم يكذ ينعقد المجلس حتى اقترح بعضهم أن يعيد الأعضاء من جديد حلف يمين الولاء للدستور واستحسن النواب هذا الاقتراح فساروا الى المنبر واحدا واحدا حتى لوسيان أخو نابليون رئيس المجلس وجددوا يمينهم التى أقسموها قديما للحفاظ على الدستور واحترام أحكامه واسترسل النواب بعد ذلك فى حماسهم فاقترح آخرون أن يقرر المجلس أن

نابليون (خارج على القانون) وكان مثل هذا القرار لا يصدر في حق انسان إلا توطئة للحكم عليه بالاعدام .

فأمام هذا الخطر الداهم اقترح نابليون مجلس الشيوخ وصعد منبر الخطابة فيه ثم قال « أيها السادة ! انكم تعيشون هنا على فوهة بركان ولقد رأيتم الخطر المحدق بالجمهورية فدعوتموني الى معوتكم . تخففت اليكم . ولكن هاءنا الآن تهاجمني جيوش القذف والمفتريات واصبحت أسمع الناس يذكرون قيصر وكرومويل والاستبداد العسكري ! ونحن هنا تحقق بنا المخاطر ويدهم حولنا ليل النكبات . وقد سقطت حكومتنا واستقال مديرونا واستحكمت الفوضى في مجلس الخمسة . وأرسل الرسل الى باريس لأشعال نار الثورة فيها وود المشاغبون لو أعيدت محاكم الثورة — ولكن ثقوا بي واطمئنا الى معوتي ومعوتة رجالي . وعلم الله ما لي في ذلك من مغنم لنفسي إلا أن أقوم بواجبي نحو الجمهورية وسلامتها . وأقسم لأحمين مبدأ الحرية والمساواة الذي ضحينا من أجله كل ما ضحينا ! »

وهنا صاح به من جانب الندوة صائح يقول « والدستور ! » فعقدت هذه الصدمة لسان نابليون برهة لأنه أغفل ذكر

الدستور عن قصد . ولكنه ما لبث أن توجه نحو المعارض وهو يقول — « الدستور ؟ أتم ليس لديكم دستور ! فلقد هدمتموه يوم تركتم السلطة التنفيذية تتدخل في شؤون السلطة التشريعية ! وهدمتموه يوم تركتم السلطة التشريعية تعتدي على استقلال السلطة التنفيذية ! وهدمتموه يوم تركتم السلطين تفتتان على حقوق الشعب وسيادة الأمة بإلغاء انتخابهم ! أنى أعجب لكم كيف تذكرون الدستور بعد أن صيرتموه مهزلة . كلكم يحتج به وليس فيكم من يرعى أصوله ويجرى على أحكامه ! »

وكان أعوان نابليون وأنصاره قد سرى الى نفوسهم قبل هذا الخطاب شيء من الضعف وخانت عزائمهم لاسيما بعد أن وصلت إلى علمهم أخبار مجلس الخمسة وتحفز أعضائه ضد نابليون ولكنهم بعد أن سمعوه وهو يحمل هذه الحملة على معارضيهِ . وبعد أن رأوا أثر كلامه في النفوس عاودهم الأمل واستردوا أنفاسهم المعلقة فقاموا يؤيدونه ويعلنون ثقتهم به واعتمادهم عليه .

أما نابليون فإنه ما كاد يفرغ من كلامه في مجلس الشيوخ حتى أسرع الى مجلس الخمسة يريد أن يحول بشخصه دون

تملك القرارات الخطرة التي كان يعمل أعداؤه على استصدارها وإبقاعه في شباكها فقابله أوجيرون في الطريق فابتدره بقوله « لقد ألقيت بنفسك في مأزق حرج ! » فأجابه نابليون : « إن الظروف على جسر أركولا كانت أخرج منها هنا . فاطمئن . ولسوف ترى في مدى ساعة أن كل شيء قد تغير مجراه ! »

ودخل نابليون مجلس الخمسمائة واتجه فوراً إلى المنبر يريد أن يخطب الأعضاء ولكنهم ما كادوا يرونه في وسط قاعتهم حتى هجموا عليه وتنافسوا في الوصول إليه وإيقاع الأذى به غير أن جنوده لحسن الحظ كانوا أسبق منهم إلى الإحاطة بجسمه وصيافته من خناجر خصومه . ولما رأوا أن الكلام متعذر عليه في هذا الهياج وأن حياته نفسها في خطر حملوه خارج القاعة وهو فاقد الصواب . وانقلب النواب فيما بينهم كالبحر الهائج يمزج بعضهم في بعض . وتعالّت أصواتهم . واختل نظامهم . ولم يستطيع لوسيان بوناپرت رئيس ندوتهم أن يحفظ نظام الجلسة . بل إنه لم يستطع دفع عدوانهم عليه باعتباره شقيق (الطاغية) . فانسحب من بينهم وخرج إلى الحديقة حيث لحق بأخيه وهناك وقف يخطب الجنود ويحضهم على دخول القاعة « وطرده (الخونة) منها—أجراً (ولیم بت)

الذين اتخذهم أعداء الوطن سلاحاً للقضاء على مجده وسيادته « ولكن الجنود وقفوا ذاهلين ولم يستجيبوا لندائه فاخطف سيفاً من بعض الضباط الذين كانوا إلى جانبه وصوبه نحو قلب نابليون وقال « أقسم لا كونن أول من يغمد سيفه في هذا الصدر لو أن أخى اراد بالجمهورية سوءاً فاتبعونى ننقذ الوطن من أعدائه . » وهنا ثارت حمية الجنود ودخلوا القاعة بسلاحهم لطرد النواب منها ولم تمض على هذه الحيلة دقيقتان حتى كان آخر النواب يقفز من أقرب نافذة إليه يلتمس الفرار والنجاة بنفسه من تلك الحراب .

ولم يكذ يفيق نابليون من تلك الغاشية حتى عمل على جمع فريق من النواب والشيوخ الموالين له وجعلهم يقررون أن جنوده بأنقاذ الموقف قد استحقوا تقدير الوطن وأن السلطة التنفيذية قد انتقلت من يد (المديرين) الخمسة إلى يد ثلاثة (قناصل) هم نابليون وسيائس وديكو وتقرر فى نفس تلك الجلسة أن تتألف لجنة من كل من المجلسين لتشارك مع القناصل الثلاثة فى وضع الدستور الجديد (١) .

(١) كان نظام (الفصلية) من مسكرات الجمهورية الرومانية وقد اقتنسه رجال الانقلاب فى فرنسا تشبهاً بتلك الجمهورية البطيمة

وفي مساء ذلك اليوم التاريخي المشهود (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩) راجت في باريس اشاعة مؤداها أن حركة نابليون قد فشلت . فغلب الذعر على قلوب الناس وخافوا أن تعود سيطرة اليعقوبيين بعهد إرهاب جديد . ولكن أذيع في الساعة التاسعة من تلك الليلة (بيان) أملاه نابليون في سان كلو وشرح فيه النتائج التي أدت إليها حوادث النهار وأعلن فيه سقوط حكومة (الديركتوار) وقيام حكومة (القنصلية) فكان الناس يتهاقون على هذا البيان في الطرقات ويقفون لاستماعه مستبشرين وقد عادت اليهم الطمأنينة لثقتهم بأنهم باتوا على باب عهد جديد — عهد يلقون فيه عن أكتافهم أعباء الحكم التي أثقلتهم عشر سنوات متوالية . ويسلمون فيه قيادهم إلى يدى ذلك البطل الذى فاقت انتصاراته السلبية انتصاراته فى ميادين الحروب . ويقرنون فيه نجمهم بنجمه الموفق السعيد .

~ * ~

وظل نابليون مشغولاً فى سان كلو حتى الساعة الثالثة صباحاً ثم ركب عائداً الى باريس وإلى جواره كاتم سره Bourienne ولكنه لم يفه بكلمة واحدة طول الطريق .
وأخيراً وصل الى باريس وسار الى منزله « بشارع النصر »

فرأى جوزفين تنتظره في نافذة غرفتها فما هو أن وقع نظرها
على عربته حتى هرعت إليه فتلقاها بين ذراعيه وأخذ يقص
عليها أخبار ذلك اليوم المشهود .

وبعد أن تبادلا التهاني على ما هيا الله لهما من أسباب
السعادة قصد نابليون إلى سريره فألقى عليه جسمه المتعب
وهو يقول :

« طاب ليلك يا جوزفين ! ... غدا تمام في قصر
اللوكسمبرج ! »

الفصل الثالث

دستور سنة ١٧٩٩

وقع الانقلاب الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق فى مساء ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ وتقرر فى نفس المساء أن تتشكل لجتان قوام كل واحدة منهما ٢٥ عضوا ينتخبون من بين أعضاء المجلسين التشريعيين لمعاونة القناصل فى وضع الدستور الجديد وفى صبيحة اليوم التالى (١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩) التقى القناصل الثلاثة الموقتون فى قاعة بقصر اللوكسبرج كان من بين أثاثها كرسى نفخ عظيم فاتجه اليه نابليون بكل ثبات وقعد فيه . فما كان من « سيايس » إلا أن قال متذمراً .
— أيها السادة ! لمن سيكون هذا الكرسى ؟
فأجابه ديكو :

— « لبونا برت طبعاً ! إوها هو جالس عليه فعلاً ! وانه للرجل الوحيد الذى يستطيع انقاذ الموقف ! »
وهنا تحرك نابليون بدوره قائلاً :

— « حسننا أيها السادة . فلنبدا الآن بالعمل ! »
وكان سيايس صاحب فكرة الدستور الجديد . وكان
قد رسم نظامه على أساس ألا تكون السلطة فيه بيد نابليون
لأنه يخشى نفوذه ويعرف فيه هذا التهمج الذي لا يترك مجالا
لمن معه أن يتقدم عليه . فلما وقعت تلك المشادة البسيطة على
كرسي الرئاسة . وانهزم فيها سيايس صبر نفسه بأنه سوف
ينتقم لها منى جاء دور الكلام في الدستور ونظامه . فانه كان
قد وزع السلطة التنفيذية فيه بين قنصلين جعل لهما السلطة
الفعلية في إدارة شئون البلاد . وعلى رأسهما — « ناخب
أعظم » — يتناول مرتبا قدره ٥٠٠٠.٠٠٠ فرنكا في السنة .
ويقع في قصر فرساي ليمثل الدولة تمثيلا سياسيا ويكون له
من الملك أبهته ومنظره دون أن يكون له شيء من نفوذه
وسلطته .

وكان سيايس موقنا في نفسه بأن نابليون سوف يقبل
مركزه الناخب الأعظم « راضيا مسرورا لأنه كان — في
رأيه — مصابا بداء العظمة وحب الظهور . وبذلك تتول
السلطة اليه هو وصاحبه الآخر (ديكو) . ولكنه لم يكن في
الواقع يعرف زميله الكورسيكي حق المعرفة . فان نابليون

لم يكن يسعى وراء مثل هذه المظاهر التي كان يحاول أن يهره بها سيايس ليليه عن السلطة الفعلية . . . وعلى عكس ذلك أتاحت الفرصة لنايليون ليعرف مقدار نفس صاحبه ومبلغ عقليته فيعامله بما يستحق من الزراية والتحقير . وذلك أن سيايس فى نفس ذلك اليوم الذى اجتمع فيه القاصل الثلاثة اتحنى بنايليون جانباً ثم أشار له إلى دولاب صغير وقال له :

— « انظر ! أترى ذلك الصندوق ؟ »

فطن نايليون أنه انما يدلّه على تحفة فنية بما اشتهرت بحيازته واقتنائه تلك القصور العتيقة — وبدأ يفحص الصندوق على هذا الأساس فاسندرك سيايس وقال له :

« انى انما أردت أن أقول لك انى لمسا كنت فى حكومة الإدارة الماضية رأيت مع زملائى (ومنهم ديكو) أن نستعد للطوارئ حتى لا تترك مناصبنا يوم نتركها ونحن فقراء فملأنا هذا الصندوق ذهباً وهو يحتوى الآن على نحو مليون فرنك . وحيث أن حكومة الإدارة قد آلت الينا فهذا المال لنا نحن ! »

فأدرك نابليون أين تتجه أنظار رفاقه وميولهم وما لبث أن قل :

— « أيها السادة لقد كنتما في حكومة الإدارة فدونا هذا المال فاقسمناه إذ لا علم لي بأمره . ولئن وصل حديثه إلى سمعي فلن أتردد في إعادته الى خزينة الدولة . وأنصح لكما أن تنجزا عملكما اليوم . فإن شمس الغد لن تطلع على المال في هذا الصندوق ! »

وهكذا اختار كل واحد مركزه في تلك الحكومة المؤقتة وظل نابليون بين زميله أرفع الجماعة نفسا وأليقهم لمنصب الزعامة والحكم .

وأخيراً عرض سيابس مشروعه الذى قضى نحو خمس سنوات فى صياغته وتهيئة صورته فما أسرع ما اعترض نابليون على توزيع العمل بين القناصل فيه قائلاً .

— « هل تظن أن أقل الناس شأنًا يقبل أن ينحط إلى حد قبول منصب كمنصب هذا « الناخب الأعظم » الذى لا عمل له إلا أن يرعى هذه الملايين من الفرنكات ليزداد لحمه وشحمه كما يفعل الخنزير ! »

ولم يكن نصيب بقية المشروع من نابليون إلا مثل هذا الاستخفاف والتشنيع حتى أن سيايس، آخر الأمر لم يملك إلا أن ينسحب من تلك الحكومة الموقته فاستقال واستقال معه زميله ديكو. فأحل نابليون فخلهما كامبا سيريس Cambacérès وليبران Lebrun وصرح بأنه سيقوم بنفسه بأعداد مشروع جديد يعرض للاستفتاء العام بعد تهينته وانجازه. وبدأ نابليون النظام الجديد بجعل السلطة التنفيذية في يد قنصل واحد يعاونه زميلان آخران بلقب قنصل أيضا على أن لا يكون لهما من الأمر إلا أبداء رأى استشارى فيما يعرضه عليهما القنصل الأول من الشئون. ورشح نفسه هو لمنصب القنصل الأول.

ثم رشح كامباسيريس وليبران لمركى القنصل الثانى والثالث.

وجعل مدة بقاء القنصل فى مركزه عشر سنوات . وكان سيايس قد اقترح فى مشروعه أن يجمع الناخبون فى فرنسا (وعددهم نحو ٥٠٠٠٠٠٠ ناخب) فينتخبون عشر عددهم لتألف منهم قائمة الأعيان الأولى أو القائمة البلدة . ويقوم هؤلاء بدورهم (وهم ٥٠٠٠٠٠ ناخب)

بانتخاب عشر عددهم (٥٠,٠٠٠) لتألف منهم قائمة الأعيان الثانية أو « قائمة المقاطعة ». ثم تستخرج من هذه القائمة هيئة أعيان أصفى من الطبقات السابقة (عددها ٥,٠٠٠) لتألف منها القائمة الثالثة أو « القائمة الوطنية ». ومن هذه الخمسة الآلاف تنتخب هيئة الحكومة جميعها من تنفيذية وتشريعية وقضائية — فاقبس نابليون عن سايس هذا النظام حتى يحس الشعب بأنه ممثل في حكومته أقوى تمثيل فيسبغ عليها ثقته الكاملة الشاملة .

وكانت السلطة التشريعية تتألف في الدستور الجديد من أربعة مجالس

(١) مجلس الدولة — Conseil d'Etat

(٢) مجلس الشيوخ — Senat

(٣) مجلس الشورى — Tribunat

(٤) المجلس التشريعي — Corps Legislatif

فكان مجلس الدولة هو الذى يعاون القنصل الأول في عمله . وكان فضلا عن ذلك يختص بوضع القوانين . وكان أمر انتخاب أعضائه موكولا الى القنصل الأول وحده .

أما مجلس الشيوخ فكان اختصاصه الاشراف على تنفيذ

الدستور وضمان بقاءه . ونفاذ أحكامه . وكان عدد أعضائه ستين عضوا تنتخب الحكومة منهم ٣١ وهؤلاء ينتخبون الأقلية الباقية (٢٩ عضوا) وكان أعضاء هذا المجلس يمتازون على أعضاء المجالس الأخرى بأنهم يظلون في العضوية طول مدة حياتهم .

وأما مجلس التريبون فكان يتلقى القوانين من مجلس الدولة ليبحثها ويناقش نصوصها . ثم يرسلها بدوره الى المجلس التشريعي .

وفي المرحلة الأخيرة يحضر مندوبو مجلس الدولة إلى المجلس التشريعي للدفاع عن القوانين ويحضر مندوبو التريبون لأبداء ملاحظاتهم عليها ويظل أعضاء المجلس التشريعي يستمعون للفريقين في صمت مطبق ثم يقترعون سراً على رفض القوانين أو إصدارها من غير أن يكون لهم هم حق عرضها أو مناقشتها ومن ذلك يرى القارىء أن أهم هذه المجالس جميعها هو مجلس الدولة لأنه هو وحده الذى كان له حق وضع القوانين والذى كان من اختصاصه أن يتبعها حتى يصدرها المجلس التشريعي الأخير .

فاذا ذكرنا ذلك وذكرنا معه أن القنصل الأول هو الذى

كان يعين بنفسه أعضاء هذا المجلس عرفنا أى تركيز ركزت به السلطة فى يد نابليون — على أن أوضح صورة تتمثل فيها سلطة القنصل الأول ربما كانت فى المادة ٤١ من ذلك الدستور واليك مضمونها :

٤١ — القنصل الأول يصدر القوانين — وله الحق المطلق فى تعيين أعضاء مجلس الدولة وعزلهم — والوزراء — والسفراء — وغيرهم من كبار الموظفين فى السلك السياسى الخارجى — وضباط الجيش والبحرية — وموظفى الإدارة والقضاء — وهو الذى يعين قضاة المحاكم الجنائية والمدنية — وقضاة المصالحات — وقضاة محكمة النقض ... الخ . الخ .
وقد انتهت لجنة الدستور من عملها فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ وصدر الدستور فى ١٥ ديسمبر من تلك السنة .
وتحدد لعملية استفتاء الأمة فيه شهر يناير سنة ١٨٠٠ .

وقد أسفرت نتيجة هذا الاستفتاء عن ظهور ١٥٦٢ صوتا ضد المشروع فى حين بلغ عدد الأصوات الموافقة عليه

٣,٠١١,٠٠٧

ولكن نابليون لم يتمهل بعد أن صدر الدستور فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ريثما يتم الاقتراع عليه فى مواعده (يناير

سنة ١٨٠٠) بل شرع في تنفيذه فعلا قبل حلول هذا الموعد
بسته أسابيع .

ويقول المعارضون من مؤرخي نابليون أن هذا مضعف
لقوة الاجماع الذى أبدته الأمة فى تصويتها العام على هذا
النظام . أما المناصرون فأنهم يجعلون هذا الاجتماع أساسا
لشرعية مركز نابليون فى حكم فرنسا حيث أن الأمة نفسها
هى التى رفعتة إلى مركز السيادة عليها . ويدفعون به كل ما اتهم
به من أنه متهجم على ملوك فرنسا الشرعيين غاصب لحقوقهم .

اتهى

الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

القنصلية

من ديسمبر سنة ١٧٩٩ — مايو ١٨٠٤

طالب الأول : فرنسا من سنة ١٨٠٠ — ١٨٠٢

» الثاني : » » سنة ١٨٠٢ — ١٨٠٤

الباب الأول

فرنسا من ١٨٠٠ - ١٨٠٢

الفصل الأول — نابليون في التويلرى .

» الثانى — السياسة الداخلية .

١ — ثورة لاڤنديه .

ب — النظام المالى .

ح — النظام الإدارى .

و — القانون .

هـ — الكونكوردا .

و — وسام الشرف .

ز — نابليون والمعارضة

» الثالث — السياسة الخارجية .

١ — التحالف الدولى الثانى .

ب — الحملة الإيطالية .

ح — التحالف البحرى الشمالى .

و — صلح أميان .

هـ — نابليون قنصل مدة حياته .



بوناپرت — القنصل الأول

الفصل الأول

نابليون في التويلرى

تم الأمر لنابليون في فرنسا . وأصبح بحكم الدستور الجديد صاحب الكلمة العليا في كافة شئونها . ورأى أن ينقل إقامته من قصر اللوكسمبرج إلى قصر التويلرى — ذلك القصر الفخم العتيق الذى كان يسكنه لويس السادس عشر ومارى أنتوانت والذى اقتحمه غوغاء باريس غير مرة في مدة الثورة وعبثوا بكل ما فيه . فأعدت أنفـر المعدات لاستقباله فيه وازدان القصر بما لم يزدن به في عهد ملوك البربون من التحف والزخارف والتماثيل . وخصص الجناح الملكى لسكنى « القنصل الأول » ، بينما أعدت أجنحة أخرى أقل روعة وفخامة للقنصلين الآخرين . غير أن كامبا سيريس أبى بتاتا أن يدخل فى ذلك القصر وقد أوضح وجهة نظره فى ذلك إلى زميله ليبران إذ قال له وهو يحاوره :

« نكون مخطئين يا صاحبي إذا نحن قبلنا أن نقيم فى سراى التويلرى ! أنها لا تصلح لى ولا تصلح لك . ولقد أجمعت

رأى على أن لا أذهب شخصياً إلى هناك . فأن الجنرال بونا بورت سوف لا يلبث أن يطلب الإقامة فيها وحده وعند ذلك يكون لا مفر لنا من الانسحاب . نخير لنا أن لا نذهب أصلاً . . ولكن نابليون لم يكن همه أن يصل إلى ما وصل إليه ليسعد بوجاهة المنصب وينعم بترف الإقامة في التويلرى . ثم يلوى كشحه عن ذلك الشعب الفرنسى الفقير المضنى وعن أسواقه الكاسدة وخزائنه الخاوية . وأنظمتة الفاسدة البالية بل كان كل همه أن يحقق آمال ذلك الشعب فيه فينتشله من تلك الأخطار الخارجية التى كانت تحقد به .

وسنخصص الفصل التالى للكلام على إصلاحات نابليون وسياسته الداخلية . ثم نعقب عليه بفصل آخر للكلام على حروب القنصلية وسياسة القنصل الأول الخارجية .

الفصل الثاني

السياسة الداخلية

١ - ثورة لا فنده :

لم تكن قد انتهت قلاقل الحزب الملكي بعد ما آلت إلى نابليون رئاسة القنصلية . بل كان زعماءه لا يزالون منبثين في أنحاء فرنسا يحاولون استنهاض الناس ضد هذا الحكم الجديد واعادة المياه إلى مجاريها الأولى . وكانت مقاطعة « لا فنده » في غرب فرنسا مهد هذه القلاقل ومعقل هؤلاء الزعماء . وكانت حكومة الادارة قد أفلست في التفاهم معهم أو في التغلب عليهم .

فلما آلت الامور إلى نابليون أرسل إلى زعماء الملكيين في تلك المقاطعة يدعوهم إلى زيارته بباريس بعد أن أمنهم على ارواحهم فقبلوا الدعوة وسافروا اليه فلما اجتمع بهم أكد لهم نواياه في العمل على إنقاذ فرنسا من وهدة الفوضى التي سقطت فيها وأنه جعل فرضاً على نفسه إعادة النظام اليها

وتوفير أسباب السعادة لأهلها ثم قال لهم بلهجتة الفعالة المعهودة :
« فان كنتم تحاربون دفاعا عن أنفسكم فقد اتقى السبب
الذى من أجله تحاربون لأنى سأتولى بنفسى الدفاع عنكم
والمحافظة على حقوقكم . وان كنتم تحاربون لاستعادة العهد
القديم فهذا اجماع الأمة أمامكم يحول دون التفكير فى سلوك
هذا الطريق العقيم . وهل مما يشرف أقلية محدودة العدد أن
تحاول إملاء إرادتها بقوة السلاح على أغلبية الأمة ؟ » .

وقد استطاع نابليون بهذه الكيفية أن يحمل هؤلاء
الزعماء على أن يلقوا سلاحهم ويخلدوا إلى السكينة والهدوء .
ففعّلوا كلهم إلا واحدا منهم هو « جورج كادودال » . فانه
كان رجلا عنيدا صلب الرأى لم يقبل أن يضع يده فى يد
نابليون . بل طلب السفر من باريس إلى لندن . وهناك اتصل
بأقطاب الملكية ودبر معهم تلك المؤامرة الجريئة التى حاول
فيها اغتيال حياة نابليون فانهت بالقبض عليه واعدامه كما
سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد .

ب - النظام المالى :

كان أول ماوجه اليه نابليون التفاته تنظيم جباية الضرائب

حتى لا يبقى مجال النهب القديم مفتوحا للجباة . وحتى يضبط الحساب فلا يدفع الأهالي أكثر مما هو مطلوب منهم ولا يصل إلى خزينة الدولة أقل مما يجمع من الأهالي . وكانت نتيجة ضبط الحساب بهذه الصورة أن زادت الإيرادات ١٨٥ مليون فرنكا عما كانت عليه منذ عشر سنوات وعادت الثقة المالية إلى الأسواق فساعد ذلك على تحسن الحالة الاقتصادية وانتعشت بخاصة أسعار الأوراق المالية التي كادت تفقد قيمتها بحكم تزعزع الثقة المالية في البلاد . وأنشئ « بنك فرنسا » في أوائل سنة ١٨٠٠ — وهو المصرف الحكومي الذي لا يزال إلى اليوم صاحب الامتياز الوحيد في إصدار الأوراق المالية وفي حفظ ودائع الدولة وأموالها .

ح — النظام الإداري :

وكان نظام الإدارة في عهد الملوك السابقين نظاما مركزيا مرجعه حكومة باريس . بمعنى أن رجال الإدارة في الأقاليم لم يكونوا يتصرفون إلا بما توحى به إليهم الإدارة المركزية في باريس . فلما قامت الثورة وسقطت تلك الحكومة وكل أمر الإدارة في الأقاليم إلى مجالس محلية تكونها كل السلطة في إدارة تلك الأقاليم . وكانت هذه المجالس سر الفوضى التي

استحكمت في فرنسا خلال الثورة لعدم وجود الرقابة المركزية الكافية عليها . ولفقد روح التجانس في تصرفاتها تبعاً لاختلاف القوانين في الأقاليم المختلفة .

فلما آلت السلطة إلى المؤتمر الوطني كان النظام الإداري الفرنسي يكاد يكون معدوماً وكان المؤتمر يستعين بمندوبين يعيّنهم من قبله لتنفيذ طلباته في الأقاليم كلها دعت الحالة إلى ذلك . وأخيراً جاء نابليون فركز السلطة الإدارية كلها في يده فكان هو الذي يعين العمدة كما كان يعين المدير . وكان المدير على رأس المقاطعة هو المنفذ الأعلى لإدارة الوزير المختص والقنصل الأول . وبذلك سرت روح الحكومة المركزية في الأقاليم وأحس الناس للمرة الأولى بعد عهد ملوك فرنسا العظام بنعمة السكينة والأمن وحسن النظام .

٥ — القانون

وكان لا بد لضمان النظام في فرنسا من قانون شامل ينطبق في كافة أنحاءها بدل مجموعة القوانين المختلفة الناقصة التي ظل يشكو منها أهل فرنسا عشرات السنين . وقد حدثت في عهد الثورة الفرنسية محاولات كثيرة في هذا السبيل . وتألفت

لجان من مشاهير رجال القانون لتحقيق هذه الغاية ولكنها انتهت كلها بوضع بحوث في القانون . وجمع بعض الأحوال والعادات المرعية التي كانت نافذة في معظم جهات فرنسا في ذلك العهد .

فلما ولى الأمر نابليون شكل لجنتين من كبار المترعين وعهد إليهما وضع القانون الذي اشتهر فيما بعد باسم « قانون نابليون » . وقد روجع هذا القانون بعد ذلك ثم عرض مشروعه على « مجلس الدولة » وتم إصداره والعمل به في سنة ١٨٠٤ — وكان نابليون يشرف بنفسه على اجتماعات المجلس عند البحث فيه وعلى الرغم من بساطة معلوماته في القانون فإنه كان يبدى من الملاحظات العملية ما رفع قيمة هذا القانون حتى أنه عاش إلى يومنا هذا في فرنسا وفي غيرها من الدول الكثيرة التي أخذته بنصه أو التي نسجت على منواله في صياغة قوانينها . وذلك بالنسبة لما امتاز به من الوضوح وما يسود نصوصه وأحكامه من روح العدل والإنصاف . ففي بلجيكا مثلا اقتبست الحكومة هذا القانون بنصه وما ترال تتعامل بمقتضاه . أما في هولندا وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا وجمهوريات جنوب أمريكا — وفي مصر نفسها — فقد كان

هذا القانون مرجع الفقهاء الذين كلفوا بالتشريع لتلك البلاد^(١). وقد جاء بعد هذا القانون المدني — قانون المرافعات (الصادر في سنة ١٨٠٦) — ثم القانون التجارى (سنة ١٨٠٧)

(١) وقد ذكر المتعاملون على نابليون أنه لم يكن صاحب فكرة وضع هذا القانون فلا فضل له فيه . وأن القانون نفسه ليس فيه ما يدعو إلى كل هذا التفاخر به فهو ناقص في عدة مواضع إذ لم يذكر مثلاً أى شيء عن نظام شركات التأمين ولم يحتو على شيء من التشريع الخاص بالعمال وغير ذلك . ويعجب الإنسان عند ما يسمع هذا الكلام من أناس محترمين لهم مكانتهم العلمية إذ أن نابليون لم يكن يستطيع أن يخترق حجب الغيب ليرى من وراءها ما سيحدث من النظم فيعالجه في قانونه مقدماً . ثم إنه على الرغم من كونه لم يبتكر فكرة عمل القانون فهو على الأقل صاحب الفضل في إنجازها وفي انتهاز الفرصة المناسبة لأخراجها وإقامتها على مبدأ التسامح والأنصاف وإغفال كل ما أحدثته الثورة من النظم المتطرفة العارضة التي كان يراد إدمانها فيه فخرج القانون لذلك وهو أوضح وأنجح محاولة تشريعية تكمل للملكية المردية كل قوتها . وللرابطة العائلية كل قدسيتها . وبحسبك أن تعلم أن مشرعي الثورة كانوا باسم الحرية يرون أن يكون تغيير الزوجة بسهولة تغيير التوب ففضى نابلون على أمثال هذا المذهب واكتفى بتقرير حق الطلاق المدني للزوح والزوجة على حد سواء . وث في قانونه عدة مبادئ أخرى كبداً إطاعة المرأة للرجل ومبدأ ساطة الوالد على أولاده وغير ذلك مما كان له أحسن الأثر في ضبط المجتمع الفرنسى وتقوية مركز الأسرة فيه بعد أن كادت مبادئ الثورة تجمع به إلى نوع من الفوضى الاجتماعية لم يكن يحدى معها سعة الفتوح ولا كثرة الانتصارات .

ثم قانون تحقيق الجنايات (١٨٠٩) — وأخيراً قانون
العقوبات (١٨١٠) .

هـ — الكونكورد « Le Concordat » أو « الاتفاقية

الدينية » :

وكان الناس منذ أيام الثورة الأولى قد قاموا على أشراف
فرنسا ورجال الدين فيها فقتلوهم حيث وجدوهم بسبب ما كانوا
يتمتعون به من الامتيازات التي أثقلت كاهل الشعب وملأت
قلبه كراهية لهم وحقدا عليهم . واكتسحوا في غضبهم على
رجال الدين نفس الديانة المسيحية فهدموا معظم الكنائس
وأذابوا أجراسها وصبوا نحاسها وحديدتها مدافع تنفعهم في
ميدان القتال . وأغراهم بهدم الدين ورجاله ما وراء ذلك
من مغنم الكنيسة وأموالها . ولم يبق على عهد الله في كل
فرنسا إلا أسر قليلة حافظت على إيمانها وصمدت لتلك المحن
التي طمست على بصائر اخوانهم حتى قبض الله لهم نابليون
وجعل على يديه انقاذهم مما كانوا فيه من فوضى الأخلاق
والعقائد — أما نابليون فانه كان يرى أن الدين للدولة بمثابة
الروح للجسد وكان كثيرا ما يقول :

« كيف يتوفر النظام في الدولة من غير الدين — ان المجتمع لا يكون من غير تلك الفوارق البينة في حظوظ الناس . وهذه الفوارق لا بقاء لها إلا في ظل الدين . إن المعدم الفقير الذى يموت جوعا بجوار من أتخمته كثرة الطعام لا يمكنه الرضا بهذه الحال والسكوت عليها إلا في ظل سلطة تقول له — « هكذا أراد الله ! » — ولا بد من وجود الغنى والفقير في هذه الدنيا أما في الآخرة فسيكون توزيع الحظوظ على أساس آخر يحقق عدل الله ويعوض البائس والمحروم . »

وكان نابليون من جانب آخر يجب أن تعود الى فرنسا تلك العناصر المحافظة التي فرت منها في خلال الثورة ليحارب بها العناصر المتطرفة اليعقوبية التي كان يمحقتها ويسخط عليها بسبب نزعاتها الهدامة ففتح الباب على مصراعيه أمام المهاجرين الذين يريدون العودة الى بلادهم على شريطة أن يقسموا يمين الولاء للدستور الجديد . فأقبل هؤلاء المهاجرون من أطراف أوروبا زرافات يتلهفون شوقا إلى أوطانهم ونسوا في نشوتهم كل ما كان بينهم وبين رجال الثورة من أحقاد . وانخرطوا في سلك ذلك المجتمع الجديد الذى كان يدأب نابليون في خلقه خلقا مكيئا على تلك الانقراض الفاسدة التي

خلفتها الثورة . وشرع إلى جانب ذلك يقاوض البابا على إعادة المسيحية لفرنسا . وتم الاتفاق أخيراً (فى سنة ١٨٠١) على اعلان الكاثوليكية « ديناً للغالبية فى فرنسا » . وأصبح القنصل الأول صاحب الحق فى تعيين القسس على أن يكون للبابا حق تقليدهم وطائهم الدينية وتولت الدولة دفع مرتبات ضخمة لرجال الدين فى نظير أن يتنازل البابا عن كل حق يدعيه فى أملاك الكنيسة التى استولت عليها الأمة فى عهد الثورة .

على أنه لا بد من الإشارة هنا إلا أن نابليون لم يعمل على إعادة المسيحية إلى فرنسا ولاء منه للبابا أو حبا منه فى الكاثوليكية فإنه قد نفى ذلك بنفسه إذ قال لبعض رفاقه وقد خرج معه ذات ليلة للتنزه فى الهواء الطلق وسط الحدائق والحقول .

« كنت هنا فى يوم الأحد الماضى أسير وحدى والطبيعة ساكنة فقرعت أذننى فجأة صلصلة ناقوس كنيسة رويل Ruel^(١) فحركت شجنى والانسان أسير عادته وتربيته الأولى

(١) كانت لانرال يفرسا بعض الكنائس عقب الثورة . وكان يدير هذه الكنائس قسس تدفع لهم ايجلترا مرتباتهم إذ لم تعترف بهم حكومة

فقلت في نفسي ما أروع هذا الصوت في نفوس المتدينين !
لعمري كيف يحلل فلاسفتكم وذوو الرأي فيكم هذه الظاهرة ..
قد يقولون إنى كاثوليكي ولكنى لست شيئاً من هذا . فلقد
كنت مسلماً في مصر وسأكون كاثوليكيًا هنا جرياً وراء مصلحة
الامة . فأنى لا أعتقد في الأديان — ولكنى أعتقد في فكرة
وجود الله . ثم أشار ييده إلى السماء قائلاً : « الذى خلق
كل هذه الأشياء ! »

(و) وسام فرقة الشرف « Legion d'honneur »

كانت الثورة قد قضت على كافة الامتيازات . وجعلت
« المساواة » شعار أهل فرنسا جميعاً . إذ لا يجب أن يكون بين
سكانها شريف ووضيع . وأمير وحقير . وكونت ومسيو .
ولكن يجب أن يقف الجميع في صف واحد وأن يجمع بين
مختلف أفرادهم لقب واحد هو لقب « مواطن » : فالرئيس —
« حضرة المواطن الرئيس » — والمرءوس كذلك « حضرة
المواطن المرءوس ! »

مرسا . وكان من غايات نابليون في الاتفاق مع البابا القضاء على نفوذ هؤلاء
القسس حتى لا يكونوا لاجلهم إصع في شئون الفرنسيين تحركه فتثير به السع
في أنحاء البلاد .

ولكن نابليون رأى أن ذلك سوف يقتل في نفوس الشعب روح الحماسة التي تثيرها المنافسة ويتركها التفاضل . فود لو أنشأ نظاما يكون من شأنه أن يميز المجيد المتفوق في عمله على غيره من عامة الدهماء ليكون في ذلك جزاء المجتهد على إجهاده واستنهاض لهمم غيره من القاعدين . فابتكر لذلك فكرة وسام أسماء « وسام فرقة الشرف » .

ولكن هذه الفرقة لقيت في بادئ الأمر معارضة عنيفة من أعضاء المجلس فحمل عليها بعضهم قائلا إنها تذهب بمبدأ المساواة الذي اتخذته الدولة شعاراً لها فقال نابليون :

« إن الدول المجاورة لنا تمنح ألقابها وأوسمتها لمن شرف مولده فتعتدى بذلك على مبدأ المساواة ولكنى سوف لا أمنح هذا الوسام إلا لمن شرف عمله فأكون بذلك قد وضعت الحق في نصابه . وسيكون الوسام فوق ذلك شخصياً يحمله صاحبه حال حياته ولا يرثه أبناؤه بعد وفاته . »

واعترض آخرون قائلين أن الأوسمة ليست إلا صفائح لا قيمة لها ! فكان جواب نابليون : « نعم أنها صفائح . ولكن هذه الصفائح هي التي تسلس قياد الرجال . وتخلق الزعماء والأبطال ! إن هذه الشارات تستعمل في كل البلاد . فلتستعمل

كذلك في فرنسا حتى تكون على الأقل عاملاً جديداً يقرب ما بين هذه البلاد وبقية دول أوربا ! »
واقترح آخرون أن يكون هذا الوسام مقصوداً على رجال الجيش فقال نابليون : « بل هذا هو الذي لا يجب أن يكون . فالكفايات كلها أخوة . وشجاعة رئيس المؤتمر في مواجهته للغوغاء هي نفس شجاعة كبير في اقتحامه أسوار حصن عكا . على أن هؤلاء الجنود ليسوا إلا فرقة مقاتلة أما الجيش الحقيقي فهو الأمة ! فليكن تكريمنا للنبوغ في ذاته ولنمجد كل من استحق التمجيد بعمله وحسن صفاته ! »

ز (نابليون والمعارضة :

بعد أن آلت السلطة إلى يد نابليون كان رأسه هو الأداة الوحيدة التي تفكر لكل فرنسا . وعن هذا الرأس وحده صدرت كل تلك الإصلاحات الداخلية التي تناولناها في الصفحات السابقة والتي جنت فرنسا من ورائها أطيب الثمرات . ولقد كان نابليون على جانب عظيم من الثقة برأسه هذا حتى أنه كان كلما اختلف مع أحد رجال حكومته في رأى من الآراء قرع رأسه بكفه قائلاً : إن هذا الرأس لأداة أنفع لى من

كل من يحيط بي ممن يدعون الدربة ووفرة التجارب !
وكان طبيعياً على من يحس من نفسه هذا الاحساس أن
لا يطبق المعارضة أياً كانت صورتها . وعلى لسان أى كان من
أهل فرنسا . وكانت سياسة نابليون الداخلية التى اعتزم أن
يسير عليها هى أن يسلك بفرنسا طريقاً وسطاً لا هو طريق
الملكية ولا هو طريق اليعقوبية . فكان طبيعياً أيضاً أن يعاديه
الفريقان . إذ كان كل واحد منهما يبنى نفسه بأن يشايعه نابليون
فتتحقق بمعاوته آماله وأحلامه . فلما رأوه يجانبهما معاً ويسير
فى طريقه الخاصة اندفعوا يعترضون هذا الطريق واندفع هو
يطارد الفريقين بطرقه المعهودة حتى لم يبق لواحد منها على
ظهر فرنسا ظل .

وكانت الصحافة أول ما التجأ اليه المعارضون . فكان أول
ما أجاب به نابليون على هذه المعارضة أن أصدر فى ١٧ يناير
سنة ١٨٠٠ أمراً قسلياً بتعطيل جميع الصحف السياسية ماعدا
١٣ صحيفة كانت تنطق بلسان الحكومة وتدافع عن سياستها .
وكان نابليون يحزر بعضها شخصياً . ولعل أروع فضال وقع
فى هذا المضمار ذلك الذى حدث بين نابليون « ومدام دى
ستايل » « Madame de Stael » — من أشهر وأنبع من أنجبت

فرنسا من الكاتبات وزعيمة الداعين والداعيات إلى الحرية في عصر نابليون فأنها بعد أن قضت ردها من الزمن تعجب ببسالة نابليون وعبقريته وتمجد نبوغه وبطولته انقلبت عليه فجأة بعد إعلان نظام القنصلية وبعد أن تبينت (أن « استبداد الحرية » الذي عم فرنسا في عهد الأرهاب لم ينته على يد نابليون إلا ليحل محله استبداد آخر هو « استبداد النظام ») فأصبحت لذلك في مقدمة المناوئين له والمعارضين على سياسته . وكان لمدام دي ستايل من المنزلة في كل فرنسا ما جعل نابليون يهتم بها اهتماما خاصا دون معارضييه . وتصادف أن أخرجت مدام دي ستايل رواية ملأتها غمزا وتليحا وتهكما على نابليون وعلى حكمه . فلم يطق نابليون بعد ذلك صبرا . وكانت مدام دي ستايل إذ ذاك في سويسرا فأرسل إليها من يبلغها أن عودتها إلى باريس أمرا غير مرغوب فيه . وكأما استفزها هذا التصرف من جانب نابليون إلى تحديه بالعودة السريعة إلى فرنسا . فما هو أن حلت بمنزلها ونما علم ذلك إلى نابليون حتى صمم على إبعادها عن فرنسا . فبعث إليها رسولا ضابطا لبقا مهذباً أختير خاصة للقيام بهذه المهمة على أكمل وجه ولمرافقتها إلى الحدود . وقام الضابط فعلا بمهمته خير قيام

فكان كثير المجاملة لها . وساعدها بكل لطف في تحضير لوازم السفر ثم جلس معها في العربة وكان من تعلقه معها أن ظل يحدثها عن مؤلفاتها ويبدى لها إعجابه بكتاباتها . فأجابته والدموع تترقق من عينيها :

— « وأسفاه ياسيدى ! أنظر إلى أين يودى بالمرأة ذكاؤها وأدبها ! »

ومنذ تلك اللحظة بدأت الحرب عواناً بين مدام دى ستايل و نابليون حتى أصبح مقرها في سويسرا ندوة التافين عليه وعلى حكمه غير أن نابليون لم يرضن عليها بأرصاده و عيونه حتى يحصر نارهم في مكانها لتأكل نفسها دون أن تتصل بما يجاورها . ولقد بلغ من تضيق نابليون على غريمته أنه كان يتصدى كل من يعلم أنه على أدنى اتصال بها . ومن ثم أخذ يهجرها أصحابها خوفاً على أنفسهم . فلم تر المسكينة أمامها إلا أن تلجأ إلى روسيا (سنة ١٨١٢) وهى إذ ذاك الدولة الوحيدة التى كانت غير خاضعة لنفوذ نابليون فى القارة الأوربية . واتصلت هناك بالقيصر وبغيره من خصوم نابليون الذين لم يجدوا لأنفسهم منجاة من سطوته إلا فى ساحات بطرسبرج وأقامت بينهم حيناً من الدهر تتعزى بصحبتهم وتأتنس بميولهم

نحو خصمها غير أنها ما لبثت أن خامرها شيء من الندم بعد أن سقط نابليون ودخل الحلفاء باريس لأنها إنما كانت تحارب نابليون طلباً لحرية فرنسا ولكنها أدركت شيئاً فشيئاً أن أعداء نابليون الذين عاشت بينهم كانوا في الوقت نفسه أعداء فرنسا وطنها العزيز وأنها بمساعدتهم في مناوأة نابليون ومحاربته إنما كانت تسعى لاضعاف فرنسا وإذلالها .

ولم يكن أمام المعارضة بعد أن كمت أفواه الصحافة في فرنسا إلا سلوك إحدى طريقتين . فأما المعارضة بالطريق القانوني بمقاومة سلطة القنصل في الهيئة التشريعية . وإما المعارضة بطريق المؤامرات .

غير أن عناصر المعارضة ما كادت تلوح لنابليون في الهيئة التشريعية حتى عمل على التخلص منها فوراً . وذلك أن جماعة من الأعضاء كان من المقرر سقوطهم كل عام واستبدال غيرهم بهم ولم يكن في الدستور ما ينص على طريقة اخراج أولئك الأعضاء فأراد نابليون أن ينتفع من هذا النقص في التشريع للتخلص من معارضيهِ وذلك بأن يجعل لمجلس الشيوخ الحق في تعيين الأعضاء الذين تسقط عضويتهم كل عام وهكذا بدأت « عملية التطهير » ووقع في الفخ القانوني رجال المعارضة

الذين أراد نابليون أن لا يقفوا باعتراضاتهم في سبيل تنفيذ سياسته .

بقي من طرق المعارضة كلها طريق المؤامرات وكان ذلك أخطر الطرق بطبيعته لأنه لم يكن يعمل على ابداء رأى مخالف أو تنفيذ خطة موضوعة ولكنه يعمل على اغتيال حياة نابليون والخلاص منه جملة واحدة . وقد واجه نابليون في هذا السبيل أخطارا كثيرة كان ينجو في كل واحد منها بأعجوبة تشهد بأن الأجل المكتوب لا يستطيع الناس أن يستقدموه ساعة أو يستأخروه . وكانت وسيلة نابليون في مقاومة هذا الخطر المحدث به أن يستكثر حوله من الجواسيس لتسقط الأخبار ومراقبة المعارضين حتى لقد تضخمت في عهد دكتاتوريته وزارة البوليس واصبح لها من بين وزاراته أعظم شأن ، وقد وفق إلى رجل داهية (هو الوزير فوشيه Fouché) بارع في أساليب التلصص والتجسس فقلده هذه الوزارة ونجح هذا الرجل بفضل يقظته وسعة حيلته في تصيد هؤلاء المتآمرين زُمَرًا زُمَرًا على حدود فرنسا الشرقية وشواطئها الشمالية حيث كان يبعث بهم المعسكر الدائم المقيم في لندرة .

ولعل أخطر المؤامرات شأناً تلك التي قام بها الملكيون
بزعامه « جورج كادودال » لإعادة « كونت دارتوا » إلى
عرش فرنسا بعد قتل القنصل الأول . ولما كان تاريخ هذه
المؤامرة يرجع الى سنة ١٨٠٤ فأتنا سنعود للكلام عليها في
موضعها من الباب التالي .

الفصل الثالث

السياسة الخارجية

١ — تمهيد : (التحالف الدولي الثاني)

ذكرنا في الفصل الأول من الباب الرابع من الكتاب الثاني أن ثورة قامت في روما ضد البابا . وأن بعض الضباط الفرنسيين قتل في خلالها . وكان هذا سببا في تدخل فرنسا . فزار جيشها إلى روما ولما امتنع البابا عن النزول عن عرشه ألقي القبض عليه وحمل إلى فرنسا حيث قضى نحبه في العام التالي ثم أقيمت في روما جمهورية على نسق الجمهورية الفرنسية عملا بمبدأ « الديركتوار » القاضي بنشر النظام الجمهوري والمبادئ الديمقراطية في طول أوروبا وعرضها .

وذكرنا أيضا أن ثورة أخرى قامت في سويسرا انتهت بما انتهت إليه ثورة روما من تحويل حكومة سويسرا إلى جمهورية على طراز الجمهورية الفرنسية .

وذكرنا أن هذا التوسع من جانب حكومة فرنسا لم ترخ

إليه الدول الأوروبية وكان سببا في قيام إنجلترا بتأليف حلف جديد من :

- (١) الروسية — لتدخل فرنسا في شئون الشرق وانتزاعها مالطة من يد الفرنسيين الذين كانوا في حماية القيصر .
- (٢) تركيا — لدخول فرنسا في مصر والشام .
- (٣) النمسا — لأنها كانت ممتورة من فرنسا بسبب الحروب الماضية .

(٤) نابولي — لدخول فرنسا في ولايات البابا المتاخمة لها .
وكان على عرش نابولي في سنة ١٧٩٨ ملك يدعى فردناند الرابع وملكة تدعى كارولين . وكانت كارولين هذه أخت ماري أنتوانيت التي قامت الثورة في فرنسا بسببها إلى حد كبير والتي أكلتها الثورة فيما أكلت من ضحاياها العديدين . فما هو أن دخلت نابولي في الحلف الجديد حتى تحركت عاطفة الانتقام الكامنة في صدر كارولين وأخذت تلح على زوجها في أن يكون أول المهاجمين لفرنسا . وشجعها على ذلك وصول نلسون أميرال البحر الانجليزي إلى نابولي في ذلك الحين عائدا من مصر بعد انتصاره الباهر في خليج أبي قير . وقد نجحت فعلا في تسير جيش من نابولي إلى روما تراجعت أمامه

الحامية الفرنسية هناك في بادىء الامر ولكنها لم تلبث أن كرت على النابوليين فردتهم على أعقابهم وعم الفرع أهل نابولي عموما حتى أن الاسرة المالكة بما فيها كارولين وفردناند بادر أفرادها بالفرار إلى مراكب نلسون الراسية في مياههم . ولم يحلّ شهر يناير من سنة ١٧٩٩ حتى كانت حكومة نابولي قد استحالت إلى جمهورية وحتى كانت الجيوش الفرنسية قد أفلحت في اسقاط ملكى سردينيا وتسكانيا عن عرشهما واحتلت بلادهما . واتسعت بذلك دائرة النفوذ الفرنسى في إيطاليا .

يبد أن هذا النصر كان كل ما صادفته فرنسا من التوفيق في هذه الحرب الواسعة التى شتمها عليها دول أوروبا . بل قل إن هذا النصر نفسه كان سبب نكبة فرنسا في تلك الحرب إذ استطالت به حدودها فأصبحت تمتد من هولندا شمالا الى أقصى إيطاليا جنوبا واستهدفت بذلك الى هجمات العدو المؤتلف الذى كان يحشر جيوشه اليها من أطراف أوروبا .

وأخيراً وصل الجيش النمساوى الى الميدان وأفلح قائده (الارشيدوق شارل) فى سر بعض الجيوش الفرنسية وحمل بعضها على التقهقر (مارس سنة ١٧٩٩) . ووصل الجيش

الروسي أيضاً وأبلى قائده سواروف Suwarow أحسن بلاء في مطاردة الجيوش الفرنسية من شمال إيطاليا وفي إيقاع الهزيمة في صفوفهم المرة بعد المرة (أبريل سنة ١٧٩٩) . فأخليت معظم قلاع لمبارديا وما بقي منها في أيدي الفرنسيين كان تحت الحصار .

ونشطت حكومة (الديركتوار) فسيرت جيشا جديدا لتخليص إيطاليا من براثن أعدائها وعقدت لواء هذا الجيش لقائد نابه من قوادها الموفقين وهو القائد Joubert الذي لم تلوث سمعته الحربية بعد هزيمة واحدة . فسار جوير للقاء سواروف والتقى به في نوفى (أغسطس سنة ١٧٩٩) وأسفرت المعركة التي دامت ثلاثة أيام عن قلول الجيش الفرنسي تهم على وجهها في سهول إيطاليا بعد أن خلفت قائدها جثة هامدة فوق ميدان القتال .

وهكذا أفلتت إيطاليا من قبضة فرنسا وتسلى فرديناند وكارولين ومن معهما من مراكب نلسون عائدين إلى نابولي فدخلوها واستووا على عرشها وعلى الرغم من تصريحهم الرسمي بأصدار عفو شامل عن كل من مالا الفرنسيين من رعاياهم فقد ألقى البعض على نحو ثلاثة آلاف وطني من نجا منهم

من عقوبة الأعدام لم ينبج من عقوبة النفي . وبذلك نهض الدليل على أن بعض الملوك في ثورتهم ليسوا أكظم غيظا ولا أعف انتقاما من نظرائهم اليعقوبيين .

أصيبت فرنسا بكل تلك الضربات ونكل بأنصارها والمنتمين اليها كل هذا التنكيل ولم يجد الشعب الفرنسي أمامه من يحمله المسؤولية في كل ما حدث إلا رجال الديركتوار فعم الاستياء منهم واشتد السخط على حكومتهم . وتحت تأثير هذا الشعور العام دبر سياسيس مشروعه لقلب نظام الحكم . وكان يطمع في بادية الأمر أن يستند إلى ذراع الجنرال جوير في إحداث ذلك الانقلاب . فلما قتل جوير في نوفمبر لم ير سياسيس ندحة عن التبرص ريثما يقع اختياره على رجل غيره من رجال السيف الذين لا بد من معاوتهم في إحداث الانقلاب .

وأخيراً وصل نابليون من مصر على الصورة التي وصفناها (اكتوبر سنة ١٧٩٩) وكان ما كان من اتصاله بسياسيس وتولييه هو قلب الحكومة (في نوفمبر سنة ١٧٩٩) واستيلائه بعد ذلك على مقاليدها .

وكانت ظروف فرنسا الحربية قد بدأت تتحسن قبيل

وصول نابليون فان جيوشها التي تراجعت (بقيادة جوردان)
في شمال سويسرا أمام الأرشيدوق شارل النمسوى — في
مارس سنة ١٧٩٩ .

والتي تقهقرت (بقيادة شيرو ثم مورو) في شمال إيطاليا
أمام سواروف الروسى — في ابريل سنة ١٧٩٩ .

والتي انهزمت (وقتل قائدها جوير) في نووى أمام
سواروف أيضاً — في أغسطس سنة ١٧٩٩ .

قد عادت فتقدمت (تحت قيادة ماسينا) في زوريخ
بسويسرا وانتصرت انتصاراً باهراً على كل من الجيوش
النمسية والروسية — في سبتمبر سنة ١٧٩٩ .

وكذلك وفقت جيوشها (بقيادة برون) إلى طرد الجيش
الانجليزى والروسى من هولندا — في اكتوبر سنة ١٧٩٩
وترتب على هزيمة روسيا في زوريخ وفي هولندا أنها
سحبت جيوشها من كافة الميادين ثم انسحبت هى نفسها من
التحالف .

فأنت ترى من هذا البيان كيف أن نابليون لم يجد أمامه
من هذا التحالف فى الواقع عند عودته الى أوروبا إلا النمسا

وانجلترا لان بقية الحلفاء (تركيا والبرتغال) لم يكونوا قد
اشتركوا فعليا في هذه الحرب .

وكان هو يود لو أتيح له أن ينصرف بكليته لتنظيم فرنسا
والنهوض بأعباء الشعب وحاجاته والسير به في طريق
الإصلاح الذي رسمه له . والذي كانت البلاد في أشد الحاجة
اليه بعد أن ضعفتها سني الثورة وقعدت بها ويالات الحروب
الداخلية . فلم ير خيرا من أن يناشد هاتين الدولتين أن تضعا
أسلحتهما وتعيدا إلى أوروبا عامة وإلى فرنسا خاصة عهد
السلام والهدوء الذي حرمتاه منذ سنين . وكانت طريقة
التفاهم التي ارتأى نابليون أن يسلكها مع الدولتين هي أن
يتوجه بالدعوة رأسا الى عاهل كل واحدة منهما .

فألى ملك الانجليز كتبت الرسالة الآتية :

« أرى يا صاحب الجلالة وأنا مقبل على منصبي الجديد
الذي رفعتني اليه رغبة الشعب الفرنسي أن أتقدم بنفسى الى
جلالتكم بهذه الدعوة . فهل يجب أن تظل دائرة الى الأبد
رحى هذه الحرب التي طحنت أوروبا هذه السنين الأربعة
الآخيرة ؟ وهل انعدمت كل وسيلة في سبيل التفاهم ؟ إنى
لاعجب كيف أن أكبر دولتين مستنيرتين فى أوروبا تضحيان

فى سبيل مظاهر العظمة الجوفاء برحاء بلادهما ورقاهية شعبيهما
وراحة العائلات فيهما وهنائها ! وكيف انهما لا تحسان بأن
السلام هو أول ماتحتاج الشعوب اليه وأول ما يسعى الأبطال
فى الحصول عليه . ان هذه العواطف لا يمكن يا صاحب
الجلالة أن تكون غريبة عن قلبكم الذى يحكم شعبا حرا ولا
غاية له الا توفير أسباب السعادة له

وفى نفس اليوم الذى أرسل فيه نابليون هذا الكتاب
إلى ملك الانجليز بعث بكتاب آخر من نوعه إلى امبراطور
النمسا قال له فيه :

« لقد عدت إلى أوربا بعد أن غبت عنها ١٨ شهرا
فوجدت حربا قائمة بين الجمهورية الفرنسية وبين جلالتم .
ولما كانت مظاهر العظمة الباطلة لا وزن لها عندى فان أول
ما أرغب فيه أن أحقن هذه الدماء التى توشك أن تراق .
ولست أرى . فيما حولى الا جيوشا جرارة ستضاعف عدد
الضحايا الذين سقطوا فى الميدان بعد استئناف القتال على أن
ما أعلمه علم اليقين عن خلق جلالتم ليدلنى على ما هو مستتر
فى قلبكم من الميول والرغبات . فلو انكم لبيتم نداء هذه الميول
فانى أرى الطريق فسيحا أمام إمكان التوفيق بين الأمتين . »

ولم تجب النمسا على هذه الدعوة بأكثر من أنها لا تستطيع أن تتفاوض في شأن الصلح الا بالاشتراك مع حليفتها انجلترا أما انجلترا فكان ردها أن الطريق الوحيد الذي تستطيع فرنسا أن تثبت به صدق رغبتها في الصلح إنما هو إعادة أسرة بوربون إلى عرشها .

ولم يكن أبلغ إيلا ما لفوس الفرنسيين من ذلك الذي عرضته عليهم انجلترا لما ينطوى عليه ردها من روح النحيم في شئونهم الداخلية وأراد نابليون أن يستغل هذا الرد لتقوية دعوته في وجوب القضاء على انجلترا حتى تستقر الجمهورية في فرنسا فشر على الناس صور هذه المكاتات ليفضح بها نوايا خصومه ثم أخذ يعد عدته للنزول إلى ميدان القتال من جديد

ب — الحملة الإيطالية الثانية :

كانت روسيا قد دخلت في « التحالف الثاني » على أساس العمل المشترك لكسر فرنسا . ولكن تبين لها أثناء القتال أن النمسا تريد أن تسير الحرب لحسابها الخاص فكل ما كان يؤدي إلى إعادة نفوذها في إيطاليا فهي توافق عليه .

وكل ما تجاوز ذلك تعترضه وتقف في سبيله . فلما انقض سواروف الروسى على الجيوش الفرنسية في شمالى ايطاليا وأجلاهم عنها تركته النمسا يتصرف بملء حرية حتى إذا ما انتهى من هذا العمل وأراد أن يتجاوز حدود ايطاليا لغزو فرنسا نفسها دفعت النمسا غيرها منه الى أن تعترض طريقه وتصدر تعليماتها إليه بأن يردد إلى سويسرا لنجدة زميله الذى كان يتقهقر أمام ماسينا الفرنسى بجوار زوريخ .

وعبر الرجل جبال الألب عند أشق مرتفعاتها وأوعرها حتى إذا بلغ سويسرا وجد أن ماسينا قد قضى بالفعل على جيش زميله (كورساكوف) ولم يعد فى ذلك الميدان مجال للقتال فعاد خائبا ولاقى فى اجتياز جبال الألب عند عودته أهول وأقسى مما لاقى فى عبورها عند ذهابه وداخله الشك فى حسن نوايا النمساويين واخلاصهم فى التعاون معه فتخلى عن جيشه . وعاد إلى بلاده ممتعضا من تصرف حلفائه . وكان انسحابه من القتال سببا فى انسحاب القيصر نفسه من التحالف كما سبق لنا البيان .

وخلا الجو للنمسا — فجهزت جيشين عظيمين سرت أحدهما بقيادة ميلاس Melas إلى جنوا حيث كان ماسينا

Massèna (الفرنسي) ودفعت الآخر بقيادة كراي Kray إلى حدود نهر الرين لملاقاة جيش مورو .
أما نابليون فانه قد رسم خطته كما يأتي :

— يسير مورو من فرنسا فيعبر نهر الرين ثم يواجه جيش كراي ويضطره إلى التراجع على أن لا يتجاوز في مطاردته ألم Ulm .

— ويبقى ماسينا عند جنوا يدافع عنها النمساويين ما استطاع ليشغل جيشهم عن التفكير في الانضمام إلى جيش كراي .

— وقرر نابليون أن ينقض هو (على رأس جيش ثالث) على مؤخرة جيش كراي وجناحه الأيسر ريثما يكون هذا مشغولا بمواجهة مورو وبذلك ينقطع خط الرجعة على النمساويين وينفتح الطريق إلى فينا فيملي على أمبراطورها شروط الصلح .

غير أن عوامل شخصية^(١) بين مورو ونابليون جعلت

(١) كانت مدام مورو تغار من جوزفين عيرة قاتلة لأن جوزفين كانت السيدة الأولى في فرنسا بحكم اتصالها بنابليون في حين أن مورو لم يكن يقل كفاءة في نظر زوجته على الأقل عن نابليون وكان الواجب في نظرها أيضا

نابليول يعدل عن هذه الخطة في آخر لحظة وينقل ميدان القتال من النمسا إلى إيطاليا .

وكان سر نجاح هذه الخطة في أن النمسا لم تكن تعرف هي ولا غيرها أكثر من أن فرنسا أعدت جيشين اثنين أحدهما يسير لمقابلة كراى فى المانيا والآخر يسير لمقابلة ميلاس فى إيطاليا . أما جيش نابليون الثالث فقد احتفظ هو بسرية معداته حتى يفاجئ به العدو وتأتى الضربة الأخيرة فى هذه الحملة على يديه . على أن أخباراً تسربت إلى الخارج عن وجود هذا الجيش وكمونه بجوار حدود فرنسا الشرقية فلم يهتم بهذه الأخبار أحد وحملها الجميع على محمل الاشاعات الكثيرة التى تتواتر فى مثل تلك الأوقات العصية .

وساعد ذلك نابليون على تنفيذ خطته بخذافيرها فتقدم مورو (٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠) طارد كراى حتى بلغ مدينة أولم Ulm وهنا انتظر حتى تأتية تعليمات جديدة . وبقى ماسينيا يدافع النمساويين فى شمال إيطاليا زماناً ولكنه

أن يكون المكان الأول فى فرنسا لزوجها ولها بدلا من أن تكون لـ نابليون وجوزفين . وكانت هذه التيارات التحتانية الخطرة سببا فى المناقشة الحادة التى قامت بين الرجلين والتى أدت فى آخر الأمر الى خروج مورو على نابليون واشتراكه مع المتآمرين على حياته .

اضطر أخيراً إلى الاحتماء في مدينة جنوا (٦ أبريل سنة ١٨٠٠) حيث حوصر وشدّد عليه النمساويون الحصار شهرين متتابعين (أبريل - يونيه) حتى نفدت مئوته ومئونة الأهالي معه فكانوا في آخر الأمر لا يعفون عن أكل الكلاب بل كانوا يتقاتلون فيما بينهم على دود الأرض والجراد.

وأخيراً تحرك نابليون فبلغ مدينة جنيف في ٩ مايو ثم سار حتى بلغ عمر سانت برنار العظيم في جبال الألب (في ١٥ مايو) فعبره بجيشه في سبعة أيام وانقض منه على سهول إيطاليا الشمالية فقطع الطريق على ميلاس ثم تقدم نحوه ولكنه بلغ من استهتاره بقوة خصمه أنه وزع جيشه ذات اليمين وذات الشمال ليملك الطريق على النمساويين إذا ما شرعوا في الفرار. فكان هذا سبباً في أنه لقي ميلاس بجيش لا يبلغ ٢٥ ألف مقاتل في حين كان يربو تعداد الجيوش النمساوية هناك على ثمانين ألف. والتحم الجيشان في سهول مارنجو عند مطلع فجر ١٤ يونيه وانهزم الفرنسيون بسرعة تحت ضغط أعدائهم الكثيف حتى أن ميلاس ارتد إلى خيمته حوالى الظهر ليلي نشرة اليوم يعلن فيها انتصاره على الفرنسيين. ولكن فرقة من الفرق الفرنسية التي كانت بعيدة عنه عادت في هذه اللحظة

بقيادة ديزيه على صوت القنابل القريية وانضمت إلى القوة الفرنسية فعززت موقعها . وفوجيء بها النمسيون فدب الرعب في قلوبهم وحسبوا أنهم وقعوا في فخ نصبه لهم نابليون . وهكذا انقلبت الهزيمة إلى صفوفهم ووقع منهم في هذه المعركة ستة آلاف قتيل وثمانية آلاف أسير وغنم الفرنسيون غنائم كثيرة لم ير ميلاس بعدها بدا من إخلاء شمال إيطاليا كله والارتداد بما بقي معه من فلول جيشه إلى النمسا ليشير على حكومته بعقد الهدنة والمفاوضة في شروط الصلح .

أما نابليون فإنه بادر بالعودة إلى باريس يحمل معه أنباء معركة مارنجو ليقضى بها على آمال الجمهوريين الذين بدأت تقوى معارضتهم له بسبب استشاره بالسلطة ولم يكن بالفعل أجدى على نابليون ولا أنفع له من نصر باهر كنصر مارنجو . ثبت به أقدام قنصليته ويلقم به خصوم حكومته حجرا كبيرا يمنعهم بعده من الكلام .

على أن النمسا وإن كانت قد تخلت عن شمال إيطاليا بعد مارنجو فأنها رأت جيوشها الألمانية بقيادة كراي ماتزال قوية عزيزة في بادن . وأن حليفها انجلترا ما زالت إلى جانبها تغريها باستمرار القتال . وأن معركة مارنجو على ما لها من الأهمية

لا ينبغي أن تعتبر معركة حاسمة في هذا النزاع الحيوى . فاستانفت جهادها ضد مورو في أعالي نهر الطونة لعلها تغطي بانتصاراتها الألمانية هزيمتها الإيطالية . ولكن مورو لم يكد يطلق يده في خصومه ويؤذن له بنزالهم ومتابعة بلائه فيهم حتى اشتبك معهم في هوهنلدن (٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠) وضربهم الضربة القاضية التي كانت بمثابة صدى قوى لصدمة مارنجو — عند ذلك علمت النمسا أن لا سبيل لها إلى المقاومة وأن لا مفر لها من الاستلام . فقبلت شروط صلح لونشيل (٩ فبراير سنة ١٨٠١) الذي جاء مؤيداً لأحكام معاهدة كامبوفورميو والذي كررت فيه النمسا اعترافها بجمهوريات شمال إيطاليا والتزامها بالتخلي عن بعض الأراضى الألمانية لفرنسا .

ج — التحالف البحرى الشمالى

والآن لم يبق من دول التحالف الدولى إلا انجلترا وحدها^(١) .

(١) ولكن لم يكن مسمى ذلك أن العباء خف قليلا عن عاتق نابليون فأن انجلترا لم تكن تكنى بوجه أكشف وعمل صريح لتلقاه بهم في ساحات الحروب . بل ذهبت في عدائها معه إلى أبعد حد فلم تترك وسيلة للقضاء

ورأى نابليون أنه على الرغم من انقراذه بها فهو ما يزال عاجزا عن منازلتها لاحتمائها وراء الماء وأنه لا بد له قبل

عليه إلا اتباعها وتحت قدرتها في تطبيق مبدئها المشهور وهو : « الغاية تبرر الوسطة » على تلك السياسة العنيدة التي سلكتها مع نابليون . فكانت مدنة لندن مهد الدسائس التي تدبر لاغتيال حياة هذا المنافس الخطر والمدو اللدود . وكانت باريس مسرح تلك الدسائس وقد تمكن البوليس من ضبط المآمرين في عدة حوادث ولكن ذلك لم يكن ليحول دون مضي المديرين في تدبيراتهم الشريرة وحدث في (٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠) أن خرج نابليون إلى دار الأوبرا . وما كاد يقترب موكره من ميدانها حتى وقع دوى عنيف سمعه كل باريس وزلزلت له جدران بيوتها وانخلعت منه قلوب سامعيه . فعم الدعر وانقلب ذلك النظام السديع الذي كان يسير فيه موكب الفصل الأول إلى فوضى شذبة اختلط فيها الحابل بالنابل . ثم عاد السكون وانقشع ذلك الاضطراب عن ثمانية قتلى ونحو ستين جريحا مات منهم عشرون بعد قليل أما نابليون فلعل طول ممارسته للقنابل والمفرقات قد اكسب قلبه نوعا من الصمم يجعله في مأمن من التأثير بأصواتها وأهوالها . فأنه سار رأسا الى الأوبرا ودخل في مقصورته آمنا هادئا ووافته فيها بعد قليل من الزمن زوجته حوزفين لأنها كانت قادمة في عربة أخرى غير عربته فاهو أن رآها حتى قال : « لقد حاول الأغبياء نسفي — أين بروحرام الحفلة ؟ » وإن يفتك ما بين هاتين العبارتين من « شبه كمال الانفصال ! » الذي بدلك على ملمع وقع هذا الحادث في نفسه وتأثيره على أعصابه .

وحامت الشبهات عند التحقيق حول اليعقوبيين الذين كانوا قد راجت عن ناديهم اشاعات كثيرة مؤداها أنهم يعملون ليل نهار على قلب نظام الحكومة واعتال حساة الفصل الأول لعود الساطة الى أيديهم كما كانت في عهد

أن يفكر في تصفية حسابه معها من جمع دول أوروبا البحرية في حلف عليها . وكان على روسيا ملك اسمه بولس الأول وهو الذي كان في التحالف الدولي الثاني ثم انسحب منه بسبب سوء تصرف النمسا معه ومع جيوشه . وكانت إنجلترا تدعى لنفسها حق تفتيش كافة المراكب التي تقصد فرنسا لتمنع وصول السلاح إليها فكان هذا موضع احتجاج مستمر من دول أوروبا البحرية ولا سيما روسيا وانهز نابليون فرصة خروج القيصر على التحالف الثاني وأراد أن يكسبه إلى صفه فزين له فكرة تكوين تحالف بحري من روسيا والدنمرك والسويد على أن تتولى روسيا رياسته وتكون الغاية من تكوينه مقاومة هذا الحق الغريب الذي تدعيه إنجلترا لنفسها . فراقت هذه الفكرة لدى القيصر وعمل على تنفيذها فعلا (ديسمبر سنة ١٨٠٠) وزاد نابليون على هذا

الارهاب . فاستعمل نابليون هذا الاعداء للتخلص دفعة واحدة من هؤلاء الغرماء الديمويين فأوحى إلى مجلس الدولة بأن يصدر قراراً « بوجوب اتخاذ اجراءات خاصة ضد المتآمرين » وكانت هذه الاجراءات هي نفي رعاياه اليقافة كلهم من فرنسا (وكان عددهم نحو ١٣٠ رعم) وسبق بعضهم إلى المستعمرات الاستوائية وبعل آخرون إلى جزائر خليج إسكاي . وتعرف هذه المؤامرة « بمؤامرة بيمور » وبيمور يقابل شهر ديسمبر في التقويم الذي أنشأه رحل الثورة .

التحالف أن دخل في مفاوضات مع نابلي واسبانيا أساساً منع البضائع الانجليزية من دخول بلادهما وقعت معاهدات في هذا المعنى بين الفريقين . وبدأت جهود التحالف باستيلاء الدانمركة على البضائع الانجليزية في موانئ بحر بلطيق واحتلال بروسيا لمقاطعة هانوفر التي كانت تابعة للتاج البريطاني (أبريل سنة ١٨٠١) — وهكذا خيل إلى نابليون أنه اتمر أحسن ائتمار بعدوته الباقية . وأنها لا شك متردية في تلك الشبكة الواسعة التي نصبها لها .

على أن خطأ واحداً تصرم من هذه الشبكة فتفككت بسببه بقية الخيوط وبرزت انجلترا مرة أخرى في وجهه حرة طليقة اليدين . وذلك أن بولس الأول وجد مقتولاً في قصره (مارس سنة ١٨٠١) فولى عرش روسيا من بعده ولده اسكندر الأول الذي نقض سياسة أبيه وتخلي عن هذا التحالف البحري الذي كانت دعامته روسيا فانهار بتخليه ذلك البنيان الفخم وانهارت آمال نابليون في القضاء على انجلترا عن هذا الطريق حتى لقد قال وهو يشير إلى مبلغ تشككه في الصلة بين مقتل القيصر ومكائد الانجليز :

« لئن أخطأني الانجليز في نيفوز فقد أصابوني في
بطرسبرج » !

و — صلح اميان [٢٧ مارس سنة ١٨٠٢]

فشل إذن هذا التحالف البحري . ولكن انجلترا كانت
لا تزال تشعر بأنها في حاجة ماسة إلى الصلح لأن أهلها
كانت قد ساءت أحوالهم وفدحتهم كثرة الضرائب حتى أصبح
١٤٪ منهم لا مرتزق لهم غير الاستجداء . ولم يكن يحول
دون توقيع الصلح في ذلك الوقت بين الفريقين إلا القتال
على مصر .

وكانت الجيوش الفرنسية ما تزال مقيمة في وادي النيل
منذ سنة ١٧٩٩ — ولكن الجنرال كليبر الذي عهد إليه أمر الحملة
المصرية بعد رحيل نابليون قتل غيلة في حديقة منزله
بجوار بركة الأزبكية . وقام من بعده الجنرال مينو الذي كان
أخيب من أنجبت الثورة من القواد .

وكانت انجلترا لا يقر لها قرار وهي ترى الجنود الفرنسية
في مصر تهدد سلامة امبراطوريتها في الشرق فكانت دائبة
في العمل على إخراجهم منها بأي ثمن .

وفي أوائل سنة ١٨٠١ سارت حملة جديدة بقيادة سير رالف أبركرومبي « Sir Ralph Abercromby » انهزم أمامها مينو عند الاسكندرية ثم اضطر إلى التسليم .

وسقطت وزارة بت « Pitt » في إنجلترا (فبراير سنة ١٨٠١) وجاءت بعدها وزارة « أدنجتون » وهو في ضعفه واستسلامه على نقيض ما في ثباته وعناده . ورأى نابليون في هذا التغيير الجوهرى ما يغرى بطرق باب الصلح من جديد . واستجابت الحكومة الانجليزية في هذه المرة لدعوته بل إنها اندفعت نحو الصلح في لهفة وعجلة ما زال يذكرهما إلى اليوم مؤرخو الانجليز مع الأسف الشديد . إذ قد ضاع عليها بسبب هذا التلief وبسبب رغبتها الشديدة في خروج الفرنسيين من مصر شيء كثير من الجهود الجبارة التي بذلتها البحرية الانجليزية طول مدة هذه الحرب و انتهت مفاوضات الصلح التي بدأت في أكتوبر سنة ١٨٠١ بمعاهدة أميان التي وقعت في سنة ١٨٠٢ (٢٧ مارس) وبمقتضاها تقرر أن :

(١) تغادر الجيوش الفرنسية بلاد مصر .

(٢) ترد بريطانيا لفرنسا مستعمراتها التي استولت عليها خلال الحرب .

(٣) ترد إلى هولاندا كافة مستعمراتها التي استولت عليها
(ما عدا جزيرة سيلان)

(٤) ترد جزيرة مالطا إلى فرسانها الذين كانوا يحكمونها
قبل مسير الحملة الفرنسية على مصر .

(٥) ينزل ملك انجلترا عن لقب « ملك فرنسا » الذي
كان يتلقب به ملوك الانجليز منذ عهد ادوارد
الثالث .

(٦) تحتفظ انجلترا من كل فتوحاتها بجزيرة ترنداد
(الاسبانية) في جنوب أمريكا وجزيرة سيلان
(الهولندية) في جنوب الهند .

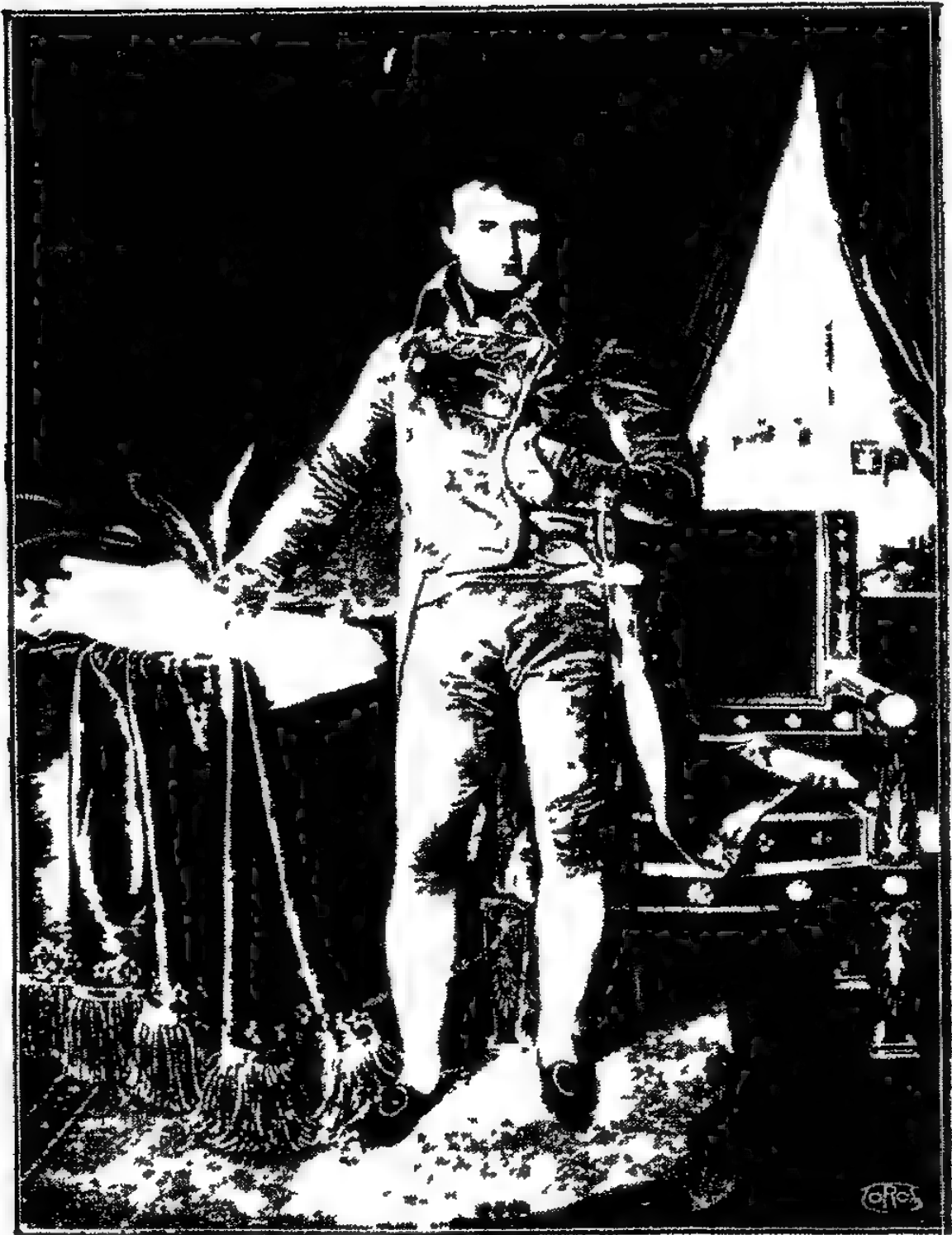
وعلى قدر سحق الناس في انجلترا على المفاوضات
الانجليزى الذى سلم فى كل هذه الشئون كان رضا الفرنسيين
عن المفاوضات الفرنسى وكان تمجيدهم على الاخص لتابليون
الذى عاد إلى فرنسا قبل ذلك بعامين اثنين وهى فقيرة طاوية
مهدة خائفة يحيط بها أعداؤها كما تحيط الذئب الكاسرة
بالفريسة الضعيفة الخائرة . فدفع عنها غائلة الفقر والحيف
وأطعمها من جوع وآمنها من خوف .

هـ (نابليون قنصل لمدة حياته :

ازاء مالقيته فرنسا على يد نابليون من الخير العميم . وأزاء ما أصبحت تتقلب فيه من نعمة السلام الشامل بعد معاهدة لونفيل (سنة ١٨٠١) والكونكورد (سنة ١٨٠١ أيضاً) وصلاح أميان (سنة ١٨٠٢) . وأزاء ما حصلت عليه من المفاخر والمغانم بفضل سلسلة هذه المعاهدات الميمونة . رأى مجلس الشيوخ في فرنسا أن يعبر باسم الأمة عن اعترافه بجميل نابليون على الشعب الفرنسي بأن اقترح إطالة مدة بقائه في مركزه عشر سنوات أخرى خلاف العترة التي قدرها دستور القنصلية .

ولكن نابليون كان في الواقع أوسع اطماعا من أن يقبل هذا العرض الضيق الضئيل الذي تقدم به اليه مجلس الشيوخ وطلب إحالة الموضوع على الأمة لأبداء رأيها فيه بطريق الاستفتاء العام . غير أنه جعل موضوع الاستفتاء في صورة أخرى وهي .

« هل يكون نابليون بونابرت قنصلا أولا طول حياته ،
فجرى التصويت على ذلك وأسفرت النتيجة عن الموافقة عليه



القنصل الأول في ملابسه الرسمية

بأغلبية ساحقة تشبه في قوتها تلك الأغلبية التي تقرر بها نظام
القنصلية نفسه . ومنذ تلك اللحظة جد نابليون في إدخال
بعض تعديلات جوهرية على دستور القنصلية يوطد بها
مركزه الجديد فراح يستصدر القرار بعد القرار بتوسيع دائرة
اختصاصه حتى انتهى به الأمر إلى أن حصل على قرار يخوله
حق تعيين خلف له على فرنسا (أغسطس سنة ١٨٠٢)
ولقد حدث بعد ذلك بسنتين أن حصل نابليون على لقب
« امبراطور » (ديسمبر سنة ١٨٠٤) ولكنه في الواقع استحق
هذا اللقب بالفعل منذ أغسطس سنة ١٨٠٢ .

الباب الثاني

فرنسا من سنة ١٨٠٢ — ١٨٠٤

الفصل الأول : انجلترا تعلن الحرب من جديد

» الثاني : التعبئة

» الثالث : المؤامرة الكبرى

» الرابع : نابليون الأول — امبراطور فرنسا

وملك إيطاليا .

الفصل الأول

انجلترا تعلن الحرب من جديد

بعد صلح أميان كان نابليون قد بلغ بفرنسا منزلة تجعل من مصلحته أن يعيش في سلام مع جيرانه . فقد كان ما يزال في الثلاثين من عمره تقريبا وتحت قدميه من الملك ما لم يتفق نلويش الرابع عشر نفسه في أوج عظمته . ففي الشمال كانت فرنسا تطوى تحت أحد جناحيها هولندا وبلجيكا . وفي الجنوب كانت تبسط جناحها الآخر على كل إيطاليا تقريبا وكان أعيان الإيطاليين قد تقدموا اليه في يناير سنة ١٨٠٢ يلتمسون منه قبول رئاسة الجمهورية الألبيية فقبلها منهم وأطلق على تلك الجمهورية منذ ذلك التاريخ اسم « الجمهورية الإيطالية » .

وفي أغسطس سنة ١٨٠٢ استولى على جزيرة البا . إذ رأى أن انجلترا ما تزال محتفظة بجزيرة مالطا على الرغم مما ورد في شروط صلح أميان من وجوب إخلائها والجلاء عنها . وفي فبراير سنة ١٨٠٣ حدث نزاع خطير في سويسرا

تدخل من أجله نابليون . و انتهى تدخله بأن غير نظام حكومتها الداخلية فترك لأعيان البلاد حكومة الأقاليم واحتفظ لنفسه برياسة الحكومة المركزية .

حدث هذا وانجلترا بالمرصاد تنظر وتصر على أسنانها كيف أن هذا الرجل يعمل على توسيع ملكه في الحرب وفي السلم على السواء . وإلى أين ينتهى بهذا المنافس توسعه . وماذا يكون من أمر الأمبراطورية البريطانية إذا تركت هذا السرطان ينتشر في أوروبا كما يفعل الآن رويدا رويدا ولكن بكل ثبات واضطراد . أفلا يخشى على نفس الجزائر البريطانية من سريانه الذريع ؟ بلى ! والحكمة السياسية السكسونية تقضى بوجوب اجراء العملية حالا لاجتناب هذا التضخم الخبيث من أصوله قبل أن يمتد إليها هي نفسها فيزدردها لقمة واحدة في فمه الواسع المنهوم !

وكانت انجلترا قد عينت لها سفيرا في باريس عقب صلح أميان هولورد وتورث « Lord Whitworth » فبالغ نابليون في الحفاوة به وأوعز إلى حكومته بتكريمه ورعايته حيثما حل أو رحل وهو يغنى من وراء ذلك إلى « نيل الخطوة لدى السيدة بملاطفة هرتها » فكانت تقام له الولائم وتوضع اللادى

قرينته موضع التعزيز والاحترام في كل حفل فوق سائر زميلات السفيرات — على أن كل هذا الترتيب لم يكبح من جماع « بلاط سانت جيمس » الذي أصر على وحب الاحتفاظ بجزيرة مالطا . وغالى إلى حد أن طلب من نابليون إخلاء هولندا . لأن الإنجليز لم يكونوا يفهمون إلا شيئاً واحداً وهو أن « نابليون خطر » . ولا بد لدفع هذا الخطر من إخلاء الفرنسيين لهولندا المواجهة للشواطئ الإنجليزية كما أنه لا بد للتحصن من هذا الخطر أن تبقى مالطا في يد الأسطول الإنجليزي لتكون قاعدة حربية له يستخدمها في دفع كل ما يهدد سلامة الامبراطورية في الشرق .

ولقد ذهلت إنجلترا أيضاً في خوفها من نابليون وعداؤها له عما كان يقوم به أنصار البربون من الدعاية الخطرة التي كانت تقوم بها صحائفهم ضد نابليون . وبخاصة ما كان ينشره صحفي بربروني اسمه بلتيه (Peltier) فإن هذا الرجل كان نهاش أعراض بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الصحافة فملاً الدنيا بمفترياته على نابليون وعلى زوجة نابليون وعلى أخوات نابليون ولم يترك نقيصة إلا رماهم بها . ولا رذيلة إلا ألصقها بصفاتهم . وكان ذلك بؤلم نابليون إيلاًماً شديداً وهو العليم

بأثر هذه المطاعن في تلويث شخصه وتشويه سمعته على ما هو عليه من الحاجة الشديدة إلى الاحتفاظ بنقاء اسمه وطهر سيرته . وذلك طبعاً بحكم عصاميته وحكم مركزه الاستثنائي بين كافة ملوك أوروبا — فكان يلحف في طلب وقف أمثال هذا الصحفي عند حدهم ولكن الحكومة الانجليزية لم تكن تجيبه في كل مرة إلا جواباً واحداً وهو : « أن الصحافة في إنجلترا حرة » . فتضيف بذلك تعريضاً جديداً به وبسياسته الداخلية فوق ما كان يشكوه من التعريضات الأخرى .

وأخيراً رأى نابليون أن لا بد له من استدعاء اللورد وتورث والافضاء اليه بحديث حاسم قاطع مانع في شأن العلاقات الفرنسية الانجليزية لأنه لم بعد يطيق الصبر على مسلك إنجلترا معه .

وفي مساء ١٨ فبراير سنة ١٨٠٣ دخل عليه اللورد في غرفته الخاصة بسرأي التويلري وكان في وسط الغرفة مائدة طويلة فأشار عليه بالجلوس في أحد طرفيها . وجلس هو تجاهه في الطرف الآخر ثم شرع يتحدث عن اهتمامه بما سييسط له من الآراء والأفكار بما حدا به إلى تحديد هذا الموعد الشخصي دون الالتجاء في ذلك الى وزير خارجيته أو إلى

سفيره في لندن حتى يكون المجال أفسح وأرحب لعرض تلك الآراء وحتى يضمن تبليغها على صورتها الحية الحارة إلى مسامع الحكومة البريطانية في لندن .

وبعد أن سرد عليه كل ما جرى بينه وبين الحكومة البريطانية منذ البداية إلى تلك اللحظة من عرض الصلح عليها عقب انتخابه لرياسة الحكومة القنصلية مباشرة ورفض بريطانيا له — إلى دخوله في مفاوضات للصلح عقب كل نصر يحرزه في ميدان القتال — إلى تساهله مع المفاوض الانجليزي الذي كان يفوضه على شروط صلح أميان إلى غير ذلك — قال له :

« ولكني أرى جهودى في سبيل النصفى مع إنجلترا غير شافعة ولا نافعة . فان الصحافة البريطانية تنفث السم في وجهى وصحافة المهاجرين الفرنسيين يسمح لها بمهاجمتى في حدود لا يبيحها الدستور البريطانى . وهذه المرتبات والاعانات تصرف للتأمين على حياتى . وبالجملة لا تهب علينا ريح من إنجلترا الا سموم قوامها البغى والعدوان وأصبحنا الآن في موقف لا بد لنا فيه من تحديد موقفنا . فهل تنوون تنفيذ معاهدة أميان أم لا تنوون ؟ — أما عن نفسى فقد نفذت

شروطها بكل أمانة ودقة وإخلاص . لقد حتمت على هذه المعاهدة أن أخلى نابولي وولايات البابا في مدى ثلاثة شهور . فأخليتها وجلوت عنها ولما تنقضى الشهور الثلاثة المحددة . وها قد مرت عشرة شهور على الأجل الذي حددته المعاهدة والجنود البريطانية ما تزال تحتل مالطا ومدينة الاسكندرية . ولست أرى أية فائدة من محاولة خداعي في هذا الموضوع فخبروني أى الأمرين تريدون : الصلح أم الحرب ؟ أما إن كنتم ترغبون في الحرب فلا أطلب منكم أكثر من التصريح بذلك . وعند ذلك أشب عليكم نارها غير آسف ولا نادم . وأما إن كنتم تسعون إلى السلام فلا بد من إخلاء مالطة والاسكندرية .

وان كنتم فى ريب من حسن نيتى فى طلب الصلح فاستمعوا واحكموا لأنفسكم عن مبلغ إخلاصى فى هذا العرض . إلتى على الرغم من حداثة سنى قد بلغت من القوة وبعد الصيد ما لا مطمع معه فى المزيد . فهل تتصورون أتنى أميل الى المجازفة بهذه القوة وبهذا الصيد فى مثل تلك المعركة الهادمة التى لا بد منها إذا ما اشتبكت معكم فى قتال — إلتى إذا أردت قتالكم فلا بد لى من عبور هذا المضيق القائم بينى

وبينكم . وربما دفنت في أعماقه مستقبلي ومجدي وحياتي وأنا
أحاول اجتيازه . إن غزو انجلترا يا سيدي اللورد لمجازفة
هائلة وشيء عظيم ! فانظر إن كنت وأنا الهاني " القوي الوادع
أميل إلى المقامرة بهنأتى وقوتى وسلامى فى سبيل هذه الغزوة
واحكم لنفسك إن كنت صادقاً حين أقول إنى أرغب فى
الصلح والسلام أم أنا مراوغ غير صادق .

إنه لخير لكم . وخير لى أن نعيش فى حدود معاهداتنا .
فيجب أن تخلوا جزيرة مالطا وأن لا تأووا فى بلادكم طالبو
حياتى وكونوا إلى مخلصين أضمر لكم فى قلبى كل إخلاص .
واذكروا أن أسطولكم إن كان سيد البحر غير منازع فان
جيشى سيد البر غير مدافع . وأحرى بنا بدل أن نصطدم فى
الحرب أن نوحّد جهودنا فى السلم لخير الانسانية !

وعلى الرغم من كل هذا الحديث فان انجلترا بقيت على
أصرارها فى وجوب الاحتفاظ بمالطا . وعند ذلك اقترح
نابليون أن تضع انجلترا الجزيرة فى عهدة قيصر روسيا
ريثما ينتهى الجدل بينهما عليها . فأبت انجلترا أيضاً قبول هذا
الاقتراح وأجابت بأنها لا ترى بأساً من الاعتراف بجمهورية
إيطاليا التى آلت رياستها إلى نابليون أخيراً إذا هو قبل بقاء

الانجليز في مالطا عشر سنين ولكن نابليون لم يكن في سبيل
المساومة على رئاسة جمهورية ايطاليا فرفض بدوره هذا العرض
وسحبت انجلترا سفيرها من باريس وشرعت تستولى على
المراكب الفرنسية التي تصادفها في عرض البحر .

وليس أبدع في هذا المقام من إيراد ذلك الحوار التصويرى
الذى عرضه المؤرخ الانجليزى « يوسف أبوت » ، فى كتابه
نابليون بونابرت ليصور به هذا النزاع القائم بين انجلترا
ونابليون .

إذ تقول انجلترا : إنك اغتصبت لنفسك عرش البريون
فيجب نابليون : وقد اغتصب عليكم عرش أسرة ستيوارت
: ولكن القنصل الأول هو رئيس الجمهورية
الايطالية .

: وإن ملك الانجليز أيضاً هو رئيس مقاطعة
هانوفر .

: لكن جيوشك مرابطة فى سويسرا
: وجنودكم رابضة فوق صخور جبل طارق
: ولكنك رجل بعيد المطامع ترمى إلى إنشاء
مستعمرات فى الخارج .

: وإن لكم عشر مستعمرات في مقابل كل
مستعمرة واحدة لنا .

فتقول إنجلترا : نحن نعتقد أنك تريد الاستيلاء على مصر .
ويجيب نابليون : أما أتم فقد استوليتم فعلا على الهند .
فتشور لهذا الكلام نائرة إنجلترا وتنادى :

« يانلسون ! هات الأسطول . وأنت يا ولنجتون ! احمل
لواء الجيش . هذا الرجل ينبغي هدمه ! إن أطماعه تهدد حريات
العالم . وأتم أيها المؤرخون الانجليز ! أبلغوا شعوب الأرض .
إن نابليون الغاصب يسوقه شيطان كبريائه واعتدائه إلى أن
يغمر هذه الأرض بالدماء ! »

وهكذا تعلن إنجلترا الحرب في ١٨ مايو سنة ١٨٠٣ على
نابليون الغاصب المتكبر ! وهكذا تبدأ هذه الحرب الشعواء
التي استمرت من غير انقطاع مدة عشر سنوات كان نابليون
في خلالها واقفا موقف الدفاع عن نفسه وعن بلاده .

الفصل الثاني

التعبئة

وقعت الحرب ولم يبق أمام نابليون إلا أن يغامر بمستقبله ومجده وحياته في عبور بحر المانش ومنازلة إنجلترا في عقر دارها بعد أن كانت كل مهاجماته لها في أشخاص حلفائها . وكان ينقصه في ذلك المال — وكانت لفرنسا مستعمرة في قلب الولايات المتحدة هي مقاطعة لويزيانا فباعها اليها بستين مليون فرنكا وبذلك أنقذها من الضياع المحقق الذي يهددها به الأسطول البريطاني وفي الوقت نفسه استولى على ثمنها ليستعد به للقتال .

ولم يكن أمام إنجلترا إلا البحر . فأمعنت في تصيد المراكب الفرنسية حتى زوارق الصيد لم تعف عن مهاجمتها . وأسرى رجالها ، واستولت كذلك على كثير من مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار

فأجاب نابليون على هذا التصرف بأن ألقى القبض على كل الانجليز النازلين في الأراضي الفرنسية

وأمر بأن تغلق الموانى الأوربية الواقعة فى دائرة نفوذه
فى وجه المراكب الانجليزية فلا تسمح بتموينها ولا تقبل
شيئا من متاجرها ولا تتيح لها بحال من الأحوال الدخول
فى مياهها

ثم احتل هانوفر ، ووضع يده على الموانى الشمالية
واستولى على أموال التجار الانجليز

ولكن شيئا من كل هذه الاجراءات لم يكن يعدل ما
يحدثه الاسطول البريطانى من الأضرار الجسيمة بالمصالح
الفرنسية حيثما سار . فان هذا الاسطول بحكم سيادته فى البحار
كان يكيل الضربات المتتالية للموانى الفرنسية المكشوفة له
وللمستعمرات الفرنسية البعيدة عن حماية فرنسا وللتجارة
الفرنسية المعرضة لمطاردته ومصادرته .

لذلك لم يكن بد لنا بليون من أن يضاعف جهوده فى اتمام
معدات الحملة المعدة لغزو انجلترا حتى تقع ضرباته على قلب
خصمه مباشرة بدل هذه المناوشات التافهة البعيدة التى لا
تؤثر ولا تقدم ولا تؤخر .

وسرعان ما اجتمع له جيش قوامه ثلثمائة الف مقاتل
وازدحمت مياه ثغر بولونى Boulogne بألفى نقالة أعدت

لحمل خمسين ومائة الف جندي الى انجلترا مزودين بعشرة آلاف حصان وأربعة آلاف مدفع . وقد تمت كل هذه المعدات بدقة مذهشة وسرعة هائلة القت الرعب في قلب الانجليز وهم ما هم من الثبات والصبر على المفاجآت . ولكن مجرد فكرة جيش قوامه مائة وخمسين الف جندي مدرب يتولى قيادته نابليون بونابرت على بعد ثلاثين ميلا من شواطئ انجلترا كانت كفيلة بأن ترتعد لها فرائص الجبال . ولذلك كنت ترى البرلمان البريطاني في ذلك الحين على رغم ما اشتهر به من الرزانة والهدوء - يعقد الجلسات العاصفة الهائجة يفتتحها بصيحات الاستغاثة ويختتمها بطلب النجدة من كل قادر على أدائها وأخيراً صدر قرار المجلس بدعوة كل من كانت سنه بين السابعة عشرة والخامسة والخمسين إلى حمل السلاح . فازدحمت بالمجندين ساحات البلاد . وكان الجدد منهم يمارسون تمريناتهم العسكرية كل صباح تحت اشراف المدربين . وكان ملكهم المسن الهرم جورج الثالث يسير بنفسه ليستعرض هذه الصفوف وينشر بينها روح الثقة والحماس .

ولم ترا الحكومة البريطانية ازاء هذا الخطر الداهم إلا أن تضاعف جهودها في معاونة المتأمرين على نابليون عسى أن

يتم الأمر على أيديهم فيكفوها مؤنة القتال فوضعت تحت تصرفهم أموالها ومراكبها . لا تسألهم كيف ينفقون المال ولا أين يذهبون بالسفن . واستعانت بمندوبين من قبلها بثتهم في هامبورج وفي مونيخ وفي ستتجارت وفي برن وفي غيرها من البلاد المتاخمة لفرنسا وزودتهم بالمال اللازم ليغروا من شاء من المهاجرين الذين كانوا يقيمون في تلك الجهات ويحومون حول الحدود الفرنسية كما ينقض على القنصل الأول عند أول فرصة تسنح له ويخلصهم من شره .

ووفق البوليس إلى اكتشاف أكثر من ثلاثين مؤامرة مدبرة لاغتيال « القنصل الأول » في تلك الناحية . ولكن نابليون ضاق ذرعا في آخر الأمر بالتربص لهؤلاء الاشقياء وتصيدهم واحدا بعد واحد واعتزم أن يصدمهم الصدمة القاضية وأن يلتقي عليهم كما قال : « درسا قاسيا لا يزول أثره من أذهانهم قبل قليل . »

الفصل الثالث

المؤامرة الكبرى

مهما بلغت أريحية نابليون بالنسبة لجنوده وقواده ومهما بلغت ميوله الحسنة بالنسبة لعامة الشعب . فان عوامل الغيرة وحزازات الصدور كانت تخرج ببعض رجاله عليه . وقد كان نابليون بسبب تلك العوامل وهذه الحزازات هدفا لعدة مؤامرات خطيرة تدبر لاغتياله . فالبربون والانجليز يرسمون الخطط ثم يستخدمون هؤلاء الساخطين للتنفيذ . ولكنه كان في كل مرة ينجو من الخطر بل إنه كان يخرج من هذا الخطر اكثر اعتداداً بنفسه وأبلغ ثقة في حسن طالعهِ حتى لقد كان كثيراً ما يتمثل بما قاله قيصر لمن معه حينما أشرفت مركبه على الغرق في عرض البحر : « لا تخافوا فان هذه المركب تحمل قيصراً وتحمل معه طالعهُ ! »

ولكن الملكيين من أسرة بوربون وأنصارهم الرابضين له في بلاد الانجائز ما كادوا يسمعون نبأ هذه الحرب الجديدة

التي شنتها عليه انجلترا حتى تضاموا وجمعوا أمرهم من جديد وقرروا فيما بينهم أن يرموه بآخر سهم في كنانتهم منتهزين فرصة انشغاله بأعداد معدات القتال للقاء الانجليز

وكان في خدمة الأمراء الملكيين الفرنسيين في مدينة لندن رجل غليظ مارد هو جورج كادودال الذي سبقت لنا الإشارة إليه فولوه زعامة عصاة قوية أثقلوها بأنواع السلاح المختلفة وزودوا زعيمها بمال وافر كثير واطلقوه على نابليون بغية اقتناصه حيا أو ميتا

وكان برنامج المتآمرين أن يبدأوا عملهم ببث الدعوة في فرنسا ضد نابليون . وجمع من استطاعوا من الساخطين عليه . والموالين للحزب الملكي حتى إذا تم لهم ذلك انقض كادودال على القنصل الأول فقتله أو اختطفه في إحدى غدواته أو روحاته . وعند ذلك يقوم أنصار الملكية بثورة في الداخل بينما يجتاز المهاجرون حدود فرنسا من الخارج . يساعدهم في ذلك أمثال بشيجرو Pichegru من القواد المعارضين لنابليون . واتجهت أنظار المتآمرين بهذه المناسبة إلى مورو بطل هوهنلندن ومعبود الشعب الفرنسي بعد نابليون وذلك لما كان بين البطالين من الجفوة والفتور . وقد

بعثوا برسولهم إلى مورو قبل سفر كادودال إلى فرنسا يحسون نبضه فصرح مورو بأنه لا يتردد لحظة في الاشتراك في أية حركة ترمى إلى إسقاط القنصلية ففرح الملكيون وتضاعف اهتمامهم بما كانوا آخذين فيه من الكيد والتآمر وأخيراً تمت الأهبة ولم يبق إلا أن يرحل كادودال وعصابته إلى فرنسا للتنفيذ .

وفي ليلة مظلمة من ليالى شتاء سنة ١٨٠٤ كان الكابتن (رايت) أحد ضباط البحرية الانجليزية يعبر المانش بمركبه وعلى ظهرها جماعة كادودال حتى إذا بلغ شاطئ نورماندى ألقي بحمولته الخبيثة على صخورها وتركهم يشقون طريقهم إلى باريس . وكان في وسط ذلك الشاطئ الصخري فجوة عميقة كان يستعملها المهربون في إدخال بضائعهم إلى فرنسا . فاتفق كادودال مع أصحابها على أن يمكنوه من دخول فرنسا عن طريقها في نظير جعل عرضه عليهم . فما هو ان لفظتهم مركب هذا الكابتن رايت حتى تسلقوا الصخر على حمل أعد لهذه الغاية من قبل . وقد بلغ من دقة كادودال واحكام تدبيره انه كان قد أعد جملة أكواخ في الطريق ما بين تلك البقعة من نورماندى وبين باريس ليأوى إليها كلما دعت

الحال حتى لا يستلفت أنظار أحد اليه ولذلك وصل المتآمرون إلى مدينة النور ودخلوها تحت طى الخفاء بسلام !
وبقى كادودال بعد ذلك شهرين طويلين ينفق المال عن سعة في نشر الدعوة ضد نابليون وفي اجتذاب الانصار لمشروعه العقيم . فلم يوفق إلى جمع أكثر من ثلاثين شخصاً أغراهم بالانضمام اليه حب ما عنده من المال أكثر مما أغرتهم بذلك كراحتهم لنابليون . ولما ظن الزعماء في لندن أن قد مر على كادودال الوقت الكافي لجمع الموالين والانصار أذنوا لبشيجرو وغيره من كبار القواد بالسفر للحاق به حتى تسير المؤامرة خطواتها الثانية وركب بشيجرو وزملاءه العظام حبل المهرين كما ركبهم رجال الدفعة الأولى وما زالوا ينسلون من مخبأ لمخبأ حتى اتصلوا بكادودال في ضواحي باريس .
وفي « البوليفار دى لامادلين » في احدى الليالى الباردة من شهر يناير سنة ١٨٠٤ كنت ترى في الظلام شبحين يقترب أحدهما من الآخر في حذر وتحفظ . وقد ظهرت على كل منهما علائم القلق والاضطراب لأنه لم يسبق لواحد منهما العمل في الظلام . فقد كان أحدهما « مورو » بطل هوهنلندن الذى مكن فرنسا بانتصاره في تلك المعركة من إملاء شروط

صلح لوفيل على امبراطور النمسا . وكان الآخر بشيجرو فاتح هولندا في عهد الثورة الفرنسية وصاحب اليد الطولى على الجمهورية الناشئة بتأييده لها وتعزيزه لقوتها .

وما كاد يقترب الرجلان ويتبادلان التحية حتى ظهر بينهما كادودال كأما انشقت عنه الأرض . وكان كادودال بطبيعة الحال مدبر هذا الاجتماع وكان يهيمه الوقوف بنفسه على ما سيتفق عليه البطلان . ولكن مورو امتعض لرؤيته ولم يسترح الى أن يكون شريكا لمثله في أى عمل من الأعمال فانسحب على أن يزوره بشيجرو بعد ذلك في موعد آخر اتفقا عليه .

والواقع أن سوء تفاهم خطير قد وقع من أول الأمر بين مورو والمتآمرين إذ بينما كان مورو يظن أن رئاسة الحكومة بعد سقوط نابليون ستسند اليه كان الملكيون يحسبون أن عداءه لنابليون قد دفع به الى أن يتخلى عن مبادئه الجمهورية لينصر الملكيين على خصمه ومنافسه . غير أن هذا اللبس لم يلبث أن تقشع عند مقابلة بشيجرو له في منزله . وبذلك انهدم ركن من أكبر أركان المؤامرة ، وانصرف بشيجرو من عنده وهو ثقل الروح مزعزع الثقة في النجاح .

وأخذت أنباء المؤامرة منذ هذه اللحظة تتسرب الى
أسماع نابليون . وقد كان مستر دريك Mr. Drake وزير انجلترا
في بافاريا قد اتصل برجل فرنسى . وتوهم بينه وبين نفسه أنه
قد أفلح في شرائه بالمال ليعمل لحسابه في التجسس على نابليون
والإتجار به مع المؤتمريين . وكان هذا الرجل من جانبه يلعب
بأوهام « دريك » ويمنيه الأمانى الحسان ويقوم في الوقت
نفسه بعرض مكاتباته على نابليون شخصياً ويتلقى من نابليون
صيغة الردود التى يجب ان يرد بها عليه وتمكن البوليس
الفرنسى في ذلك الوقت أيضاً من القاء القبض على بعض
الجواسيس فساقهم الى المحكمة وحكم عليهم بالإعدام فأفشى
بعضهم سر مؤامرة كادودال قبل اعدامه وكشف عن كل
ما يعلمه من تفاصيلها فلم ير نابليون بدا من القاء القبض على
مورو وهو يعلم أن ضجة ستقوم حول هذا القبض . وأن
أنصار مورو سوف ينسبون ذلك الى ما بينهما من الجفوة
والعداء . وقد قام بالفعل فريق من أنصار مورو ينكرون
وجود كادودال أصلاً في باريس . ويقولون ان هى إلا أوهام
القنصل الأول تخلق الدسائس وتصور المؤامرات لى
يستعين بها على التخلص من خصومه ونظرائه . فلم يلق نابليون

بالا لا قوالهم وأخذ يسخر كل ما أتاه الله من قوة في سبيل
كشف القناع عن هذه المكيدة والقاء القبض على بقية المتآمرين .
وغل نابليون بضعة أسابيع يخطط هو ورجاله في سبيل
الوقوف على آثار كادودال وعصابته . ولكن جهودهم
كلها ذهبت أدراج الرياح . ومع ذلك فقد بقيت اعترافات
المتآمرين الذين يقعون في أيدي البوليس ترى بأن كادودال
ورجاله في قلب باريس غير أن مقرهم مجهول لا يعرفه منهم
أحد لمبالغة ذلك الداهية في التحفظ والاحتياط . فلم يكن
من نابليون الا أن سن قانونا يعاقب بالأعدام كل من يأوى
المتآمرين ويعاقب بالسجن ست سنوات كل من يعلم بمقرهم
ولا يهدى البوليس اليهم . وأمر في الوقت نفسه بتشديد
المراقبة حول أسوار باريس حتى أن التوايت كانت
لا تتجاوز حدود المدينة قبل أن تفتش تفتيشاً دقيقاً خشية
أن يكون فيها أحد المتآمرين

وأخيراً استدل البوليس على مقر بشيجرو فباغته ليلا
في مخدعه والى جانبه سيفه ومسدساته ووثب عليه الجنود
قبل أن يتمكن من لمس شيء منها فعصبوا يديه وشدوا وثاقه
ثم ساقوه الى سجن التامل حيث اجتمع بمورو ... للمرة الثالثة.

ومنذ ذلك اليوم ساءت أحوال كادودال واضطربت
تصرفاته وأخذ يكثر من التنقل ليلا من مكان الى مكان وهو
لا يستقر له قرار

وجاءه رجاله في آخر الأمر يبشرونه بأنهم اهتدوا الى بيت
كثير المسارب والمسالك فعول على الانتقال اليه والاستقرار
فيه حتى تخف حدة نابليون وجنوده ويأتيه الفرج هو ورجاله
من عند الله . ولكن البوليس وقف على أثر بعض أصحابه
فترصدوهم ليهتدوا بهم إليه . إلى أن كانت ليلة ٩ مارس
سنة ١٨٠٤ إذ نما إلى علم البوليس أن كادودال قرر الخروج
من مكنه ليأوى الى جحره الجديد . ففى تلك الليلة وقفت
العربة المعدة لنقله فى زاوية احدى الطرقات التى كان يرقبها
البوليس بكل يقظة وانتباه فخرج من الظلام أربعة رجال
اندفع أحدهم نحو العربة فصعد اليها وأطلق لجوادها العنان
وأدرك البوليس أن ذلك هو جورج كادودال نفسه فاندفعوا
فى أثره يصيحون ويصفرون وينادون : « امسكوه ! امسكوه ! »
وقد نجح أحدهم فى اللحاق بالعربة والتعلق بمؤخرها . وأخيراً
أيقن كادودال بأن العربة لم تعد تنفعه فهم بالنزول منها وعند
ذلك تقدم رجل البوليس المتعلق بها وأمسك بزمام الحصان

وأقبل زملاؤه من كل فج فأحاطوا بطريدتهم وألقوا القبض عليه بعد أن أطلق عليهم النار فقتل واحد وجرح آخر ولولا أن ابتدره ثالث بضربة هراوة على رأسه لكثرت ضحاياه في ذلك الظرف العصيب .

ونجح البوليس بعد ذلك في إلقاء القبض على كثير من أعوانه وتحدد لمحاكمة الجميع يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٠٤ .
على أن نابليون لم يقنع بهذه النتيجة التي وصل اليها في مطاردة غرمائه لأنه لم يكن يرضى أن يصب انتقامه على رأس الهرة ويترك القرد اللعين الذي كان يحرك يدها حراً طليقاً وراءها يعاود عبثه وفساده . ولم يكن همه وهو يتعقب المتآمرين أن يظفر بأمثال بشيخرو ومورو ممن غلبت عليهم عاطفة الغيرة ولا بأمثال كادودال ورجاله من المأجورين عباد المال وإنما كان كل قصده أن يظفر بواحد من أمراء البوربون المتآمرين — الذين يعتبرون بحق رأس هذه الأفعى الخطرة التي كانت تهدد حياته والتي لم يوفق الى القبض على غير ذنبها — ليقصص من الأسيرة الملكية في شخصه وليجعله عبرة يعتبر بها غيره ممن يفكرون في النيل منه أو التعرض له .

فتحرى عن أمراء تلك الأسيرة وعن محل إقامة كل واحد

منهم فلم أن اثنين منهما يقيمان في لندن وأن اثنين آخرين يقيمان في وارسو وواحداً يقيم في إيتنهم « Ettenheim » بالقرب من استراسبورج على الحدود الفرنسية الشرقية ؛ فالتدبضابطاً للذهاب سرّاً الى ايتنهم ؛ وجمع كل ما يستطيع جمعه من المعلومات عن هذا الأمير ؛ وذهب الضابط وعاد بعد أن أدى مهته وقدم في العاشر من شهر مارس سنة ١٨٠٤ تقريراً بملاحظاته كلها الى نابليون وكان من بين الأوراق الموضوعة على مكتب القنصل الأول في نفس ذلك الصباح اعتراف أفضى به الليلة السابقة أحد المتآمرين من رجال كادودال . فأما التقرير فقد أثبت فيه الضابط أن دوق دنجين Duc d'Enghien كثيراً ما يذهب متخفياً الى ستراسبورج حيث تقيم حبيبته البرنسس دي روهان وأنه يتناول مرتباً من الحكومة البريطانية وأنه على استعداد لحمل السلاح والاشتراك في غزو فرنسا متى سنحت الفرصة الملائمة . وأما اعتراف السجين فكانت فحواه أن أميراً من أمراء أسرة بوربون كان المدبر الحقيقي لهذه المؤامرة وأنه إن لم يكن قد وصل الى فرنسا فعلا في ذلك الوقت فإنه سيصل اليها عما قريب . فلم يشك نابليون لحظة في أن الدوق دنجين لابد أن يكون هو نفس الأمير الذي يشير اليه هذا السجين .

فصدرت الأوامر سريعاً الى كوكبة من الفرسان لتسير الى ايتنهم وتلقى القبض على الأمير قبل أن يستشعر أحد بقدومها . وقامت تلك الكوكبة فعلاً من باريس في ١٥ مارس سنة ١٨٠٤ وأحاطت بقرية ايتنهم ليلاً ودخل رجالها على الأمير فإذا هو في فراشه فاحتملوه بملايس نومه ووضعوه في عربة أعدت لنقله وقللوا به راجعين الى باريس . وذهب واحد منهم بكتاب من نابليون الى أمير مقاطعة بادن يعتذر اليه فيه عن دخول الجنود الفرنسية في بلاده بغير استئذان سابق نظراً لطبيعة العمل الذي كلف به أو تلك الجنود في سبيل المحافظة على سلامة فرنسا وحياة القنصل الأول . ولم يجد الأمير أمامه إلا أن يقبل هذا الاعتذار .

وسيق الدوق الى المحاكمة بمجرد وصوله إلى قلعة فانسين Vincennes بجوار باريس . وقد أنكر أمام الهيئة أن له أى مساس بالمؤامرة المنسوبة اليه ولكنه اعترف بكبرياء أنه بحكم مولده وأفكاره عدو الحكومة الفرنسية الحاضرة . وأنه كان على تمام الاستعداد لحمل السلاح في وجهها متى أتاحت له الفرصة اللائقة . فحكم عليه في تلك الليلة ذاتها بالأعدام رمياً بالرصاص وسبق قبيل طلوع الفجر الى ساحة التنفيذ على ضوء المشاعل

فأذا به يرى أمامه صفاً من الأجناد فى انتظار قدومه . فوقف
أزاءهم فى هدوء أدهش الحاضرين . وقطع خصلة من شعره
ثم أخرج ساعة من جيبه وسلمهما لأحد الضباط بعد أن رجاه
أن يلتبس من جوزفين تقديمهما إلى البرنسس دى روهان
تذكراً لحبه لها . ثم أدار وجهه إلى الجنود قائلاً :

« أنى أموت فى سبيل ملكى وبلادى ! »

وأعطيت الإشارة إلى الجنود فأطلقوا بنادقهم وخر الأمير
على الأرض جثة هامدة فيها سبعة ثقوب !

ويقول خصوم نابليون أن هذا كان أبشع جرم فى سلسلة
الجرائم الكثيرة التى ارتكبها الطاغية الكورسيكى . وأن غريزته
ونشأته الجبلية قد تكشفت فى هذا الحادث عر أخبث
ما تتكشف عنه الطبائع الشريرة الدموية . وأنه مرضاة لعواطفه
السفاحية قد ضحى بأمير ملكى وادع آمن كان كل ذنبه أن أقام
بجوار محبوبته فاختطفه اختطافاً وقتله أغدر قتلة .

ويقول أنصاره أن مسئوليته فى هذا الحادث تقف عند
حد إصدار الأمر بالقبض على الأمير وأن الانصاف يقضى
بالقاء أية مسئولية أخرى على عاتق المجلس الذى تولى
المحاكمة إذ لم يعلم نابليون بالحكم إلا بعد تنفيذه . لأنه كان

فى تلك الليلة قد أوقظ مرتين لشئون تافهة فنام فى آخر الأمر متعباً بعد أن منع حراسه من إيقاظه مرة أخرى . وأن رسولا أرسل إليه بعد ذلك يبلغه ما قضى به المجلس ولكنه اكتفى بتسليم رسالته الى الحراس دون أن يتأكد من اطلاع القنصل عليها فى وقتها وان أولئك الحراس عملاً بالأوامر الصادرة اليهم لم يوقظوا نابليون واكتفوا بأن وضعوا له الرسالة بجوار سريره ليطلع عليها فى الصباح . وأنه لما اطلع عليها بعد هبوبة من النوم غضب على الرسول غضبة تليق بمن يهمل اهمالاً لا يرجى معه التسامح أو العفو .

وأما ما يقوله نابليون فى هذا الصدد فنوعان من الكلام فهو اذا خلا بأخيه يوسف مثلاً قال له : أنى أؤكد لك يا أخى أنى لم أكن أنوى لهذا الأمير المنكود الا كل خير . لقد كان عزمى بعد محاكمته أن أكسبه الى صفى بالعفو عنه . وياله من منظر جميل أن ترى بين ياوران أخيك أميراً من سلالة بيت كوندية العظيم ! »

أما اذا جلس ليحدث أحداً من رجال الدولة الرسميين وجرى ذكر هذا الحادث المشؤم فانه لم يكن يزيد على أن يضرب يده فوق كتفه وهو يقول :

« إن على هذا العاتق وحده تقع كل مسئولية في مقتل الأمير . وأن صيحات البربون في لندن لن تحملني هنا على الاعتذار عما كان . فاني أدين بالمثل القائل : « من اعتذر فقد اتهم نفسه ! »

واقرب أخيراً موعد الحكم على بقية المتآمرين ... وكان نابليون قد أرسل الى بشيجرو في السجن من يبلغه عطفه عليه وأنه ينوى التسامح معه الى حد أنه مناه بأنه سيجعله حاكم مدينة كاين (Cayenne) في غينيا الفرنسية (أمريكا الجنوبية) وقد أثرت هذه الشهامة من جانب نابليون في نفس ذلك البائس الذي كان يتآمر على حياته حتى أنه لم يكذب يسمع ذلك من الرسول الذي أبلغه له حتى أطرق برأسه الى الأرض ثم أجهش بالبكاء .

على أن المسكين طالت إقامته في السجن الى ما بعد القبض على دوق دنجين وإعدامه فلما بلغه أخيراً أنباء هذا الأمير المنكود تملكه اليأس من النجاة وفتح عليه سجانه غرفته ذات يوم فاذا هو مشنوق برباط رقبتة بجوار السرير !
أما مورو فقد أدرك المحاكمة وحكم عليه بالسجن سنتين

ولكن نابليون عفا عنه وأذن له بالانسحاب الى أمريكا .
وأمر بأن تشتري منه ضيعته بأ كبر ثمن ممكن ثم دفع له نفقات
سفره الى برشلونة ليسافر منها الى العالم الجديد .

وأخيراً سيق جورج كادودال وعصابته الى المحكمة
ليأخذوا نصيبهم من القصاص . وعبثاً حاول القضاة أن
يظفروا من أحد منهم بجواب مريح . فقد سئل كادودال مثلاً
عن محل اقامته قبل القبض عليه فأجاب :

— كنت نازلاً في عربة !

ولما طلب اليه أن يدافع عن نفسه قال :

— اذا كان حضرات القضاة يضمنون لي مئة أجمل من

هذه دافعت عن نفسي وإلا فالسكوت أولى !

وبلغ عدم اكتراث واحد من زملائه بأمر هذه المحاكمة
أنه استغرق في النوم فعلاً بينما كان المحامي عنه مسترسلاً في
الدفاع وقد ضحك الجمهور لذلك كثيراً الا المحامي فانه غضب
لما رآه من عدم تقدير موكله لجهوده !

وفي يوم الأحد ١٠ يونيه صدر الحكم بالاعدام على
١٢ من المتهمين وفي مقدمتهم كادودال فتلقوه جميعاً بكل
سكينة ثم نقلوا الى السجن انتظاراً لتنفيذ الحكم . فلما كانوا
هناك قال جورج لرفاقه :

« لقد انتهينا الآن من واجبتنا نحو ملك الارض وبقى علينا أن نقوم بواجبتنا نحو ملك السماء ! »

ثم شرع يصلى معهم

ومما يروى عن عناد كادودال أنهم أتوا اليه ذات يوم (بعد صدور الحكم عليه) برقعة فيها طلب العفو وأكّدوا له بأن نابليون مستعد للعفو عنه اذا هو وقع تلك الرقعة . فنظر كادودال اليها فاذا فى أعلاها :

الى جلالة الامبراطور

— وكان نابليون قد توج امبراطورا على فرنسا — فرماها ورفض توقيعها قائلا لرفاقه :

— لنصل أيها الرفاق ! إن ذلك الشرير يريد أن يذلنا قبل أن يقتلنا !

وحدث فى الليلة السابقة على تنفيذ الحكم أن طلب كادودال الى سجنانه أن يأتيه بزجاجة من النبيذ الجيد فلما جاءه بها لم يعجبه طعمها واعترض عليه بأنها ليست من الصنف الذى طلبه . فأجابه السجنان بخشونة :

— انها مع ذلك لا بأس بها بالنسبة لعتلٌ مثلك !

فما كان من كادودال الا أن أمسك الزجاجة في يده
بكل هدوء وأحكم سداداتها فيها ثم القاها بذراعه العبل الهرقلى
فى وجه سجنانه فرماه الى الارض لاحراك به .

وفى ٢٥ يونيه نفذ الحكم فيه هو وأعوانه وكان هو اول
الصاعدين الى الجيوتين — وكان يرقى درجها وهو يصيح :

ليحى الملك !

الفصل الرابع نابليون الاول

أمبراطور فرنسا وملك إيطاليا

كانت هذه المؤامرة الهائلة سبباً في قلق الفرنسيين على حياة بطلهم الذي جمع شملهم وأعلى كلمتهم ومهد لهم السبيل نحو العظمة والسيادة على كل دول أوربا . ورأوا أن شخص نابليون وحده هو الضمانة الوحيدة التي تكفل لهم بقاء ما هم فيه من العزة والرفاهية وسعة الجاه فودوا لو ارتبط الحكم في فرنسا بشخصه طول حياته وبذريته بعد وفاته ليطمئنوا بذلك على مستقبل بلادهم وليأمنوا بعد هذا التعديل تعرض الدول الأوروبية لشئونهم وتدخلها في نظام حكومتهم .

وقد فاز فوشيه وزير البوليس بأسبقية التقدم إلى مجلس الشيوخ ليقتراح عليه إحداث هذا التغيير في شكل الحكومة الفرنسية فتقبله منه مجلس الشيوخ مع الترحيب والتحييد . وفي ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ صدر مرسوم من المجلس « يكل حكومة

الجمهورية الى الامبراطور نابليون .

وقام موكب نخم طويل من العربات المقلّة لأعضاء المجلس قاصدين ضاحية سان كلو « S^t Cloud » حيث يقيم نابليون ليبلغوه قرارهم ويهتثوه عليه . وهناك استقبلهم في قصره وإلى جانبه جوزفين فتقدم اليه كامبريس وألقى بين يديه كلبة وجيزة عدد فيها ما لقيته فرنسا على يديه من النصر والفوز العظيم . وأشار في آخر حديثه الى أنه هو الذي أعاد اليها سمعتها وكرامتها . ونظامها . ودينها .

وما كاد ينتهى الى هذا الحد من خطبته حتى ضجعت السراى بصيحة واحدة : هي صيحة « Vive l'Empereur ! » وأجاب نابليون على هذه الخطبة بقوله أنه يرجو أن يكون عند حسن ظن الامة بخدماته وأن يوفق الى عمل ما يستحق من أجله شرف هذا اللقب العظيم .

وعند ذلك تقدم كامبسرين لالقاء كلبة تهنئة بين يدي الامبراطورة جوزفين ، فغلب عليها تأثرها ولم تجد ما تجيب به على هذه التهنئة الا ما فاضت به عيناها من الدموع .

وكتب نابليون الى البابا ييوس السابع يدعوه الى حضور حفلة تتويجه ليتولى بنفسه مسحه وتبريكه وهو يعلم ما ستسيفه

هذه الزيارة من القدسية على حفلة التويج لا سيما في نظر الشعب . وقد لبى البابا هذه الدعوة راضياً مسروراً وتمت مراسم الحفلة في يوم الاحد ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤ بكنيسة نتردام في جو من العظمة والابهة لم تشهد مثله باريس في عهد ملوكها الا كابر الغارين .

وكانت جوزفين تعلم مع الحسرة الشديدة أن كل هذه المظاهرة لا يرجي من ورائها الا الاحتفاظ بملك فرنسا لسلالة نابليون وتعلم من جهة أخرى أنها قد أقامت مع نابليون كل هذه السنين دون أن تعقب منه نسلاً . وسمعت الناس تهمس حولها بأن الحاجة سوف تدفع بنابليون إلى طلب الطلاق منها ليلتمس الولد عند غيرها . فهاجتها هذه الأقوال وفكرت في الاحتياط لنفسها بما قد يخبئه المستقبل لها من المفاجآت وكان زواحها من نابليون قد تم في عهد التورة بعقد عرفى مدنى لم يشهده القسيس ولم تباركه الكنيسة فلم تكذب البابا معها في باريس حتى توسلت اليه أن يعيد عقد نابليون عليها وأن يباركهما بقداسته ولم ير نابليون أن يعترض على شيء من ذلك رغبة منه في تطمين خاطر زوجته وتم العقد بينهما في الليلة السابقة على ليلة تويجه . ولم ترقاً



نابليون في ملابس التتويج

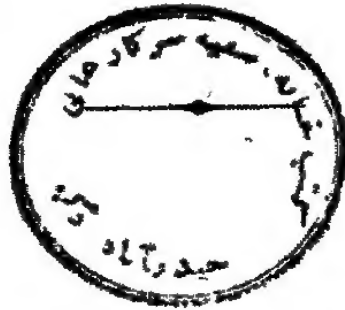
لجوزفين دمة طول ليلتها من فرط تأثرها وفرحها حتى لقد كادت تذهب حمرة جفניה أثناء حفلة التتويج بذلك الرواق الذى كان ينتظره منها الجميع .



وكأنما أثارت هذه الحفلة خواطر الايطاليين فعولوا على أن لا يكونوا وراء الفرنسيين فى الاحتفال بنابليون وتكريمه والاعتراف بفضله وهو النابت فى أرضهم المنتسب إلى أسرهم . ولذلك تقدم إليه رجال الجمهورية الإيطالية الشمالية يلتمسون منه أن يقبل تاج لمبارديا الحديدى المقدس الذى كان يزين مفرق شارلمان والذى يروى عن حديده أنه مصنوع من أحد المسامير التى خرقت كف السيد المسيح عليه السلام عند صلبه . فلم يتردد نابليون فى قبول هذه الهدية الأخرى وسافر هو وجوزفين يصحبهما البابا من باريس إلى إيطاليا وتم تتويجه هناك فى كاتدرائية ميلان الشهيرة فى السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٤ وكانت الحفلة بحضور البابا أيضاً غير أنه لما جاء دور التاج ووضع على رأس نابليون تقدم هو بنفسه قبل أن تمتد يد البابا إليه — كما صنع

في كتبة تردام — فتناولوه وركزوا قواعدهم على رأسه
وهو يقول :

« الله أعطانا هذا التاج ، فلولي لمن يلبسه ! »



اتھی

الكتاب الثالث

To: www.al-mostafa.com